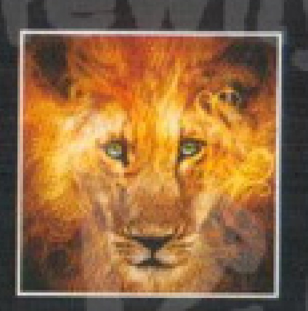
عالم نارنيا

سي أس لويس

الكُرسيّ الفِضّي

عــالـم

نارنيا



أمير مسجونٌ ... بلدٌ في خطر

نارنيا ... حيث العمالقة يُفسِدون ... حيث ساحرةٌ شريرةٌ تنسجُ رُقيةً ... حيث السحر يملك. عَبر أخطار عظيمة وكهوف عميقة ومُظلِمة، أُرسِلت فرقة من الأصدقاء لإنقاذ أمير مسجون. ولكن مهمتهم في عالم تحت الأرض أتت بهم وجهاً إلى وجه مع شر أجمل وأخطر مما توقعوه يوماً.

ISBN 90-5950-021-0
9 789059 500211

الكُرسيُ الفِضّي

تشعر جِلّ ببؤسٍ شديدٍ في يومٍ من أيام فصل الخريف الكئيبة في مدرستها الرهيبة. وبينما كان يسطاس يحاول التفريج عنها بحكايةٍ قصصٍ عن بلدٍ سحريٍّ زاره في العطلة السابقة، رأت أن رجاءها الوحيد هو بالهروب وإيجاد الأرض السحرية. فاستجمعت كل إرادتها، واندسا تحت أشجار الغار، واندفعا إلى الباب في السور الحجري.

وإذ خرجا من أرض المدرسة، من إنكلترا، من عالمنا إلى ذلك المكان، بدأت واحدةٌ من أكثر المغامَرات إثارةً ودِقّةً في نارنيا. فقد أعطى أصلان الولدين مهمة إيجاد ريليان، الابن المحبوب للملك كاسبيان، الذي اختفى بينما كان يبحث عن قاتل أمه. ولمساعدة جِلّ ويسطاس في مهمتهما في البحث عن ريليان وإنقاذه، يعطيهما أصلان أربع علامات عليهما السير بموجبها. ينبغي لهما الإسراع لكون الملك كاسبياً مُسناً، ولكنّهما في استعجالهما، ينسيان ثلاثاً من العلامات الأربعة الهامة. قد بدا أن الوقت والفرص غير مواتية لهما منذ البداية.

هذه هي المغامرة الشيّقة السادسة

في عالم نارنيا.

الكُرسيّ الفِضّيّ

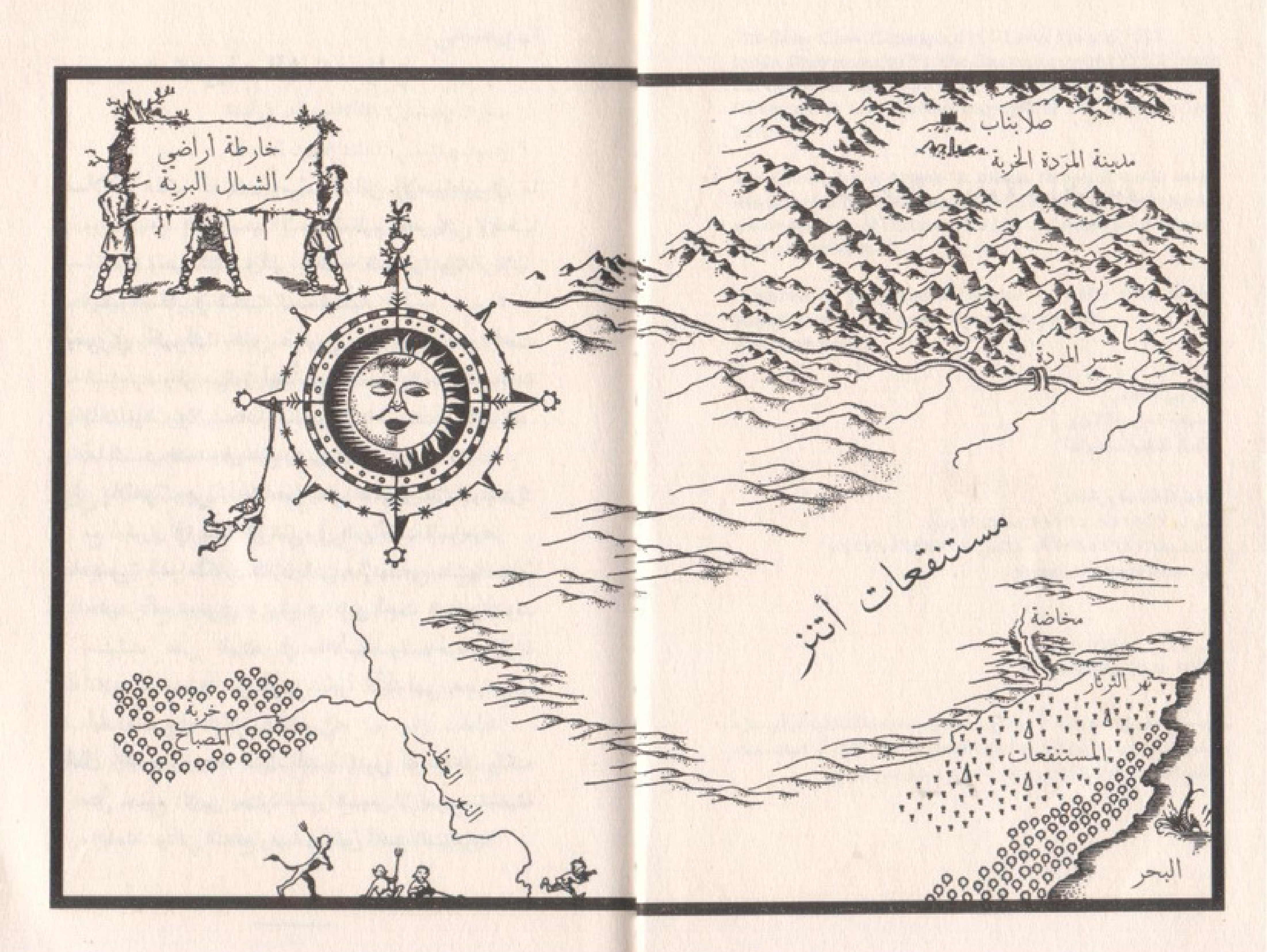
سي أس لويس

رسوم: پولين بَينز

ترجمة: سعيد باز



مُهدى إلى نيقولاس هاردي



خارطة أراضي
الشمال البرية
صلابناب
مدينة المَرَدة الخربة
جسر المردة
مستنقعات أتنز
مخاضة
نهر الثركار
المستنقعات
البحر
خربة المصباح

تعريف الشخصيات

أصلان: ملك الغابات وسيِّدُها، ابن الإمبراطور في ما وراء البحر. إنه الأسد، الأسد العظيم. وهو يأتي ويذهب كيفما ومتى شاء، ويأتي لإطاحة الساحرة وإنقاذ نارْنيا. ويظهر أصلان في الكتب السبعة كلّها.

ديغوري كيرك: نقابل ديغوري من بداية «ابن أخت الساحر»، وهو مذكورٌ أيضاً في «الأسد والساحرة وخزانة الملابس». ولولا شجاعة ديغوري، لربما لم نسمع بنارْنيا قط. أما السبب فتجده في «ابن اخت الساحر».

پولي پلامر: وهي أول شخصٍ يغادِر عالمنا إلى نارْنيا. وتشترك مع ديغوري في بداية كل شيء في «ابن أخت الساحر».

جاديس: آخر ملكات شارْن التي دمَّرتها هي نفسُها. تظهر جاديس مع ديغوري و پولي في «ابن أخت الساحر»، وقد استولت على البلاد في «الأسد والساحرة وخزانة الملابس». وفضلاً عن كونها شرِّيرةً كُلِّيّاً، فهي خطِرة جدّاً أيضاً، حتى في «الكرسيّ الفضيّ».

الخال أندرو: يعتقد السيِّد أندرو كِترلي أنّه ساحر- ولكنه مثلُ جميع الذين يعبثون بأُمور السحر لا يعرف بالحقيقة ما يفعله. وتأتي النتائج رهيبة في «ابنُ أختِ الساحر».

آل پيفِنسي:

بطرس پيفِنسي: الملك بطرس العظيم، الملك الأعلى

سوزان پيفِنسي: الملكة سوزان الرقيقة

إدمون پيفِنسي: الملك إدمون العادل

لوسي پيفِنسي: الملكة لوسي الباسلة

هؤلاء الأربعة من آل پيفِنسي، وهم أخوان وأختان، قدِموا إلى نارْنيا في زمان الشتاء الدائم إبّان حكم الساحرة البيضاء، ومكثوا هناك سنين نارْنيانيّة كثيرة، وأقاموا عصر نارْنيا الذهبي. وبطرس هو الأكبر سناً، تليه سوزان، ثُمّ إدمون ولوسي. وهم جميعاً متواجدون في «الأسد والساحرة وخزانة الملابس»، وفي «الأمير كاسبيان». كذلك يظهر إدمون ولوسي أيضاً في «رحلة جوّابة الفجر»، كما يظهر إدمون ولوسي وسوزان في «الحصان وصبيُّه»،فيما يظهر بطرس وإدمون ولوسي في «المعركةالأخيرة».

شصطى: يحيطُ سرٌّ بهذا الولد الذي تبنّاه صيّاد سمكٍ من كالورمِن. فهو ليس الشخص الذي يبدو أنّه هو، مثلما يكتشف هو نفسه في «الحصان وصبيّه».

بري: هذا الجواد الحربي أيضاً فائقٌ للعادي. فقد اختُطِف وهو مُهرٌ من غاباتِ نارْنيا، وبيع حصاناً عبداً في كالورمِن، وهو بلدٌ واقعٌ وراء بلاد آرخيا وفي أقصى جنوبي نارْنيا. وتبدأ مغامرات بري عندما يحاول الفرار في «الحصان وصبيُّه».

آرافيس: هي طرقانة، نبيلةٌ من كالورمِن. إلا أنَّ فيها مزايا خيرَّة كثيرة تبرز إلى النور في «الحصان وصبيُّه».

هُوِين: فرسٌ حسَّاسة حسنة الطباع، تتصادق مع آرافيس في «الحصان وصبيُّه».

الأمير كاسبيان: إنه ابن أخي الملك ميراز، ويُعرَف بلقب كاسبيان العاشر ابن كاسبيان، وهو ملك نارنيا الحقيقي (ملك النارْنيانيِّين القدامى). كذلك يُعرَف بألقاب «تلماري نارْنيا»، و«سيِّد كيرپراڤيل»، «وإمبراطور الجُزُر المنفردة». وهو يظهر في «الأمير كاسبيان»، و«رحلة جوَّابة الفجر»، و«الكرسيُّ الفضي»، و«المعركة الأخيرة».

ميراز: هو تلماريّ من بلاد تلمار الواقعة بعيداً ما وراء الجبال الغربية (وأجداد التلماريِّين أصلاً كانوا من عالمنا). وميراز هو مغتصب عرش نارْنيا في «الأمير كاسبيان».

ريبيتشيب: هو الفأر الرئيس. وهو الخادم المتواضع المتطوِّع لخدمة الأمير كاسبيان، ولعلَّه أكثر الفرسان بسالةً في نارْنيا كلِّها. فروسيَّتُه لا تُدانى، وكذلك شجاعته ومهارته في استعمال السيف. ويظهر ريبيتشيب في «الأمير كاسبيان»، و «رحلة جوَّابة الفجر»، و«المعركة الأخيرة».

يُسطاس كلارنس (صغرون): يُسطاس ابن خالةٍ لأولاد آل پيفِنسي، يُضطر إدمون ولوسي أن يذهبا ويزوراه. إلاّ أنه يجد نارْنيا أشبهَ بصدمةٍ. وهو يظهر في «رحلة جوَّابة الفجر»، و«الكرسي الفضيّ»، و«المعركة الأخيرة».

جِلّ پُول: هي البطلة في «الكرسي الفضّيّ»، تذهب إلى نارنيا مع يُسطاس في مغامرته النارْنيانيَّة الثانية. وهي تأتي أيضاً لنجدة نارْنيا في «المعركة الأخيرة».

الأمير ريليان: ابن الملك كاسبيان العاشر. وهو الأمير الضائع في نارْنيا. فابحث عنه وجِدْه في «الكرسي الفضّيّ».

بِرْكهموم: ساكن مُستنقعات (سباخ) طويل القامة، من المُستنقعات الشرقية في نارْنيا. شخص طويل يشكّل سلوكه الرزين جداً قناعاً لقلبه الصادق الوافر الشجاعة. يظهر في «الكرسي الفضيّ»، و«المعركة الأخيرة».

الملك تِريان: رجلٌ نبيلٌ وشجاع، آخر ملوك نارْنيا. هو وصديقه «جوهر»، أحادي القرن، يخوضان القتال معاً في «المعركة الأخيرة».

شِفطة: قردٌ عجوز وقبيح، ينوي أن يتولّى حكم نارْنيا، ويباشر أموراً لا يستطيع إيقافها في «المعركة الأخيرة».

لَغْزان: حمارٌ طيِّب لم ينوِ قطُّ إيذاء أحد. غير أنَّه ليس ذكيّاً جداً. وهو يقع ضحيَّة لخداع شِفطة في «المعركة الأخيرة».

المحتويات

—١—

وراء مبنى الرياضة ١٥

—٢—

جِلّ تُكلَّف تأدية مهمّة ٣٣

—٣—

إبحار الملك ٤٨

—٤—

برلمان بوم ٦٤

—٥—

بِركَهُوم ٨١

—٦—

أراضي الشمال القاحلة الوَعِرة ٩٧

—٧—

هضبة الخنادق الغريبة ١١٥

—٨—

بيت صِلابُناب ١٣١

—٩—

كيف اكتشفوا شيئاً يستحق المعرفة ١٤٩

—١٠—

سَفَر بِلا شمس ١٦٥

—١١—

في القصر المُظلم ١٨٣

—١٢—

مَلِكة العالَم السُفلي ١٩٩

—١٣—

العالَم السُفلي بغير المَلِكة ٢١٤

—١٤—

قَعر العالَم ٢٢٩

—١٥—

اختفاء جِلّ ٢٤٤

—١٦—

شفاء الجِراح ٢٥٩

الفصل الأوّل

وراءَ مبنى الرياضة

كان ذلك يوماً غائماً من أيّام الخريف، وكانت جِلّ پُول تبكي وراء مبنى الرياضة.

وقد كانت تبكي لأن رفاقها في المدرسة كانوا يتنمّرون عليها. ولن تكون هذه قصّة تتعلّق بمدرستها. لذلك سأقول أقلّ قدْرٍ ممكن عن مدرسة جِلّ؛ وهذا موضوعٌ غير مُمتع. فقد كانت مدرسةً للبنين والبنات على السواء، وتُدعى مدرسة «مُختلَطة». وقد قال بعضُهم إنّها لم تكن مُختلَطة كثيراً بقَدْر اختلاط عقول المسؤولين عن إداراتها وتشوُّشهم. فإنّ هؤلاء القوم كانوا يُراعون الفكرة القائلة بأنّه ينبغي السماح للصبيان والبنات بأن يفعلوا ما يحلو لهم. والمؤسِف أنّ ما حلا لِعَشرةٍ أو خمسةَ عشر من الصبيان والبنات الأكبر سنّاً، أكثر من أيّ شيءٍ آخر، كان التنمُّر على الآخرين. فقد جرت في تلك المدرسة أنواعٌ شتّى من الأمور الكريهة والشنيعة التي كان من شأنها في المدارس العاديّة أن تُكشَف وتُوقَف في غضون نصف فصلٍ دراسيّ. ولكنّها في تلك المدرسة لم تُكشَف

ولم تُوقَف. أو حتّى لو اكتُشِفت، فإنّ القائمين بها لم يكونوا يُطرَدون أو يعاقَبون. وقد قالت مديرة المدرسة إنّ أولئك المتنمِّرين والمُتنمِّرات كانوا حالاتٍ سيكولوجيّةً مُشوِّقة، وكانت تستدعيهم وتُحادِثهم ساعاتٍ طويلةً. فإذا عرفتَ أن تقول للمديرة ما ينبغي أن تقوله، تكون النتيجة الرئيسيّة أنّك تصير مُفضَّلاً لديها ومحبوباً عندها، بدلاً من العكس.

لذلك السبب كانت جِلّ پُول تبكي في ذلك اليوم الخريفيّ الغائم، في الممرّ الصغير الرطب الممتدّ بين خلفيّة مبنى الرياضة وأَجَمَة* الشُّجيرات. ولم تكن قد انتهت من بكائها تقريباً، حين انعطف صبيٌّ حول زاوية مبنى الرياضة وهو يُصفِّر ويداه في جيبيه. ولولا قليل، لاصطدم بها.

فقالت جِلّ پُول: «ألا يمكنك أن تنظر إلى حيث أنتَ ذاهب؟»

وأجاب الصبيّ: «لا بأس! لا داعيَ لأن تبدإي...». ثمّ لاحظ وجهها، فقال: «عجباً، يا پُول! ما بكِ؟»

فما كان من جِلّ إلّا أن غيَّرت تعبير وجهها، كما تفعل أنت عندما تحاول أن تقول شيئاً ولكنّك تجد أنّك إن قُلتَه تستأنف البكاء.

* الأجمة: غابة صغيرة شجرها صغير قصير، لكنّه كثيف.

وقال الصبيّ مُعبِّساً وهو يدسّ يديه في جَيبَيه أكثر: «المُشكِلة هي أولئك، على ما أظنّ، كالعادة!»

فأومأت جِلّ برأسها إيجاباً. ولم يكن من داعٍ لأنْ تقول أيّة كلمة، حتّى لو كانت تقدر أن تقول. إذ إنّ كِلَيهما يعرفان الأمر.

ثمّ قال الصبيّ: «والآن، انظُري إليّ! لا خيرَ لنا جميعاً في...».

كانت نيّته حسنة، ولكنّه تكلّم فعلاً كمن يبدأ بإلقاء مُحاضرَة. فاعتكر مزاج جِلّ وغضبَتْ فجأةً (كما يُرجَّح كثيراً أن يحدث إذا قاطعك أحد وأنت تبكي). وقالت: «آه، اذهب من هنا واهتمّ بشؤونك الخاصّة! لم يطلب منك أحد أن تُقحِم نفسك في أموري؛ أَطلب منك أحد؟ ثُمّ إنّك شخصٌ مُهذَّب بحيثُ تبدأ تقول لنا ما ينبغي لنا كُلّنا أن نفعله، ألستَ كذلك؟ أظنّ أنّك تقصد أن نقضيَ وقتنا كلّه في تملُّق أولئك وطلب رضاهم ومجاملتهم إلى آخِر حدّ، كما تفعل أنت».

فقال الصبيّ: «آه، كلاّ!» وهو يقعد على المُنحدر المكسوّ بالعشب عند طرف أجمة الشُّجَيرات، لينهض بسرعة لأنّ العشب مُبلَّلٌ جداً. وقد كان اسمُه، مع الأسف، يُسطاس صَغرون؛ غير أنّه لم يكن شخصاً رديئاً.

ثمّ قال: «يا پول، أهذا إنصافٌ منكِ؟ هل فعلتُ شيئاً قبيحاً هذا الفصلَ الدراسيّ؟ ألَم أُواجه كارتر بشأنِ

الأرنب؟ أوَلم أحفظِ السرَّ بشأنِ شپيڤنس، رُغم تعرُّضي للتعذيب أيضاً؟ أوَلَم..».

فقالت جِلّ وهي تبكي بتقطُّع: «أنا... أنا لا أعرف، ولا يهمُّني ذلك!»

وعرف صَغرون أنّها لم تعُد إلى طبيعتها بعد. فبادر بكلّ ذوق وقدَّم لها قُرص رُوح نعناع، كما وضع هو قرصاً في فمه. وما لبثت جِلّ أن بدأت تُدرِك الأمور بصورة أوضح. فبادرت قائلةً:

«أنا آسفة، يا صَغرون. لقد قسَوتُ عليك. فأنت فعلت ذلك كلَّه، في هذا الفصل».

وقال يُسطاس: «إذاً غُضّي نظركِ عن الفصل السابق إن أمكن. لقد كنت فتىً مختلفاً آنذاك. إنّي كنتُ... يا لَلهول! ما كان أصغرني وأحقرني من مُتملِّق!»

فقالت جِلّ: «حسناً، بالصِّدقِ كُنتَ هكذا».

وقال يُسطاس: «إذاً تعتقدين أنّه حصل لي بعضُ التغيير؟»

فردَّت جِلّ: «ليس أنا وحدي. فالجميع طالما قالوا ذلك. حتّى أولئك لاحظوا التغيير. فإنّ إليانور بلاكِستنْ سمعت أديلا پَنيفذَر تتحدَّث عن ذلك في غرفة تغيير الملابس يوم أمس. إذ قالت: 'إنّ أحداً ما قد سيطر على ذلك الولَد صغرون. فهو صعبُ المراس تماماً هذا الفصلَ الدراسيّ. سيكون علينا أن نتولّى أمره تالياً!'»

وشعر يُسطاس بارتعاد، لأنّ كلّ واحد في مدرسة «دار

التجريب» كان يعرف ما يعنيه أن «يتولّى أمره» أولئك!

ثمّ صمت الولدان كلاهما بعضَ الوقت، فيما كانت نقاط الماء تُنقِّط من على أوراق شجر الغار.

وحالاً سألت جِلّ: «لماذا كنتَ مختلفاً جدّاً في الفصل الدراسيّ السابق؟»

فقال يُسطاس بغموض: «حدث لي كثير من الأمور الغريبة في العُطلة الصيفيّة».

وسألت جِلّ: «أيُّ نوع من الأمور؟»

فلم يقُل يُسطاس شيئاً على مدى وقتٍ طويل تماماً. ثمّ قال: «اسمعيني، يا پول! أنتِ وأنا نكره هذا المكان كثيراً كما قد يكره الإنسان أيَّ شيء... أليس كذلك؟»

فقالت جِلّ: «أنا أعرف أنّني أكرهه».

فرد يُسطاس: «إذاً، أعتقد حقّاً أنّه يمكنني أن أثق بكِ».

«هذا من حُسنِ حظّك!»

«نعم، ولكنّ سرّي هائلٌ حقّاً. پول، هل تجيدين تصديق الأمور؟ أعني تلك الأمور التي قد يضحك عليها الجميع هنا!»

«لم تسنح لي الفرصة قبلاً. ولكنّني أظنُّ أنّني أُصدِّقها».

«أيمكنكِ أن تُصدِّقيني إذا قلتُ لكِ إنّني كنتُ خارج العالم — خارج عالمنا هذا — في أثناء عطلة الصيف الأخيرة؟»

«لستُ أدري ماذا تعني».

«حسناً، لا يَعنِنا أمرُ العوالم إذاً. ماذا لو قُلتُ لكِ إنّني كنتُ في مكانٍ تقدر فيه الحَيوانات أن تتكلَّم، وفيه... أحُم... أشياء سحريّة وتنانين، وكذلك أيضاً مختلفُ الأشياء التي تقرإين عنها في حكايات الجِنّ؟» وقد شعر صغرون بالارتباك الشديد فيما قال هذا، واحمرَّ وجهُه.

وسألته جِلّ: «كيف ذهبتَ إلى هُناك؟» وقد شعرت هي أيضاً بالخجل على نحوٍ غريب.

فقال يُسطاس بصوتٍ كالهمس: «بالطريقة الوحيدة التي يمكنك أن تذهبي بها... بالسِّحر! كنتُ برفقة اثنين من أولاد خالتي. وقد خُطِفنا إلى هناك خَطفاً. وهُما سبق أن ذهبا إلى هناك».

وإذ كانا آنذاك يتحدَّثان همساً، شعرت جِلّ على نحوٍ ما بأنَّ تصديق ذلك أسهل. ثمَّ اجتاحها فجأةً شكٌّ رهيب، فقالت (بشراسةٍ قُصوى جعلتها تبدو كالنَّمِرة حيناً):

«إذا تبيَّن لي أنّك تخدعُني، فلن أُكلِّمك ثانيةً أبداً... أبداً، أبداً، أبداً!»

فقال يُسطاس: «لستُ أخدعُكِ. أُقسِم بأنّني لا أخدعُكِ... أُقسِم بِـ... بكلِّ شيء؟»

(لمَّا كنتُ تلميذاً، كان الواحد منّا يقول: «أُقسِم بالكتاب المُقدَّس». ولكنَّ المُعلِّمين في دار التجريب لم يكونوا يُشجِّعون على استخدام الكتاب المُقدَّس.)

وقالت جِلّ: «حسنٌ جدّاً! سأُصدِّقك».

«ولا تُخبرين أحداً؟»

«تُرى، ماذا تحسبني؟»

وفي أثناء حديثهما، كانا متأثِّرَين جدّاً. ولكنْ لمَّا قالا ما قالاه، ونظرت جِلّ حواليها فشاهدت سماء الخريف الكئيبة وسمعت تنقيط الماء عن ورق الشجر، وفكَّرت في الأوضاع الميؤوس منها في دار التجريب (كان ذلك الفصل مُكوَّناً من ثلاثة عشر أُسبوعاً وقد بقي أحد عشر منها بعد) قالت:

«ولكنْ — رُغم كلِّ شيء — ما الفائدة؟ فنحن لسنا هناك، بل هُنا. وبكلِّ تأكيد لا نقدر أن نذهب إلى هناك. أم تُرانا نقدر؟»

فقال يُسطاس: «ذلك هو ما كنتُ أتساءل بشأنه. فعند رجوعنا من ذلك المكان، قال أحدهم إنَّ وَلَدي آل پيفِنسي (أي ابني خالتي) لا يمكنهما أن يعودا إلى هناك البتَّة. وقد كانت تلك زيارتهما الثالثة إلى هُناك. فأظنُّ أنّهما نالا حصَّتهما تماماً. غير أنّه لم يقُل قطُّ إنّني لا أقدر أن أرجع إلى هناك. ومن المؤكَّد أنّه كان ممكناً أن يقول ذلك بصراحة، إلّا إذا قصد أنّني أنا سأعود! ثمَّ إنّني لا أقدر أن أتمالك نفسي عن التساؤل: هل نقدر... هل يُمكِننا...؟»

«أتعني أن نفعل شيئاً لجعْل ذلك يحدث».

فأومأ يُسطاس برأسه بالإيجاب.

«هل تعني أنّه يمكننا أن نرسم دائرة على الأرض...

ونكتب فيها أشياءَ بأحرُف غريبة... ونقف داخِلَها... ونتلو سُحوراً ورُقىً؟»

وبعدما فكرَ يُسطاس جيِّداً بعضَ الوقت، قال: «حسناً، أظنُّ أن ذلك هو من نوع ما كنتُ أُفكر فيه، مع أنَّني لم أفعلْه قطّ. أمّا الآن، وقد تطرَّقنا إلى هذا الموضوع، فإنّي أتصوَّر أنَّ تلك الدوائر والأشياء كلَّها كلامٌ فارغٌ على الأرجح. فلستُ أعتقد أنّه يحبُّها. إذ قد يبدو كما لو كنّا نحسب أنّنا نقدر أن نَضطرَّه لأنْ يقوم ببعض الأفعال. ولكنّنا في الواقع لا نقدر إلّا على أن نطلب منه».

«مَن هو هذا الشخص الذي ما برحتَ تتكلّم عنه؟»

أجاب يُسطاس: «إنّهم يُسمُّونه أصلان، في ذلك المكان».

«يا لهُ منِ اسمٍ عجيب!»

فقال يُسطاس بوقار: «إنّه ليس عجيباً بمقدار نصفِ كونه هو نفسه عجيباً. ولكنْ لنُتابعْ ما ننويه. فلا ضرَرَ من مجرَّد الطلب. لنقف جنباً إلى جنب، هكذا. ولنمدَّ أذرُعَنا أمامنا وأكفَّنا إلى تحت، كما فعل الرجُل وابنتهُ في جزيرة رَمَندو..».

«جزيرةِ مَن؟»

«سأخبِرُكِ بهذا مرَّةً أُخرى. ولعلّه يريد منّا أن نواجه الشرق. فلنرَ، أين الشرق؟»

فقالت جِلّ: «لستُ أعرف».



وقال يُسطاس: «غريبٌ أمر البنات! إنهنّ لا يعرفن أبداً الجهات الأربع».

فقالت جِلّ مُغتاظةً: «وأنت أيضاً لا تعرفها!»

«بلى، أعرفها، إذا توقَّفتِ عن مُقاطعتي! لقد عرفتُ الآن: ذلك هو الشرق مقابِلَنا تماماً من بين أشجار الغار. والآن، هلّا تقولين ورائي الكلمات التي أقولها!»

فسألت جِلّ: «أيّة كلمات؟»

وأجاب يُسطاس: «الكلمات التي سأقولها طبعاً، الآن..».

ثمّ بدأ يقول: «أصلان، أصلان، أصلان!»

وكرَّرت جِلّ: «أصلان، أصلان، أصلان!»

«رجاءً، دعْنا نحن الاثنين نذهب إلى داخِل..».

وفي تلك اللحظة ذاتها سُمع صوتٌ من طرف مبنى الرياضة الآخر يقول عالياً: «بول؟ نعم، أعرف أين هي. إنّها تبكي وتُوَلوِل وراء الجِمنازيوم. فهل أحضِرها؟»

فنظر جِلّ ويُسطاس بعضهما إلى بعض، واندسّا تحت أشجار الغار، ثمّ أخذا يتسلّقان المُنحدَر الترابيّ الشديد الانحدار وسط أجَمة الشجيرات، بسرعةٍ تستحقّ المدح.

(بسبب أساليب التعليم الغريبة في دار التجريب، لم يكن التلميذ يتعلّم كثيراً من الفرنسيّة أو الحِساب أو اللاتينية وما شابه، بل تعلّم أكبر مقدار عن الفِرار بسرعة وهدوء عندما يكون أولئك يُفتّشون عنه.)

وبعد نحو دقيقة من العَربَشة والتسلّق، توقّفا كي يُصغيا، وعرفا من الأصوات أنّهما مُطارَدان.

ثمّ قال صغرون وهُما يتسلّقان: «حبّذا لو يكون الباب مفتوحاً مرّةً أخرى!» وأومأت جِلّ برأسها إيجاباً. فعند أعلى أجَمَة الشُجيرات قام حائطٌ حجريٌ عالٍ، وفيه بابٌ يُمكِنك أن تخرج منه إلى مرجة مكشوفة ذاتِ مُستنقعات. وكان ذلك الباب مُقفلاً كلّ حينٍ تقريباً. ولكن مرّت أوقاتٌ وجد فيها بعضُهم الباب مفتوحاً، أو ربّما كانت مرّةً واحدة فقط. ولكنْ يُمكِنك أن تتصوّر كيف أنّ ذِكرى مرّةٍ واحدة فحسب جعلت الأولاد يأملون، ويُجرّبون الباب. فإذا صدف أنّه غير مُقفل، فإنّه يُوفّر طريقاً رائعاً للخروج من أراضي المدرسة من دون أن يُروا.

وإذ كان جِلّ ويُسطاس كلاهما الآن يشعران بشدّة الحرّ ومُتّسِخين من جرّاء مشيِهما وهُما مُنحنيان تحتَ شجر الغار حتّى كادا يُلامِسان الأرض، تقدّما إلى الحائط صعوداً وهما يلهثان. فإذا بهما يجدان الباب مُقفلاً كالعادة.

ثم قال يُسطاس ويده على مسكة الباب: «لا فائدة حتماً». وما لبث أن قال: «أوووه، يا للعجب!» إذ إنّ المسكة دارت، والباب انفتح.

كانا قبل لحظة قد قصدا كلاهما أن يمرّا عبر ذلك الباب بخُطى سريعة جدّاً، إذا وجداه مفتوحاً بالصدفة. ولكنْ لمّا انفتح الباب فعلاً، وقفا كِلاهما بلا حراك. إذ إنّ ما رأياه كان مختلفاً تماماً عمّا توقّعاه.

فقد توقّعا أن يريا مُنبَسط المرجة الرماديّ المكسوّ بنبات الخَلَنج*، ممتدّاً صعوداً إلى حيث يلتقي سماء الخريف الغائمة الكئيبة. لكنْ قابلَهما وهجٌ من حرّ الشمس، وقد ترامى ضوؤها عبر الباب كما يترامى ضوء نهارٍ في شهر تمّوز (يوليو) إلى داخل كاراجٍ تفتحُ بابَه، ممّا جعل نقاط الماء على العُشب تتألّق كالخَرَز، كما كشف وجه جِلّ المُلطّخ بالدموع. وكان ضوء الشمس صادِراً عمّا بدا بالتأكيد أنّه عالَمٌ آخر، ما استطاعا أن يريا منه. فقد رأيا تُربةً خضراء أنعم وأزهى من كلّ ما سبق أن شاهدته جِلّ، وسماءً زرقاء

* الخلنج: نبات أوراقه صغيرة دائمة الخُضرة، وله عناقيد من الأزهار الوردية على شكل أجراس.

صافية ينطلق فيها ذهاباً وإياباً أشياءُ برّاقة جداً بحيث كان يمكن أن تكون إمّا جواهر وإمّا فراشاتٍ ضخمة.

ومع أنّ جِلّ كانت تتوق دائماً إلى مثل تلك الأشياء، فقد شعرت بالذُّعر. ونظرت إلى وجه صغرون فرأت أنه هو أيضاً مذعور. إلّا أنّه قال بصوتٍ لاهث: «هيّا بنا، پول!»

فسألت جِلّ: «هل يمكننا أن نرجع؟ وهلِ الأمرُ مأمون؟»

في تلك اللحظة صاح من خلفهما صوت، صوتٌ ضئيل حقير يتقصّد الإغاظة، زعق قائلاً: «هيّا، يا پول الآن! الجميع يعرفون أنّكِ هُنا. انزلي حالاً». وقد كان ذلك صوت إيدِث جاكِل، وهي ليست واحدةً من «أولئك»، بل واحدةٌ من مُلازِميهم الذين ينقلون إليهم الأخبار.

قال صغرون: «بسُرعة! هيّا، أمسكي بيدي. يجب ألّا ننفصل بعضُنا عن بعض». وقبل أن تدري بما يجري تماماً، كان قد أمسك بيدها وشدّها عبر الباب خارجَ أرض المدرسة، خارجَ إنكلترة، خارجَ عالَمِنا، إلى داخل «ذلك المكان».



وانقطع صوت إيدِث جاكِل فجأةً كما ينقطع صوتٌ في الراديو حالإطفائه. وفي الحال سُمع حواليهما صوتٌ آخر مختلفٌ تماماً، صادرٌ من تلك الأشياء البرّاقة فوق رأسيهما، وقد تبيَّن الآن أنّها طيور. وكانت تُطلِق أصواتاً صاخبة، إلّا أنّها أشبه بالموسيقى (بل بالحريّ بالموسيقى المتقدّمة المُعقّدة التي لا تستوعبُها تماماً عندما تسمعها أوّل مرّة) ممّا هي أيّةُ أغاني طيور في عالمنا هذا. ولكنْ على الرغم من ذلك الغناء ساد شبهُ خلفيّةٍ من الصمت الشامل الهائل. وقد جعل ذلك الصمتُ — مقترناً بالهواء العليل المُنعِش — جِلّ تحسب أنّهما لا بدّ أن يكونا على قمّة جبل عالٍ جدّاً.

وكان صغرون ما يزال مُمسكاً بيدها، وهما يتقدّمان إلى الأمام، مُحدِّقين حواليهما من كلّ جهة. ورأت جِلّ أنّ أشجاراً ضخمة، أشبه بالأرز لكنْ أكبر، طالعةٌ في كلّ ناحية. ولكن بما أنّها لم تكُن مُتقارِبة، وليس تحتها أيّة شُجيرات أو نباتات، فقد كان في وسْع المرء أن يرى إلى مدىً بعيد وسط الغابة إلى اليسار وإلى اليمين. وعلى مدى ما قدرت عينا جِلّ أن تريا، كان المشهد كلّه واحداً: تُربة مستوية، طيورٌ ذاهبة وراجعة بسرعة ذاتُ ريشٍ أصفر أو أخضر ضارب إلى الزُرقة أو بألوان قوس القُزَح، ظلالٌ زرقاء، فراغٌ واسعٌ شاسع. ولم يكن في ذلك الهواء البارد باعتدال والنيّر نسمةُ ريح واحدة. فقد كانت تلك غابةً مُنعزلةً وموحِشةً جدّاً.

ولم يكُن في الأمام تماماً أيُّ شَجَر، بل سماءٌ زرقاء فقط. وقد تقدّما بخطٍّ مستقيم دون كلام، إلى أن سمعت جِلّ صغرون يقول فجأةً: «انتبهي!» وشعرت بنتعة تشدُّها إلى الوراء. إذ إنّهما كانا على حافة جُرفٍ تماماً.

كانت جِلّ واحدةً من أولئك الأشخاص المحظوظين الذين يحتملون المرتفعات ولا يخشَونها. فلم تكُن تخشى قطُّ أن تقف على حافةِ جُرفٍ عالٍ، بل إنّها انزعجت من صغرون لشدّها إلى الوراء (قائلةً: «كأنّني بنتٌ صغيرة!»)، وانتزعت يدها من يده. وعندما لاحظت شِدّة شحوب وجهه، احتقرته. ثمّ قالت: «ما الأمر؟»

ولكي تُبيّن أنّها غير خائفة، وقفت قريبةً جدّاً من الحافَة، بل في الواقع أقربَ بكثيرٍ ممّا أحبّت هي ذاتُها. ثمّ نظرت إلى الأسفل.

عندئذٍ أدركَت أنّ صغرون كان معذوراً بعض الشيء على شحوب وجهه، إذ ليس في عالمنا أيُّ جُرفٍ عالٍ تمكن مقارنته بذلك الجرف. فتخيل نفسك على قمة أعلى جرفٍ تعرِفُهُ، وتخيّلْ نفسك ناظراً إلى القعر تماماً. ثُمَّ تخيّل ذلك القعر يغور أيضاً عشرة أضعاف، ثمّ عشرين ضعفاً. وبعد أن تنظر إلى الأسفل من تلك المسافة الشاهقة، تخيّلْ أشياءَ بيضاء صغيرة يمكن أن تحسَبها بطريق الخطإ، أوّلَ وهلة، خِرافاً، ولكنّكَ لا تلبث أن تدرك أنّها غيوم: لا نُتَف من الضباب الرقيق، بل غيومٌ بيضاء منتفخة هائلة كبيرةٌ بحجم معظم الجبال. وأخيراً، من بين تلك الغيوم، تلوح

لك أوّلُ لمحة على القعر الفعليّ، بعيداً جدّاً بحيث لا يمكنك أن تحزر أهو حقلٌ أم غابة، أو أرضٌ أم ماء... أبعدَ جدّاً تحت تلك الغيوم من بُعدِك أنت عنها في الأعلى.

حدّقت جِلّ إلى تلك الهوّة السحيقة. ثُمَّ فكّرت أنّه ربمّا كان عليها، رُغم كلّ شيء، أن تتراجع مسافةَ قَدَمٍ أو نحوها عن الحافَة، ولكنّها لم ترغب في ذلك خوفاً ممّا قد يظنّه صغرون. وما لبثت أن قرّرت فجأةً ألا تهتم بما يظنّه، وأنّ عليها بكلّ تأكيد أن تبتعد عن تلك الحافةِ المُروِّعة وألّا تضحك أبداً على أيّ شخصٍ لا يحبُّ المرتفعات. ولكنْ لمّا حاولت أن تتحرّك، تبيَّن لها أنّها لا تقدر. فقد بدا لها أنّ رجليها تحوّلتا إلى قطعتَي خشب. وإذا بكلّ شيء يطفو ويحوم أمام عينيها.

وصاح صغرون: «ماذا تفعلين، يا پول؟ ارجعي إلى هنا، أيّتها الحمقاء الصغيرة الثرثارة!» ولكن بدا صوته آتياً من مسافةٍ بعيدة جدّاً. وقد شعرت أنّه يمسِكُ بها. لكنّها آنذاك فقدتِ السيطرة على ذراعيها ورجليها. وكانت لحظةً من الصّراع فوق حافة الجُرف. وقد منعَها خوفُها الشديد ودوختُها القويّة أن تعرف تماماً ما كانت تفعله، غير أنّها تذكّرت طولَ حياتها في ما بعد أمرين اثنين (وغالباً ما انتاباها في أحلامها). كان أحدُهما أنّها أفلتت من قبضتَي صغرون عمداً؛ والثاني أنّ صغرون، في اللحظة عينها، زعق زعقة رُعبٍ إذ فقدَ توازُنَه وهوى إلى الأعماق بسرعةٍ رهيبة.

ومِن سَعدِها أنّه لم يُتَح لها وقتٌ للتفكير في ما فعلَته. فإنّ حيواناً ضخماً زاهيَ اللون كان قد اندفع إلى حافة الجُرف السفلية، وتمدّد على الأرض، ومدّ رأسه فوق الهُوّة، وأخذ ينفخ (وهذا كان أعجبَ شيء). لم يكُن يجأر أو يزأر أو يشخر، بل كان فقط ينفخ الهواء من فمه المفتوح على وسعه، نافثاً الهواء إلى الخارج باستمرارٍ وانتظام يُشبِه سحبَ المكنسة الكهربائيّة للهواء إلى داخلها. وكانت جِلّ مستلقيةً بقُرب ذلك المخلوق تماماً بحيث استطاعت أن تحسّ نَفَسه يتردّد باستمرار داخلَ جسمه وخارجَه. وقد كانت مُستلقية بلا حراك، لأنّها لم تقدر أن تنهض. وكاد يُغمى عليها، بل إنّها في الواقع تمنّت لو يُغمى عليها فعلاً، ولكنّ الإغماء لا يحصل عند الطلب. أخيراً شاهدَت، في

البعيد البعيد تحتها، ذَرَّةٌ سوداء صغيرة تعوم مُبتعِدةً عن الجُرف ومُرتفِعةً قليلاً إلى الأعلى. وبينما هي تعلو، كانت تبتعد أيضاً. ولمّا وصلَت إلى مُستوى سطح الجرف، صارت بعيدةً جدّاً حتّى غابت عن نظر جِلّ. وكان واضحاً أنّها تتحرّك مُبتعِدةً عنهما بسرعةٍ فائقة. ولم تتمالك جِلّ نفسها عن التفكير بأنّ المخلوق الرابض قُربَها كان ينفخ تلك الذرّة السوداء فيدفعها بعيداً.

الفصل الثاني

جِلّ تُكلَّف تأدية مهمّة

نهض الأسد على قوائمه ونفخ نفخةً أخيرة، بغير أن ينظر إلى جِلّ إطلاقاً. ثُمّ كما لو كان قد رضي بعمله، أدار وجهه ومضى يمشي متهادياً بشموخ مبتعداً إلى قلب الغابة.

فقالت جِلّ لنفسها: «لا بدّ أن يكون هذا حلماً... لا بدّ أن يكون حلماً بالفعل. فبعد قليلٍ سأستيقظ». ولكنّه لم يكن حلماً، ولا هي استيقظت.

وقالت جِلّ: «كم أتمنّى لو لم نأتِ إلى هذا المكان الرهيب! لا أعتقد أنّ صغرون كان يعرف عنه أكثر ممّا أعرف أنا. حتّى لو كان يعرف، لم يكُن من شأنه أن يأتي بي إلى هنا دون تنبيهي إلى طبيعة المكان. ليست الغلطة غلطتي في سقوطه من فوق ذلك الجُرف. ولو تركني وشأني، لكُنّا كِلانا بخير». ثمّ تذكّرت من جديد الزعقة التي أطلقها صغرون عند سقوطه، فانفجرت بالبكاء.

قد يكون البكاء مُريحاً بعض الشيء ما دام مستمرّاً. ولكنّ عليك أن تكفّ عنه عاجلاً أو آجلاً، وعندئذٍ يبقى عليك أن تُقرِّر ماذا تفعل. فلمّا كفكفت جِلّ دموعها،



تبيّن لها أنّها عطشانة عطشاً شديداً. وقد كانت مُنبطحة ووجهها نحو الأسفل، ثمّ جلسَت. فإذا الطيور قد توقّفت عن الغناء وخيّم صمتٌ تامّ، ما عدا صوتاً خافتاً ثابتاً بدا آتياً من مسافة بعيدة بُعداً لا بأس به. وأصغت بانتباه، فتأكّدت تأكُّداً شِبهَ تامّ بأنّه خريرُ مياهٍ جارية.

ثمّ نهضت ونظرت حواليها بكلّ انتباه، فلم ترَ أثراً للأسد، ولكنْ كان هنالك عدَد كبير من الأشجار بحيث كان من المحتمل أن يكون قريباً جدّاً ولا تراه. وحسب كلّ ما تعرفه، قد تكون هنالك عدة أسود. ولكنّ عطشها اشتدّ عليها كثيراً الآن، فاستجمعت شجاعتها كي تذهب وتبحث عن المياه الجارية. ومشت على رؤوس أصابع قدميها، متسلّلةً بحذر من شجرة إلى شجرة، ومتوقّفةً لتنظر حواليها عند كلّ خطوة.

كانت الغابة هادئة جدّاً، فلم يكُن صعباً أن تحدّد مصدر الصوت، وقد غدا أوضحَ كلّ لحظة. ثُمّ إنّها، بأسرعَ

ممّا توقّعت، وصلت إلى فسحة مكشوفة فرأتِ الجدول، صافياً كالزجاج، يجري عبر المرْج على بُعد رمية حجر منها. إنّما رُغمَ كون منظر الماء جعلها تشعر بالعطش عشرةَ أضعاف ما سبق، لم تندفع إلى الأمام وتشربْ، بل وقفت بلا حراك كما لو كانت قد تحوّلت إلى حجر، وفمها مفتوحٌ على وسعه. وقد كان لديها سببٌ وجيه جدّاً؛ إذ كان الأسد رابضاً عند ضفّة الجدول القريبة.

كان الأسد مُمدّداً ورأسُه مرفوع، وكفّاه الأماميتان مبسوطتان أمامه، مثل الأُسود المنحوتة في ساحة ترافلغار* في لندن. وعرفت جِلّ في الحال أنّه قد رآها، لأنّ عينيه نظرتا إلى عينيها مباشرةً هُنيهةً، ثم تحوّلتا عنها: وكأنّه يعرفها جيّداً بحيثُ لم يُبالِ بها كثيراً.

وفكّرت جِلّ: «إذا هربتُ، يلحقني في لحظة واحدة. وإذا واصلتُ تقدُّمي، أدخُل في فمه مباشرةً!» وعلى كلّ حال، لم يكن يمكنها أن تتحرّك لو حاولت، ولم تقدر أن تحوّل عينيها عنه. أمّا مُدّة استمرار ذلك، فلم يمكنها أن تتأكّد منها، إذ بَدَت كأنّها ساعات. وقد اشتدّ عليها العطش إلى أقصى حدّ، حتّى كادت تشعر بأنّه لا يهمّها أن يأكلَها الأسد لو تيسّر لها فقط أن تتأكّد من حصولها على ملءِ فمها من الماء أوّلاً.

* ساحة ترافلغار: ساحة في لندن يتم فيها الاحتفال بأحداثٍ وطنية ومعارض فيها تماثيل جميلة.

«إذا كُنتِ عطشانة، يُمكنكِ أن تشربي».

كانت تلك أوّل كلمات سمِعَتها منذ أن كلّمها صغرون على حافَة الجُرف. وظلّت هُنيهةً تُحدِّق في هذا الاتجاه وذاك مُتسائلةً عمّن تكلّم. ثمّ قال الصوتُ ثانيةً: «إذا كنتِ عطشانة، فتعالَي اشربي». فتذكّرت بالطبع ما سبق أن قاله لها صغرون عن الحيوانات الناطقة في العالَم الآخر، وتبيّنَ لها أنّ المُتكلِّم كان الأسد. وعلى كلّ حال، فقد رأت شفتيه تتحرّكان هذه المرّة، ولم يكن صوته كصوت إنسان. إذ كان أعمق وأغرب وأقوى، نوعاً من الصوت الذهبيّ الثقيل. ولم يجعلْها قطّ أقلّ خوفاً ممّا كانت قبلاً، بل جعلها تخاف بطريقة مختلفة نوعاً ما.

وسألها الأسد: «ألستِ عطشانة؟»

فقالت: «أكاد أموت من العطش».

أجاب: «إذاً اشربي!»

فقالت جِلّ: «هل لي... هل يمكنني... هلّا تبتعد من هنا ريثما أشربُ لو سمحت؟»

وردّ الأسد على ذلك فقط بنظرةٍ وزأرةٍ منخفضة جدّاً. وعندما حدّقت جِلّ إلى جسمه الضخم غير المُتحرّك، أدركت أنّ ذلك كان كما لو أنّها طلبت من جبلٍ بكامله أن يتزحزح من مكانه لأجل راحتها.

وكان خرير الجدول العذبُ يكاد يُصيبها بالجنون. فقالت:

«هل تَعِد بألاّ... تفعل بي شيئاً إذا تقدّمتُ لأشرب؟»

فردّ الأسد: «أنا لا أقطع أيّ وعد». وكان العطش قد اشتدّ على جِلّ الآن، حتّى إنّها اقتربت خُطوةً وهي لا تدري.

ثمّ سألتِ الأسد: «هل تأكل فتياتٍ فعلاً؟»

فقال: «لقدِ ابتلعتُ فتياتٍ وفتياناً، نساءً ورجالاً، ملوكاً وأباطرة، مُدناً وعوالم». ولم يقُل ذلك كما لو كان يتباهى، ولا كما لو كان متأسّفاً، ولا كما لو كان غاضِباً، بل قاله فحسْب.

وقالت جِلّ: «لا أجرؤ على التقدُّم والشرب».

فقال الأسد: «إذاً، فستموتين من العطش».

وقالت جِلّ، مُقتربةً خطوةً أُخرى: «ويلاه! إذاً، أظنُّ أنّه يجب عليّ أن أذهب وأُفتّش عن جَدولِ ماءٍ آخر».

فقال الأسد: «ليس من جدولٍ آخر».

لم يخطر على بال جِلّ قطّ ألاّ تُصدِّق الأسد (فلا يُمكِن ألاّ يُصدِّقَه أيُّ شخصٍ رأى وجهه العابس الذي بدت عليه ملامح الصرامة). ثمّ قرّر عقلُها قرارَه فجأةً. وقد كان ذلك أسوأ أمرٍ اضطُرّت إلى فعله يوماً، فقد تقدّمت إلى جدول الماء، وركعت عند حافته، وبدأت تغرف الماء بيدها وتشرب. فكان ذلك الماء أبرد ماءٍ تذوّقَتْه وأكثره إنعاشاً على الإطلاق. ولم تكن لتحتاج أن تشرب منه كثيراً، لأنّه يُروي عطشك في الحال.

قبل تذوُّقها ذلك الماء، كانت تنوي أن تهرب من الأسد فوراً لحظةَ انتهائها من الشُرب. لكنَّها الآن أدركت أنَّ من شأن ذلك أن يكون أخطر شيءٍ إجمالاً. فنهضت ووقفت هناك، وشفتاها ما تزالان مبلَّلتَين من جرّاء الشرب.

وقال الأسد: «تعالَي إلى هُنا!» فكان عليها أن تُطيع، إذ كانت بين كفَّيه الأماميَّتين تقريباً الآن، محُدِّقةً إلى وجهه مباشرةً. ولكنَّها لم تقدر أن تحتمل ذلك وقتاً طويلاً، فنكَّست عينيها. وسألها الأسد:

«أيَّتها الطِّفلةُ البشريَّة، أين الصبيّ؟»

فقالت جِلّ: «لقد سقط مِن على الجُرف». ثمَّ أضافت: «يا سيِّدي!». فهي لم تعرف بأيِّ اسمٍ آخر تُناديه، وبدا لها من الوقاحة ألّا تُخاطبه بأيِّ لقبٍ يدلُّ على الاحترام.

«وكيف حصل ذلك، أيَّتها الطِّفلة البشريَّة؟»

«كان يحاول منعي من السقوط، يا سيِّدي».

«ولماذا اقتربتِ كثيراً من الحافة، أيَّتها الطفلة البشريَّة؟»

«كنتُ أتباهى، يا سيِّدي».

«جوابٌ جيِّدٌ جدّاً، أيَّتها الطفلة البشريَّة. إيّاكِ أن تعملي هذا ثانيةً». ثمَّ أضاف وقد خفَّ عبوسُ وجهه قليلاً، أوَّلَ مرَّة: «والآن، الصبيُّ بأمان. لقد نفختُه إلى نارْنيا. ولكنَّ مهمتَّك ستكون الأصعب، بسببِ ما فعلتِ».

فقالت جِلّ: «رجاءً، سيِّدي، أيَّة مهمَّة؟»

«المهمَّة التي لأجلها استدعَيتُكما — أنتِ وهو — إلى هُنا مِن عالمِكُما الخاصّ».

وقد حيَّر ذلك جِلّ كثيراً جدّاً، حتّى فكَّرت: «إنَّه يحسبُني خطأً شخصاً آخر». إلّا أنَّها لم تجرؤ أن تقول ذلك للأسد، مع أنَّها شعرت بأنَّ الأمور ستتشابك وتختلط على نحوٍ رهيب إن لم تقُل له. ثمَّ قال الأسد: «أفصِحي عمّا تُفكِّرين فيه، أيَّتها الطفلة البشريَّة».

«كنتُ أتساءل... أعني: أيُمكِن أن يكون في الأمر خطأٌ ما؟ لأنَّه لم يدعُنا أحد، أنا وصغرون، كما تعلم، بل نحن طلبنا المجيء إلى هنا. فقد قال صغرون إنَّ علينا أن نُناديَ... شخصاً ما — لم أكُن لأعرِف اسمَه — وإنَّ ذلك الشخص ربَّما يُدخِلُنا. ثمَّ ناديناه، وعندئذٍ وجدنا الباب مفتوحاً».

فقال الأسد: «لم يكُن ممكناً أن تُناديانِي لو لم أكُن أنا أناديكما».

وقالت جِلّ: «إذاً أنتَ هو ذلك الشخص، يا سيِّدي».

«أنا هو. والآن اسمعي ما هي مهمتُّكِ. بعيداً من هُنا، في أراضي نارنيا، يعيش مَلِك كبير السنّ، وهو حزينٌ لأنَّ ليس عنده أميرٌ من نسله يكون مَلِكاً بعدَه. وليس لديه وريث لأنَّ ابنه الوحيد سُرِق منه قبل سنين طويلة، ولا يعرف أحد في نارنيا أين ذهب ذلك الأمير أو هل هو

حيٌّ بَعد. ولكنَّه ما زال حياً. فأنا أعهد إليكِ بهذا الأمر: أن تبحثي عن هذا الأمير المفقود حتَّى تجديه وتُرجِعيه إلى بيت أبيه، أو تموتي في تلك المحاولة، أو تعودي إلى عالمَكِ الخاصّ».

فقالت جِلّ: «رجاءً، كيف؟»

وأجاب الأسد: «سأقول لك، يا بُنيَّتي. إليكِ العلاماتِ الأربعَ التي بها سأهديكِ في مسعاكِ. أوّلاً: ما إن تطأ قَدَما الصبيّ يُسطاس أرضَ نارنيا، حتّى يُقابِل صديقاً عزيزاً قديماً. وعليه أن يُسلِّم على ذلك الصديق حالاً. فإذا فعل ذلك تحصلان كِلاكُما على مساعدة نافعة. ثانياً: يجب عليكما أن ترحلا خارجَ نارنيا نحو الشمال حتّى تَصِلا إلى خرائب مدينة المَردة القُدامى. ثالثاً: ستجدان في خرائب تلك المدينة كتابةً على حجر، وعليكما أن تعملا بما تقولُه لكما الكِتابة. رابعاً: ستعرفان الأمير المفقود (إذا وجدتِه) بهذا: أنَّه سيكون أوّل شخص تقابلانه في تجوالكما يطلب إليكُما أن تفعلا شيئاً ما باسمي أنا، باسْمِ أصلان».

ولمّا بدا أنّ الأسد قد فرغ من الكلام، فكّرت جِلّ بأنّ عليها أن تقول شيئاً ما. وهكذا قالت: «شكراً جزيلاً لك! لقد فهمتُ».

فقال أصلان بصوتٍ أرقّ من كلّ ما استخدمه حتّى ذلك الحين: «بُنيَّتي، لعلّكِ لا تفهمين تماماً كما تظنّين. ولكنّ الخطوة الأولى هي أن تتذكّري. فكرّري لي، بالترتيب الصحيح، العلاماتِ الأربعَ».

وحاولت جِلّ، فلم تستطيع ذِكر العلامات بالترتيب الصحيح تماماً. وهكذا صحّح لها الأسد، وطلب منها إعادة العلامات مرّة بعد مرّة، حتّى تمكّنت من سردها بالتمام والكمال. وقد أبدى كثيراً من الصَّبر في ذلك، حتّى إنّ جِلّ — لمّا انتهى — استجمعت جرأتها وسألته:

«رجاءً، كيف أصل إلى نارنيا؟»

فأجابها: «على نَفَسي! سأنفخُكِ إلى داخل غرب العالم كما نفختُ يُسطاس».

«وهل أُدرِكه في الوقت المُناسِب لأُخبره بالعلامة الأولى؟ ولكنْ أحسب أنّ هذا لا يهمّ. فإذا شاهد صديقاً قديماً، فلا بُدَّ أن يتقدّم ويتكلّم إليه، أليس كذلك؟»

فقال الأسد: «لن يكون لديكِ وقتٌ لتضييعه. لذلك ينبغي أن أُرسِلَكِ حالاً. تعالَي. امشِي قُدّامي إلى حافةِ الجُرف».

وتذكّرت جِلّ جيّداً أنّه إن لم يكُن من وقت لتضيعَه، فالغلطة غلطتُها هي. ففكّرت: «لو لم أتصرّف بمنتهى الغباوة، لكُنّا أنا وصَغرون ذاهبَين معاً الآن؛ ولكان قد سمع جميع التعليمات مثلي تماماً». وهكذا فعلَت ما قاله لها الأسد. وكان مخيفاً جدّاً أن تمشي راجعةً إلى حافة الجُرف، خصوصاً والأسدُ يمشي لا معها بل وراءها، وهو لا يُصدِرُ أيّ صوتٍ بمخالبه الناعمة.

ولكنّ قبل وصولها إلى أيّ مكان قريب من الحافة، قال لها الصوت من ورائها: «قفي بلا حراك! فبعدَ هُنيهةٍ

سأنفخ. ولكنْ أوّلاً، تذكّري، تذكّري، تذكّري العلامات. كرّريها لنفسك عندما تنهضين في الصباح وعندما تنامين في الليل، وعندما تستيقظين في نصف الليل. ومهما حدث لك، فلا تَدَعي أيَّ شيء يصرف ذهنك عن التقيُّد بالعلامات واتّباعها. وثانياً، أُعطيكِ تنبيهاً. فهُنا على الجبل تكلّمتُ إليكِ بوضوح؛ ولن أفعل ذلك كثيراً تحتُ في نارنيا. وهُنا على الجبل، الهواءُ نقيّ وذهنُك صافٍ. ولكنْ حين تهبطين في نارنيا، سيزداد الهواء كثافةً؛ فخُذي حِذرَكِ جيّداً من أن يُشوّش ذهنك. ثمّ إنّ العلامات التي أطلعتُكِ عليها هُنا لَن تبدوَ أبداً مثلَ ما تتوقّعين أن تبدو، عندما تُصادفينها هناك. لهذا من المهمّ جدّاً أن تحفظيها في قلبك ولا تهتمّي بالمظاهر. فتذكّري العلامات، وصدّقيها. ولا شيء آخر يهمّ. والآن، يا ابنة حوّاء، وداعاً..».

في أواخر هذا الحديث، كان الصوت قد صار أنعم، ثمّ ما لبث أن تلاشى تماماً. ونظرت جِلّ إلى ما وراءها. فأذهلها أن ترى الجُرف قد صار فعلاً على بعد مئة مترٍ تقريباً وراءها، والأسدَ نفسه بُقعةً من الذهب الساطع على حافته. وكانت قد صرّت بأسنانها وشدّت قبضتَي يديها استعداداً لنفخةٍ هائلة من نَفَس الأسد. غير أنّ النَفَس كان بالحقيقة رقيقاً جدّاً حتّى إنّها لم تُلاحظ حتّى اللحظة التي فيها غادرَتِ الأرض. والآن، لم يعُد من شيءٍ سوى الهواء على علوّ آلافٍ فوق آلافٍ من الأقدام تحتها.

وقد شعرت بالخوف لحظةً فقط. فمن جهة، كان العالم تحتها بعيداً جدّاً بحيث بدا منفصلاً عنها تماماً. ومن جهة، كان العَوم على نَفَس الأسد مريحاً جدّاً. فقد وجدت أنّها تستطيع أن تستلقي على ظهرها أو على وجهها وتتقلّب كيفما شاءت، مثلما يمكنك أن تفعل في الماء (إن كنتَ قد تعلّمتَ العَوم جيّداً). ولأنّها كانت تجري بمثلِ سرعة النَفَس، لم تكُن أيّةُ ريح، وبدا الهواء دافئاً دفئاً لذيذاً. ولم يكُن ذلك شبيهاً بركوب الطائرة في شيء، إذ لم يحصل أيُّ هدير ولا أيُّ اهتزاز. ولو كانت جِلّ قد ركبت مُنطاداً، لرُبّما ظنّت أنّ ذلك أشبهُ به، إنّما أفضل منه.

ولمّا نظرت إلى الوراء الآن، أمكنها أن تستوعب أوّلَ مرّةٍ الحجمَ الحقيقيَّ للجبل الذي كانت تغادره. فتساءلت عن سبب كون جبلٍ بتلك الضخامة غيرَ مُغطّىً بالثلج والجليد... وفكّرت: «لكنّ أعتقد أنّ ذلك كلّه مُختلِف في هذا العالم. ثُمّ نظرت إلى ما تحتها، إلّا أنّها كانت عاليةً جدّاً حتّى لم تقدر أن تعرف أفوقَ البرِّ كانت تعوم أم فوق البحر، ولا بأيّةِ سرعةٍ كان تجري.

وفجأةً قالت جِلّ: «يُوه! العلامات! أفضَلُ أن أُكرّرها». ثمّ اعتراها الذُعر لُحيظاتٍ، ولكن تبيّنَ لها أنّها ما تزال قادرة على ذِكرها كلّها على نحوٍ صحيح. فقالت: «هذا حسنٌ جدّاً إذاً»، ثمّ استلقت على الهواء كأنّه أريكة بعدما تنفّستِ الصُعَداء.

وبعد بضع ساعات، قالت جِلّ لنفسها: «حسناً، حقّاً أقول إنّني كنت نائمة. وما أروع النوم على الهواء! تُرى، هل فعل ذلك أحدٌ قبلي؟ لا أتصوّر ذلك. أوه، أُفّ... ربّما فعل صغرون ذلك! وفي مثل هذه الرحلة بالذات، قبلي بوقت قصير. فلنرَ كيف يبدو المنظر تحتُ في الأسفل!»

وبدا المنظر شبيهاً بسهلٍ أزرق شديد القتام، لم تظهر فيه أيّة تلال، بل أشياءُ بيضاء كبيرة نسبيّاً تجري فيه ببطء. فقالت: «لا بدّ أن تكون هذه غيوماً، ولكنّها أكبر من تلك التي شاهدناها من على الجُرف. وأظنّ أنّها أكبر لأنّها أقرب. لا بدَّ أنّني أهبط. أُفٍّ من هذه الشمس!»

ذلك أنّ الشمس التي كانت في أعلى السماء عند انطلاق جِلّ في رحلتها، باتت الآن تعترض أمام عينيها. وكان معنى ذلك أنّها كانت تنحدر قُدُماً. فقد كان صغرون على حقٍّ لمّا قال إنّ جِلّ لم تعرف الجهات الأربع تماماً (ولستُ أدري حقيقة معرفة البنات عموماً بذلك)، وإلاّ، فإنّها كانت قد عرفَت، لمّا بدأتِ الشمس تعترض أمام عينيها، أنّها كانت مُتّجهةً نحو الغرب تقريباً.

وإذ حدّقت إلى السهل الأزرق تحتها، لاحظت أنّ فيه هنا وهناك نُقاطاً صغيرة ذات لونٍ أصفى وأبهت. وفكّرت جِلّ: «إنّه البحر. وأنا أعتقد فعلاً أنّ تلك جُزر». وقد كانت كذلك فعلاً. وكان ممكناً أن تشعر بالغيرة إلى حدٍّ ما لو علمَت أنّ بعضاً منها كانت جُزراً سبق أن رآها صغرون مِن على ظهر سفينة، بل نزل إليها أيضاً. غير أنّها لم تكن تعرف

ذلك. ثمّ بدأت، في ما بعد، ترى أنّ في ذلك الانبساط الأزرق تجاعيدَ صغيرةً لا بدَّ أن تكون أمواجَ مُحيطٍ كبيرةً جدّاً، إنْ كنتَ بينَها في الأسفل. وقدِ انتشر آنذاك على طول الأُفق خطٌّ كثيف قاتم، أخذ يزداد كثافةً وقتاماً بسرعةٍ فائقة تجعلك قادراً على رؤيته وهو يكبر. فكانت تلك أوّل علامة تلاحظها على السرعة الهائلة التي كانت مُسافرةً بها. وعرفت أنّ الخطّ الذي يزداد كثافةً لا بدّ أن يكون يابسة.

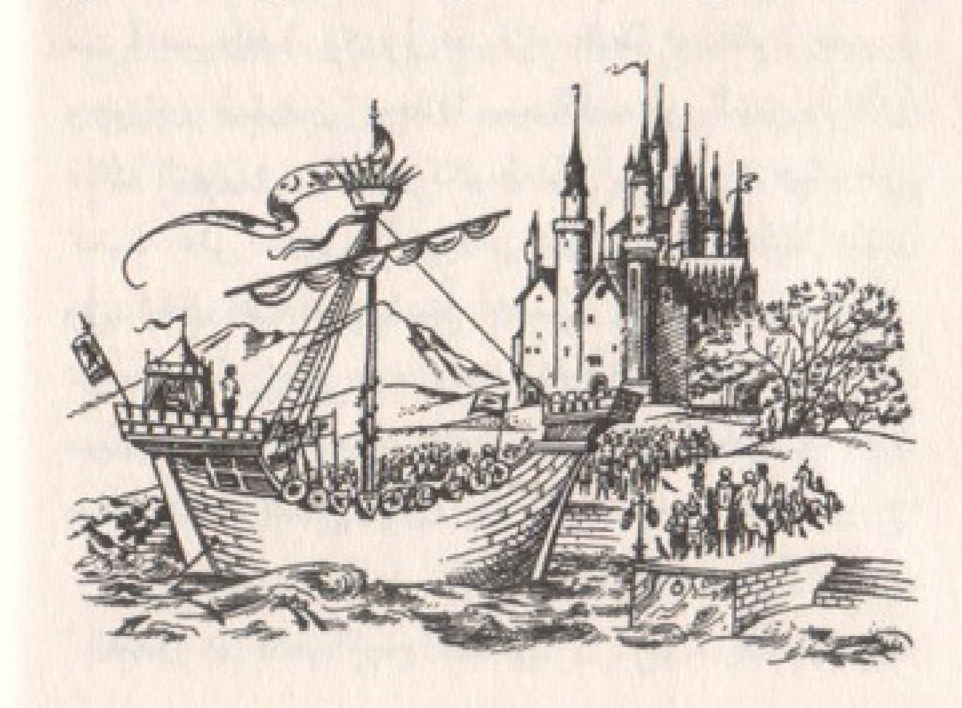
وفجأةً اندفعت نحوها غيمة بيضاء كبيرة من جهةِ يسارها (لأنّ الريح كانت باتجاه الجنوب)، وكانت هذه المرّة على مُستواها تماماً. وقبل أن تعرف أين هي، دخلَت فجأةً وسط ضبابيّتها الرطبة الباردة، فقطع ذلك نفَسها، ولكنّها بقيت وسط الغيمة لحظةً فقط، ثمّ خرجت وعيناها تطرفان في ضوء الشمس، وقد وجدت ثيابها مبلّلة. (كانت لابسةً سترةً فضفاضة وكنزةً صوفيّة غليظة وبنطلوناً قصيراً وجوربَين صفيقَين* وحذاءً سميكاً بعض الشيء؛ لأنّ ذلك النهار في إنكلترة كان مُعتكِراً.) وقد خرجت من الغيمة على مستوى أدنى من ذاك الذي دخلَتها عليه. وفي الحال لاحظت شيئاً أحسبُ أنّها كان ينبغي أن تتوقّعه، ولكنْ وقع عليها وقوع مُفاجأةٍ وصدمة. ذلك أنّها سمِعت أصواتاً، بعدما كانت حتّى ذلك الحين مسافرةً وسط سكونٍ شامل. فأوّلَ مرّةٍ الآن، سمعت هفيف الموج

* الصفيق: هو الكثيف النسيج وسميكه.

وصياح طيور النَّورس. والآن أيضاً اشتمَّت رائحة البحر. فتأكَّدت لها حقيقة سرعتها الآن. فقد شاهدَت موجتين تتلاقيان بضربة مدوّية ودفقاً من الزَّبَد يتصاعد بينهما، ولكنَّها ما كادت تلمح ذلك حتَّى صار وراءها على بُعدِ حوالي مئة متر.

ثمَّ أخذت الأرض تقترب منها بسرعةٍ كبيرة. واستطاعت أن ترى جبالاً في عُمق البرّ، وجبالاً أُخرى أقرب عن يسارها. كما استطاعت أن ترى خلجاناً ورؤوساً، وغاباتٍ وحقولاً، ومُنبسطات من الشواطئ ذات الرمال. وكان صوت تكسُّر الأمواج على الشاطئ يعلو أكثر كلَّ ثانية ويطغى على باقي الأصوات البحريَّة.

وفجأةً انكشفتِ الأرض قُدّامها. وقد كانت متَّجهةً نحو مصبِّ نهر. كما كانت كثيرة الانخفاض الآن، لا تعلو



عن سطح الماء إلّا بضعَ أقدام. وإذا بأعلى موجةٍ يصطدم بمقدَّم قدمَيها، ورَشاشٍ من الرغوة يندفع عالياً فيُبلِّلها حتّى خصرها تقريباً. وكانت سرعتها آنذاك تخفُّ كثيراً. فبدل أن تُحمَل عالياً فوق النهر، أخذت تنزلق إلى ضفَّة النهر إلى يسارها. وقد كان هنالك أمور أكثر عدداً من أن تلاحظها جميعاً: مرجة خضراء ناعمة، سفينةٌ باهرة الألوان جدّاً بحيث بَدَت مثل جوهرة هائلة متألِّقة، أبراج ومُنفرَجاتُ حصون، أعلامٌ تخفق في الهواء، جمهرة من الناس، ثياب زاهية، دُروع، ذهب، سيوف، صوتُ موسيقى. ولكنَّ ذلك كلَّه اختلط وتشوَّش. وكان أوَّل شيء عرفته جيِّداً أنَّها كانت قد حطَّت وهي تقف تحت دَغَل من الأشجار على مقربة من ضفَّة النهر. هنالك، فقط على بُعد بضعةِ أقدامٍ منها، كان صَغرون!

وكان أوَّل شيء خطر على بالها كم بدا صغرون رثَّ المظهر وقليل الترتيب وعديم الجاذبية عموماً. أمّا الثاني فكان: «كم أنا مُبلَّلة!»

الفصل الثالث

إبحار الملك

إنّ ما جعل صغرون يبدو رثّ الهيئة للغاية (وكذلك جِلّ أيضاً، لو استطاعت فقط أن ترى نفسها) كان فخامة البيئة المُحيطة بهما. ويحسن بي أن أصفها حالاً.

مِن شقٍّ في تلك الجبال التي كانت جِلّ قد رأتها في عُمق اليابسة وهي تقترب من الأرض، كان ضوء الغروب ينسكب على مرجة مستوية. وفي الطرَف البعيد من المرجة، قام قصرٌ كثيرُ الأبراج والبُريجات التي تألَّقت دوّارات اتّجاه الريح* فوقها تحت الضوء البرتقالي، وكان أجمل قصر شاهدته جِلّ يوماً. أمّا في الطرف القريب، فكان رصيفُ ميناء من الرُّخام الأبيض أُرسِيَت بمحاذاته سفينةٌ طويلة عالية المُقدَّم والمؤخّر، مُزخرفة باللّونين الذهبيّ والقرمزيّ، ولها عَلَم كبير يُرفرِف على أعلى الصاري وراياتٌ عديدة تُرفرِف على أسطُح ظهرِها،

* دوارات اتجاه الريح: أدوات تستخدم لتحديد اتجاه الريح تكون على شكل سهم أو ديك.

وصفٌ من الأتراس المتألّقة كالفضة على طول جوانبها العُليا. وقد كان لوح العبور مُلقىً عليها، وعند أسفله، على أُهبة الصعود إلى متن السفينة، وقف رجلٌ كبير السنّ جدّاً، يلبس عباءة قرمزيّة فاخرة تنفتح من الأمام فتظهر درعُه الزَرَديّة الفضّيّة. وكانت على رأسه حلقة رفيعة من الذهب، وقد تدلَّت لحيته البيضاء كالصوف حتّى خصره تقريباً. وقد كان واقفاً باستقامة لا بأس بها، واضعاً إحدى يديه على كتف سيِّدٍ فاخر اللباس بدا أصغر منه سنّاً؛ ولكنْ كان يمكنك أن تُلاحظ أنّه كان كبير السنّ كثيراً وضعيفاً جدّاً. إذ بدا وكأنّ هبّةَ ريح يمكن أن تُطيِّره بعيداً، وقد كانت عيناه دامعتين.

وتماماً قُدّام الملك – وهو قدِ استدار ليُخاطِب شعبه قبل ركوب السفينة – كان كرسيٌّ صغير على دواليب، مشدودٌ إلى حمارٍ صغير ليس أكبر بكثير من كلب صيدٍ كبير، وعلى ذلك الكُرسيّ يقعد قزمٌ صغير بدين، كان لابساً ثياباً فاخرة كثياب الملك، ولكنْ بسبب بدانته وقعوده حانيَ الظهر بين الوسائد كان الانطباع الذي يُخلِّفه مختلفاً تماماً: إذ جعله ذلك أشبه بصُرَّة صغيرة عديمة الشكل من الفرو والحرير والمُخمَل. وكان في مثل سنّ الملك، لكنْ أكثر صحّةً وعافية، وذا عينين حادَّتَي البصر. أمّا رأسه المكشوف، وقد كان أصلع وكبيراً للغاية، فقد تألّق ككرة بليارد ضخمة في ضوء الغروب.

وبعيداً إلى الوراء، في نصف دائرة، وقفَ مَن عرفت جِلّ فوراً أنّهم حاشية الملك. وكان منظرهم مُمتِعاً بفضل ثيابهم ودروعهم وحدها. فلأنّ هذه سترت معظم أجسامهم، بدَوا أشبه بحوض زهور منهم بمجموعة رجال. ولكنّ ما جعل جِلّ بالحقيقة تفتح عينيها وفمها على أوسع ما يكون كان الشعب أنفسهم — إذا كانت كلمة «الشعب» تصحُّ في وصفهم. فإنّ واحداً فقط من كلّ خمسةٍ منهم كانوا بَشَراً. أمّا الباقون فكانوا مخلوقاتٍ لا ترى مثلها أبداً في عالمنا: فُوناتٍ وساطيرات وقنطورات* (وقد استطاعت جِلّ أن تعرف أسماء هؤلاء لأنّها كانت قد رأت صُوَراً لهم) وأقزاماً أيضاً. وكان هنالك أيضاً حيواناتٌ كثيرة تعرفها كذلك: دببة وغُرَيرات وأخلاد وفهود وفئران وطيورٌ شتّى. غير أنّ تلك الحيوانات كانت مختلفة جدّاً عن الحيوانات المُسمّاة بالأسماء نفسها في إنكلترة. وكان بعضٌ منها أكبر بكثير. فالفئران مثلاً كانت تقف على قوائمها الخلفيّة وكان طولها أكثر من نصف متر. ولكنْ عدا ذلك تقريباً بَدَت

* الفونات: شخصيات تظهر في الأساطير الرومانية، نصفها السفلي كرجلي التيس، ونصفها العلوي كنصف الإنسان العلوي، مع قرني تيس. مفردها «فون».

الساطيرات: شخصيات تظهر في الأساطير اليونانية، وهي مشابهة للفونات لكنها أعنف وأشد. مفردها «ساطير».

القنطورات: كائن أسطوري مهيب له جذع إنسان وذراعان ورأس، والجزء الخلفي من حصان.

الحيوانات كلُّها مختلفة. إذ كان يمكنك من سيماء وجوهها أن تعرف أنّها تقدر أن تتكلّم وتفكّر كما تقدر أنت تماماً.

وفكّرت جِلّ: «يا لَلرّوعة! إذاً الأمرُ صحيح رُغم كلّ شيء!» لكنّها أضافت في اللحظة التالية: «تُرى، أهؤلاء ودودون؟» إذ كانت قد لاحظت في الحال، عند أطراف الجمهور، مارداً أو ماردَين وقوماً لم تستطع أن تُسمّيَهم قطعاً.

في تلك اللحظة خطر في بالها فوراً أصلان والعلامات الأربع، بعدما كانت قد نسيت ذلك كلّه آخِر نصف ساعة. ثمّ أمسكت بذراع صغرون وهمست:

«صغرون! هيّا! أترى أحداً تعرفه؟»

فقال صغرون بنفور (معذورٍ بعض الشيء): «إذاً، ها أنتِ قد ظهرتِ من جديد، أليس كذلك؟ طيّب، ظلّي ساكتة، ألا يمكنك ذلك؟ إنّي أُريد أن أسمع».

وقالت جِلّ: «لا تكن غبيّاً. ليس من لحظة نُضيّعها. ألا ترى أيَّ صديقٍ قديمٍ هُنا؟ لأنّ عليك أن تذهب إليه وتكلّمه حالاً».

فسألها صغرون: «عمَّ تتكلّمين؟»

وقالت جِلّ بيأس: «إنّه أصلان... الأسد... يقول إنّ عليك ذلك. لقد قابلتُه!»

«أوَه، صحيح؟ وماذا قال؟»

«قال إنّ أوّل شخص بالذات تراه في نارنيا سيكون صديقاً قديماً وإنّ عليك أن تتكلّم إليه في الحال».

«حسناً، ليس من شخصٍ هنا سبق أن رأيتُه في حياتي مرّةً. وعلى كلِّ حال، لستُ أدري هل هذه نارنيا».

فقالت جِلّ: «حسبتُ أنّكَ قلتَ إنّكَ قد جئتَ إلى هُنا قبلاً».

«طيّب، إذاً أخطأتِ في الحسبان».

«حسناً، يعجبني ذلك! لقد قلتَ لي..».

«كرامةً للسماء، كُفّي عن الكلام، ولنسمع ما سيقولونه!».

كان الملك يُكلِّم القزم، ولكنَّ جِلّ لم تستطع أن تسمع ما قاله. وبمقدار ما استطاعت أن تحزر، لم يُجاوِب القزمُ، مع أنّه أومأ برأسه وهزّه كثيراً. ثمّ رفع الملك صوته وخاطب الحاشية كلَّها، ولكنَّ صوته كان ضعيفاً ومتقطّعاً جدّاً بحيث لم تفهم إلّا القليل من خطابه، وخصوصاً لأنّه كان كلُّه عن أشخاص وأماكن لم تسمع بها قطُّ قبلاً.

ولمّا انتهى الخطاب، انحنى الملك وقبّل القزم على خدّيه، واستقام، ورفع يده اليُمنى كما لو كان يُبارك الجمهور، ثمّ صعد على المِعبَر الخشبيّ ببطءٍ وخُطىً مُتقلقلة إلى ظهر السفينة. وبدا أنّ

رجال الحاشية متأثّرون جدّاً من جرّاء رحيله. إذ سُحِبت المناديل وسُمِعت أصوات البكاء المتقطّع من كلِّ ناحية. ثُمَّ نُزِع المِعبَر، ونُفِخت الأبواق من على سُطيحة المؤخَّر، وابتعدت السفينة عن رصيف الميناء. (وقد كان يجرُّها قاربُ تجذيف، لكنَّ جِلّ لم تَرَه.)

وقال صغرون: «والآن..». إلّا أنّه لم يَزِد شيئاً؛ لأنّه في تلك اللحظة أقبل شيءٌ أبيض كبير (حسبَت جِلّ لحظةً أنّه طيّارة ورق) مُنقَضّاً من الفضاء وحطَّ عند قدميه. وقد كان ذلك بُومة بيضاء، لكنْ كبيرة جدّاً بحيث كانت قامتُها بطول قَزَم معتدل القامة.

ثمَّ طرفت عينا البومة وحدّقتا كما لو كانت قصيرة النظر، وأمالت رأسها قليلاً إلى جهة واحدة، وقالت بصوتٍ ناعم ناعب:

«تُوهُوو، توهوو! مَن أنتُما، يا هُوْ؟»

فقال يُسطاس: «اسمي صغرون، وهذه پُول. هلّا تقولين لنا أين نحن؟».

«في أرض نارنيا، عند قصر الملك في كيرپراڤيل».

«وهل ذاك هو المَلِك مَن ركب السفينة توّاً».

فقالت البومة بحزن وهي تهزُّ رأسها الكبير: «صحيحٌ تماماً، صحيحٌ تماماً! ولكن مَن أنتما؟ ثمّةَ شيءٌ من السِّحر حولكما. لقد رأيتكما آتيين، إذ جئتما طائرَين. وقد كان الجميع مُنشغِلين برؤية المَلِك مُقلعاً، فلم ينتبه إليكما أحدٌ قطعاً. إلّا أنا، فقد لاحظتُكما في هبوطكما».

وقال يُسطاس بصوتٍ خافت: «لقد أرسلنا أصلان إلى هنا».

فقالت البومة نافشةً ريشَها: «توُهُوو، توهوو! هذا كثيرٌ عليَّ في وقت العِشاء، قبل المساء. فأنا لا أكون على طبيعتي حقّاً حتّى تغيبَ الشمس فعلاً».

عندئذٍ قالت جِلّ، بعدما انتظرت بشوق أن تشترك في المحادثة: «ونحنُ قد أُرسِلنا للبحث عن الأمير المفقود».

فقال يُسطاس: «الآن أسمع بهذا أوّل مرّة! أيّ أمير؟»

وقالتِ البومة: «خيرٌ لك أن تتقدّم وتتكلّم إلى السيّد نائب الملك حالاً. فهو هُناك، على عربة الحمار. إنّه طرَمبكِن القزم!» ثمّ استدارت وأخذت تتقدّمُهما في الطريق، متمتمةً لنفسها: «هُوو! توُهُوو! يا لها مِن لَخبَطة، يا هُو! لا أقدر أن أُفكّر الآن بصفاء، فما زال المساء بعيداً».

وسأل يُسطاس: «ما اسم الملك؟»

فقالت البومة: «كاسپيان العاشر». وتساءلت جِلّ عن سبب تباطؤ يُسطاس فجأةً في المشي وامتقاع وجهه بصورة فائقة للعادة. وخُيّل إليها أنّها لم تَرَه قطُّ من قبل شاحباً هكذا بشأن أيّ شيء آخر. ولكنْ قبل أن يُتاح لها وقتٌ لطرح أيّة أسئلة كانوا قد وصلوا إلى القزم وهو على وشك أن يشدّ عِنان حماره للرجوع إلى القصر. وكان رجال الحاشية قد تفرّقوا وتوجّهوا الوجهةَ ذاتها، واحداً واحداً أو

اثنين اثنين أو مجموعاتٍ صغيرةً، كأشخاصٍ راجعين من مشاهدة مباراة أو سباق.

ثمّ انحنت البومة قليلاً، مُقرّبةً منقارها من أُذن القزم: «تُوهُوو! أحِم! سيّدي نائبَ الملك».

فقال القزم: «هاه؟ ماذا هناك؟»

أجابت البومة: «غريبان زائران، يا سيّدي».

فردّ القزم: «جائلان؟ ماذا تعنين؟ إنّي أرى جَروَي بَشَر رثَّي الهيئة بصورة غير معتادة. فماذا يريدان؟»

فتقدّمت جِلّ وقالت: «اسمي جِلّ». وقد كانت متلهّفة جداً لإيضاح العمل المهمّ الذي جاءت لإنجازه.

وقالت البومة بأعلى صوتها: «اسمُ الفتاة جِلّ».

فقال القزم: «ما هذا؟ سمٌّ بنات وقَتْل؟ لا أُصدّق كلمةً واحدة من هذا. أيُّ بنات؟ ومَن سمّمهنّ؟»

وقالت البومة: «هُنا بنتٌ واحدة فقط، يا سيّدي. واسمُها جِلّ».

فقال القَزَم: «علّي صوتَك، علّي صوتكِ. ولا تقفي هناك تُغمغِمين وتُدمدِمين في أُذني. مَن سُمّم وقُتِل؟»

أجابت البومة ناعبةً: «لا أحدَ قُتِل!»

«مَن؟»

«لا أحد!»

«طيّب، طيّب! لا داعي للصُّراخ. لستُ أطرش إلى هذا الحدّ. فماذا تقصدين بمجيئكِ إلى هنا لتُخبريني بأنْ لا أحد قُتل؟ ولماذا يُقتَل أحد؟»

وقال صغرون: «أفضَلُ أن تقولي له إنَّني يُسطاس؟»

فنعبت البومة بأعلى صوتها: «الصبيُّ هو يُسطاس، يا سيِّدي».

وقال القزم مُغتاظاً: «نسناس؟ أقول إنَّه هكذا فعلاً. ولكن هل من سببٍ للإتيان به إلى المُحاكمة؟ هاه؟»

فقالت البومة: «ليس نَسناس، بل يُسطاس!»

«تلك عادته، أليس هكذا؟ لست أدري عمَّا تتكلَّمين، وهذا أكيد. أقول لكِ الحقَّ، يا سيِّدة ريشنُور: لمَّا كنتُ قزماً شابّاً، كان في هذا البلد حيوانات وطيور ناطقة فعلاً تقدر أن تتكلَّم جيِّداً. ولم تكُن كلُّ هذه الغمغمة والدمدمة والتمتمة، فما كان يُسمَح بها لحظةً واحدة. ولا لحظة يا سيِّدتي! أُرنُص، هاتِ بوقي من فضلك..».

فإذا بفُونٍ صغير، كان واقفاً بهدوء إلى جانب مرفق القزم طيلةَ ذلك الوقت، يُناوله بُوق أُذنٍ فضِّيّاً. وقد كان مصنوعاً على شكل الآلة الموسيقيَّة الخشبيَّة المعروفة باسم «الأُفعوان»، بحيث تلتفُّ قناتُه حول رقبة القزم تماماً. وبينما البوق يُسوَّى، قالت ريشنُور البومة فجأةً للولَدَين همساً:

«إنَّ ذهني أصفى قليلاً الآن. لا تقولا أيَّ شيء عن الأمير المفقود. سأشرح لكما السبب في ما بعد. لا نفع في هذا، لا نفع! تُوهُوو! آه، يا لها من لَخبَطة كادت تُوقِعنا في ورطة!»

ثمَّ قال القزم: «والآن، إن كان عندكِ شيءٌ معقول، يا سيِّدة ريشنُور، فحاولي أن تقوليه. خُذي نفَساً عميقاً،

ولا تحاولي أن تتكلَّمي بسرعة زائدة».

وبمساعدةٍ من الولَدَين، وعلى الرغم من نوبة سُعال من جانب القزم، أوضحت ريشنُور أنَّ الزائرين الغريبين أرسلهما أصلان لزيارة بلاط نارنيا. فرفع القزم نظره إليهما بسرعة وفي عينيه تعبيرٌ جديد. وقال:

«أرسلهما الأسد نفسُه، هِيه؟ ومِن... امْ... من المكان الآخر، ممّا وراء آخِر العالم، هِيه؟»

فزعق يُسطاس في البوق: «نعم سيِّدي!»

وقال القزم: «ابن آدم وابنه حوّاء، هيه؟» ولكنَّ التلامذة في مدرسة دار التجريب لم يكونوا قد سمعوا بآدم وحوّاء، ولذلك لم يقدر يُسطاس أن يُجيب عن هذا الاستفسار. ولكنْ لم يبدُ أنَّ القزم لاحظ ذلك.

ثمَّ أمسك بيدَيهما واحداً بعد الآخر وحنى رأسه قليلاً، وقال: «حسناً، يا عزيزيَّ. أهلاً بكما من صميم القلب. لو لم يكُن الملكُ الصالح، سيِّدي المسكين، قد أبحر في هذه الساعة عينها نحو الجُزر السَّبع، لكان قد سُرَّ بمجيئكما، ولكان ذلك ردَّ إليه الشباب لحظةً واحدة... لحظةً واحدة. والآن، حان وقت العشاء تماماً. سوف تُطلِعانني على مهمّتكما في جلسةٍ علنيَّة صباحَ غد. ويا سيِّدة ريشنور، اهتمّي بأن يُعطَى الضيفان غرفتَي نوم وثياباً لائقة وكلَّ ما يلزم غير ذلك بأشرفِ تكريم. واسمحي لي، يا ريشنور، بكلمةٍ أُلقيها في أُذنك..».

وعندئذٍ قرَّب القزم فمه من رأس البومة، وقد نوى طبعاً أن يهمس همساً. إلّا أنَّه، كسائر الصُّمّ، لم يستطع تقدير

علوّ صوته جيداً، فسمعه كِلا الولَدَين يقول: «اهتمّي بأن يَستحِمّا جيّداً».

بعد ذلك حثّ القزم حماره، فانطلق نحو القصر في مشيةٍ بين الهَروَلة والهُوَينا (إذ كان حيواناً صغيراً وسميناً جدّاً)، فيما تبعه الفُون والبُومة والولدان بسرعة أبطأ قليلاً. وكانت الشمس قد غابت والهواءُ أخذ يبرد.

ومضَوا عبر المرجة، ثمّ اجتازوا بُستاناً، حتّى وصلوا إلى البوّابة الشماليّة في قصر كيرپراڤيل، وقد كانت مفتوحة على وسعها. وفي الداخل وجد الولَدان ساحةً فيها عُشب، وكانت الأضواء قد بدأت تظهر من نوافذ القاعة الكبرى ومن جُملة مَبانٍ أكثر تداخُلاً قُدّامهما مباشرةً، وإلى داخلها اقتادتهما البومة، حيث دُعِيت شابّةٌ مُبهجة جدّاً للاهتمام بجِلّ. ولم تكن هذه أطول من جِلّ كثيراً، كما كانت أنحف منها بكثير لكنْ كاملة النُّضج على نحوٍ واضح، رشيقةً كغُصن صَفصاف، وكان شعرها صَفصافيّاً أيضاً، وبدا أنّ فيه طُحلباً.

واصطحَبت تلك جِلّ إلى غرفة مُدوَّرة في أحد الأبراج الصغيرة، حيث كان في الأرضيّة حوضُ استحمام صغير، ونارُ حَطَبٍ طيّب الرائحة تتأجّج في الموقد المُسطّح، ومصباحٌ مُدَلّى بسلسلة فضّيّة من السقف المُقبّب. وقد انفتحت النافذة على أرض نارنيا الغربية، فشاهدت جِلّ فُلول الغروب وهي ما تزال تتألّق وراء الجبال البعيدة.

فجعلها ذلك تتوق إلى مزيدٍ من المغامرات وتتأكّد أنّ تلك لم تكُن إلّا البداية.

وبعدما استحمّت ومشّطت شعرها ولبسَتِ الثياب التي قُدّمت لها (وكانت ثياباً ناعمة الملمس وحسنة المنظر وطيّبة الرائحة، ويصدر منها أيضاً هفيفٌ لطيفٌ عند التحرُّك)، أحبّت أن تعود لتُسَرِّح نظرها عبر تلك النافذة المُشوِّقة، ولكنّ ضرباً شديداً على الباب منعها من ذلك.

وقالت جِلّ: «ادخُل!» فدخل صغرون، وهو أيضاً قد استحَمّ ولبس ثياباً نارنيانيّةً فاخرة. ولكنّ وجهه لم يُبدِ أنّه كان يستمتع بذلك.

ثمّ تهالك على كُرسيٍّ وقال بحدّة: «أُوه، ها أنتِ هُنا أخيراً. طالما فتّشتُ عنك فلم أجدْكِ!»

فقالت جِلّ: «حسناً، لقد وجدتَني أخيراً! ألا ترى، يا صغرون، أنّ هذا كلّه أروع وأبهج من أن يُعبّر عنه الكلام؟» وكانت قد نسيت حيناً كلّ ما يتعلّق بالعلامات الأربع وبالأمير المفقود.

فأجاب صغرون: «آه! أهذا هو ما تحسبينه؟» ثمّ أضاف بعد هُنيَهة: «أتمنّى لو لم نأتِ قَطّ، فذلك كان أفضل جدّاً».

«ولماذا يا تُرى؟»

فقال: «لا أُطيق هذا: أن أرى الملك... كاسپيان... عجوزاً مُرتعِشاً كذلك. إنّه... إنّه أمرٌ رهيب!»

«عجباً، أيّ ضررٍ سبّب ذلك لك؟»

«آه، إنّكِ لا تفهمين قصدي. وإذ أُفكّر في الأمر الآن، أرى أنّك لم تكوني تقدرين أن تفهميه. فأنا لم أقُل لكِ إنّ لهذا العالم توقيتاً مختلفاً عن توقيت عالمنا».

«ماذا تعني؟»

«الوقت الذي تقضينه هنا لا يستغرق أيَّ جزء من وقتنا. هل فهمتِ؟ أعني أنّه مهما طال بقاؤنا هنا، فمع ذلك سنرجع إلى دار التجريب في اللحظة التي فيها غادرناها..».

«لَن يكون في ذلك كثيرٌ من المَرَح..».

«آه! كُفّي عن الكلام، ولا تظلّي تُقاطعينني! ثُمّ عندما تعودين إلى إنكِلترة، إلى عالمنا، لا يمكنكِ أن تعرفي كيف يجري الوقت هنا. فقد يمرُّ هنا أيُّ عدد من السنين فيما نقضي نحن سنة واحدة في مَوطِننا. وقد شرح لي وَلَدا آل پيڤِنسي الأمر كلّه، ولكنّني نسيتُه كما لو كنتُ غبيّاً. فالظاهر الآنَ أنّه قد مضت سبعون سنة تقريباً، بالتوقيت النارنيانيّ، منذ مجيئي إلى هُنا في المرّة السابقة. هل فهمتِ الآن؟ وها قد رجعتُ ووجدتُ كاسپيان رجُلاً عجوزاً جدّاً جدّاً».

فقالت جِلّ: «إذاً كان الملك بالفعل صديقاً قديماً لك!» واجتاحتها فكرةٌ مُروِّعة.

وقال صغرون بأسى: «كان يجدر بي تماماً أن أحسبه هكذا. فهو تقريباً أصدقُ صديقٍ يمكن أن يكونه فتى. وفي المرّة السابقة كان أكبر منّي بسنين قليلة فقط. وأن أرى

ذلك الرجل العجوز ذا اللحية البيضاء ثمّ أتذكّر كاسپيان كما كان صباحَ إخضاعنا للجُزر المُنفرِدة، أو عند محاربة أفعى البحر، آه... إنّه أمرٌ رهيب! فهو أسوأُ من المجيء إلى هُنا وسماعِ خبر موته».

فقالت جِلّ وقد نفِد صبرها: «أوه، سكوتاً! إنّ الأمر أسوأُ بكثيرٍ مّما تظنّ. لقد فوّتنا العلامة الأُولى!» وبالطّبع لم يفهم صغرون هذا. ثمّ أخبرته جِلّ بمُحادثتها مع أصلان والعلامات الأربع ومهمّة العثور على الأمير المفقود كما أسندَها أصلان إليهما. ثمّ خلصت إلى القول:

«وهكذا ترى أنّك قد شاهدتَ بالفعل صديقاً قديماً، كما قال أصلان تماماً، وكان يجب أن تتقدّم وتتكلّم معه في الحال. وها أنت لم تفعل ذلك الآن، وكلُّ شيء يجري خطأً من أوّل الطريق».

فقال صَغرون: «ولكنْ كيف كان لي أن أعرف؟»

أجابت جِلّ: «لو أصغيت فقط إليَّ لمّا حاولتُ أن أخبِرك، لكُنّا على أحسن حال!»

«نعم، ولو لم تتصرّفي بغباوة على حافة الجُرف وكدتِ تقتُلينني تقريباً — حسناً، قلتُ 'تقتلينني،' وسأقولها أيضاً بقدْر ما أشاء، فحافظي على هدوئك — لكُنّا جئنا معاً وعرفنا كِلانا ماذا نفعل».

فقالت جِل: «أظنُّ أنّه كان أوّل شخصٍ رأيتَه تماماً. ولا بدّ أنّك كنتَ هُنا ساعاتٍ قبل مجيئي. أأنت متأكّد أنّك لم ترَ أيَّ شخصٍ آخر قبله؟»

وردَّ صغرون: «لقد وصلتُ إلى هُنا قبلَكِ بنحو دقيقة. فلا بدَّ أن يكون قد نفخكِ أسرع ممّا نفخني، للتعويض عن الوقت الضائع: الوقت الذي ضيَّعتِه أنتِ».

فقالت جِلّ: «لا تكن فظّاً لهذه الدرجة، يا صغرون. انتباهاً! ما هذا؟»

كان ذلك جَرَس القصر يُقرَع للعشاء. وهكذا فإنّ ما بدا أنّه سيتحوّل إلى مخاصمة من العيار الثقيل قاطعته مناسبةٌ سعيدة. وكانت شهيّةُ كِلَيهما قد قَوِيت في ذلك الحين.

وقد كان العشاء في القاعة الكبرى أفخرَ شيءٍ شاهده كلاهما على الإطلاق. فمع أنّ يُسطاس زار ذلك العالَم قبلاً، فقد قضى كامل زيارته تلك في البحر ولم يشهد شيئاً من الأُبَّهة والمُجاملة والكرَم اللتين تميَّز بهما النارنيانيُّون في بلدهم وديارهم بالذات.

تدلَّت الأعلام من السقف، وجيء بكلِّ لونٍ من ألوان الطعام على وقْع الأبواق والطُّبلات. وقد قُدِّمت أنواعٌ من الحَساء تجعل لُعابك يسيل عند مجرَّد التفكير فيها، والسمك اللذيذ الملوَّن بألوان قوس قُزَح، ولحمُ غزلان وطواويس وفطائر، ومُثلَّجات وهُلام وفاكهة وجوز ولوز وبُندق، وكلُّ أنواع النبيذ والشراب والعصير. حتّى إن يُسطاس طابت نفسه واعترف بأنّ ذلك «شيءٌ ممتاز». ولمّا انتهى الأكل والشرب الجِدّيّان تماماً، تقدَّم شاعرٌ أعمى وأخذ يُنشِد القصّة القديمة العظيمة التي تتغنّى بالأمير

كور وأرافيس والحصان بِري، تلك القصّة المسمّاة 'الحصان وصبيُّه' والتي تحكي عن المغامرات التي جرت في نارنيا وكالورمِن والأراضي الواقعة بينهما، في العصر الذهبي الذي فيه كان بطرس هو الملك الأعلى في كيرپراڤيل. (لا يتَّسع الوقت لأرويَها الآن، مع أنّها تستحقُّ فعلاً الاستماع إليها؛ ويمكنك الرجوع إليها في كتاب يحمل العنوان نفسه.)

وبينما هما يُجرجِران أرجُلَهما صاعدَينِ على الدرج حتّى يناما، ويتثاءبان غير قادرَين على تثبيت رأسيهما، قالت جِلّ: «أُوكِّد أنّنا سننام ملء جفوننا الليلة!» إذ كان ذلك اليوم حافلاً. ولكنّ هذا القول إنّما يُبيِّن كم قليلٌ ما يعرفه أيُّ إنسان عمّا سيحدث له تالياً.

برلمان بوم

من الأمور الغريبة حقاً أنك كلّما كنتَ أكثر نعاساً استغرق إواؤك إلى السرير وقتاً أطول، وخصوصاً إذا وفَّر لك حظُّك السعيد ناراً موقَدة في غرفتك. فقد شعرت جِلّ أنّها لا تستطيع حتّى البدءَ بتغيير ثيابها، إلّا إذا قعدت قبالة النار قليلاً قبل ذلك. وما إن قعدت، حتّى لم تعُد ترغب في القيام من جديد. وكانت قد قالت لنفسها نحو خمس مرّات: «ينبغي أن أصعد إلى السرير»، لمّا أجفلها نَقرٌ على النافذة.

فنهضت وأزاحت الستارة، ولم ترَ شيئاً سوى الظلام في البداية. ثمّ قفزت ونفرت إلى الوراء، إذ إنّ شيئاً ضخماً اصطدم بالنافذة، مُحدِثاً نقراً شديداً على الزجاج. وخطرت في بالها فكرة مزعجة جدّاً: «يا لَلهول! ربّما كان في هذا البلد نوعٌ من الفَراش العملاق!» ولكنّ بعد قليل رجع ذلك الشيء من جديد، وتأكّد لها هذه المرّة تقريباً أنّها رأت منقاراً، وأنّ المنقار هو الذي أحدث صوت النَّقر. ففكّرت: «إنّه طائرٌ ضخم من نوعٍ ما. أيُمكِن أن يكون

نَسراً؟» فهي لم ترغب كثيراً في أن يزورها حتّى نسر، لكنّها فتحت النافذة وتطلّعت خارجاً. وفي الحال حطّ المخلوق على حافة النافذة، وسط حفيفٍ من جناحيه، وجثم هناك سادّاً النافذة كلّها، بحيث اضطُرّت جِلّ إلى التراجُع قليلاً لتُفسِح له في المجال. فلم يكُن ذلك سوى البومة.

وقالت البومة: «اشْش، اشْش! تُوهُوو، توهوو! لا تُصدِري أيّ صوتٍ. والآن، أأنتما الاثنَين جادّانِ حقّاً بشأنِ ما عليكما أن تفعلاه؟»

فقالت جِلّ: «تقصدين بشأنِ الأمير المفقود؟ نعم، علينا أن نكون كذلك حتماً». إذ تذكّرتْ الآن وجه الأسد وصوته بعدما كانت قد نسِيَتهما تقريباً في أثناء تناول الطعام وسماع الحكاية في القاعة.

وقالت البومة: «جيّد! إذاً لا وقت لدينا لنضيعَه. عليكما أن ترحلا من هنا في الحال. سأذهب وأوقِظ البَشريَّ الآخر، ثم أرجع لأجلك. من الأفضل أن تُغيِّري هذا اللباسَ الرسميَّ وتلبسي شيئاً يمكنك السفَر فيه. سأرجع على وجه السرعة، تُوهُوو!» ثمّ انطلقت بغير أن تنتظر جواباً.

لو كانت جِلّ مُعتادةً المغامرات بشكلٍ أفضل، لربمّا كانت قد شكّت في كلام البومة. ولكنّ ذلك لم يخطر على بالها قطّ. وفي غمرة الفكرة المشوّقة بالهروب في نصف الليل، نسِيَت نُعاسَها. فلبسَت من جديدٍ كنزتها وبنطلونها القصير — وكان على حزام البنطلون سكّينٌ

كشفيّة قد تنفع – وأضافت قليلاً من الأشياء التي تركَتها لها في الغرفة تلكَ الشابّةُ ذات الشعر الصَّفصافيّ. فاختارت عباءة قصيرة بلغت رُكبتَيها، وكانت ذات بُرنسٍ للرأس (ففكّرت: «هذا أنسبُ شيء إذا هطل المطر»،) وبضعة مناديل ومشطاً. ثم قعدت تنتظر.

وكان النوم قد بدأ يُغطغِط عليها من جديد حين رجعت البومة. وقالت: «الآن نحنُ على استعداد!»

فقالت جلّ: «أفضَلُ أن تتقدّمي أنتِ الطريقَ. فأنا لا أعرف الممرّات كلّها بعد».

وقالتِ البومة: «تُوهُوو! لن نذهب مروراً بالقصر. فذلك لن ينفع. عليكِ أن تركبي على ظهري. سنطير».

فوقفتِ جِلّ فاغرةً فمها، إذ لم تُعجِبها الفكرة كثيراً، وقالت: «أوه! ألَن أكون أثقل كثيراً جدّاً من أن تقدري على حَملي؟»

«تُوهُوو، توهُوو! لا تتحامقي. لقد حملتُ الوَلَد الآخر فعلاً. فهيّا الآن. إنّما ينبغي أن نُطفئ المصباح أوّلاً».

وما إنِ انطفأ المصباح، حتّى ظهر جزءُ الظلام الذي كان يُمكِنك أن تراه من خلال النافذة أقلَّ ظلمةً، إذ لم يعُد أسود بل صار رمادياً. وجثمت البومة على حافَة النافذة وظهرُها صَوب الغُرفة، ثمّ نشرت جناحَيها. فكان على جِلّ أن تمتطيَ جِسمها القصير البدين وتدسّ رجليها تحت جناحيها وتتمسّك جيّداً. وقد أحسّت جِلّ، على نحوٍ مُريح، دفءَ الريش ونعومته، ولكنْ لم يكن من شيء

تتمسّك به. وفكّرت: «تُرى، هل أُعجِب صغرون برحلته هو؟» وبينما هي تُفكّر في ذلك، أقلعتا عن النافذة باندفاعةٍ سريعة هائلة، وأخذ الجناحان يخفقان مُصدِرَين حفيفاً قوياً حول أُذنيها، وهواء الليل البارد والرطب إلى حدٍّ بعيد يهبُّ على وجهها.



كان الظلام أخفّ بكثيرٍ ممّا توقّعَت جِلّ، ومع أنّ الجوّ كان ملبّداً بالغيوم، ظهرت لها رُقعة فضية غير شديدة اللمعان حيث كان القمر مختبئاً فوق الغيوم. وبَدتِ الحقول تحتها رماديّة، والأشجار سوداء. وكان هنالك مقدارٌ من الريح، من نوع الرياح الساكنة المتحفّزة، الأمر الذي يعني أنّ المطر مُقبِلٌ قريباً.

وانعطفت البومة دائرياً حتّى بات القصر قُدّامهما، وقد ظهرت الأضواء من نوافذ قليلة جدّاً. ثمّ طارتا فوقه

تماماً، نحو الشمال، عابرتينِ فوق النهر، فصار الهواء أبرَد، وخُيِّل إلى جِلّ أنّها استطاعت أن ترى انعكاس صورة البومة الأبيض على صفحة المياه تحتها. ولكنّهما ما لبثتا أن وصلتا فوق ضفّة النهر الشماليّة، طائرتَينِ فوق ريف كثيرِ الشجر.

ثمّ أطبقتِ البومة فكّيها فجأةً على شيء لم تستطع جِلّ أن تراه.

فقالت جلّ: «أوه، رجاءً، لا تفعلي هذا! لا ترتجّي هكذا. لقد كدتِ توقِعينَني!»

أجابت البومة: «سامِحيني! لقد كنتُ ألتقط خُفّاشاً. فليس ما يُغذّي بعضَ الشيء مثلُ خُفّاش صغير سمين لذيذ. هل ألتقط لكِ واحداً؟»

فقالت جِلّ بارتعاد: «لا، شُكراً!»

كانتِ البومة الآن قد باتت تطير على علوّ مُنخفضٍ قليلاً، وإذا بشيء أسود المظهر يلوح مُرتفعاً قُبالتهما. وأُتيح لجِلّ ما يكفي من الوقت لتعرف أنّه كان بُرجاً – وقد خمّنت أنّه برجٌ خَرِبٌ جزئيّاً عليه كثيرٌ من اللّبلاب المُعترِش – حين وجدت نفسها تُخفِض رأسها لتتجنّب الاصطدام بعتبةِ شُبّاكٍ عُليا، فيما عبرت البومة بها حشراً الفُتحة المغطّاة باللّبلاب* وبيوت العنكبوت، من وسط

* اللبلاب: نبات معترش دائم الخضرة، له ثمار سوداء تشبه الكرز، يُستخدم لزينة الجدران والأسوار.

الليل الباهتِ المُنعِش إلى قلب مكانٍ مُظلِم داخل أعلى البُرج.

كانت رائحة العفونة تفوح قليلاً من الداخل. وحالما نزلت جِلّ عن ظهر البومة، عرفت أنّ المكان مزدحم تماماً (كما يعرف المرء عادةً بطريقةٍ ما). وعندما أخذت الأصوات تقول من كلّ جهةٍ وسط الظلام «توهوو! توهووو!» عرفت أنّ ذلك المكان مزدحم بطيور البوم. ثمّ انفرجت أساريرها لمّا قال صوتٌ مختلفٌ جدّاً: «أهذهِ أنت يا پول؟»

فقالت جِلّ: «أهذا أنتَ يا صَغرون؟»

ثمّ قالت رِيشنُور: «والآن، أظنّ أنّنا كُلّنا هنا. فلنعقد برلمانَ بُوم!»

فقالت بضعة أصوات: «تؤهُو، توهوو! أحسنتِ يا هُو. فهذا هوَ الشيء الصحيح الذي ينبغي أن نعملَه، هذا هو!»

وسُمع صوتُ صغرون قائلاً: «لحظةً واحدة! هنالك شيءٌ أريد أن أقوله أوّلاً».

فقالت طيور البُوم: «قُلهُ، قُلهُ!» وقالت جِلّ: «هيّا، قُله بسرعة!»

فقال صغرون: «أظنُّ أنكم أيُها القَوم — بل أيُّها البُوم — تعرفون أنَّ الملك كاسپيان العاشر، في أيّام شبابه، قد أبحر إلى آخِر العالم الشرقيّ. حسناً، لقد كنتُ معه في تلك الرحلة، معه ومع ريبيتشيب الفأر واللورد درِينيان وجميع الرجال. أعرف أنَّ هذا يبدو صعب التصديق، إلّا أنَّ الناس في عالَمِنا لا يشيخون بمثل السرعة التي تهرمون بها أنتم في عالَمِكم. فما أريد أن أقوله هو هذا: أنا في صفّ المَلِك؛ وإذا كان برلمانُ البوم هذا — بأيِّ شكلٍ من الأشكال — مؤامرةً على المَلِك، فليس لِي أدنى علاقة به!»

وقالتِ البُوم: «تؤهُو، توهوو! ونحنُ كلُّنا في صفّ المَلِك، يا هُو!»

فسأل صغرون: «إذاً، ما سبب هذا كُلِّه؟»

فقالت رِيشنُور: «ليس سوى هذا السبب: إذا سمع اللوردُ نائبُ الملك، أي القزمُ طرَمبكِن، أنكما تنويان التفتيش عن الأمير المفقود، فإنّه لن يَدَعكما تُباشِران ذلك. وسيحبسكما بأسرع وقت».

وقال صغرون: «يا للهول! أنتِ لا تعنين أنَّ طرمبكن خائن؟ لقد سمعتُ عنه كثيراً في الأيّام القديمة، لما كنتُ في البحر. فإنَّ كاسپيان — أعني المَلِك — كان يثق به كلَّ الثقة».

فردَّ صوتٌ من الأصوات: «كلاً، كلاً! إنَّ طرمبكِن ليس خائناً. ولكنَّ أكثر من ثلاثين بَطَلاً (من فُرسانٍ وقنطورات ومَرَدة صالحين وكلّ نوعٍ آخر) قدِ انطلقوا مرّةً أو أُخرى للبحث عن الأمير المفقود، ولم يرجع أيُّ واحدٍ منهم. وأخيراً قال المَلِك إنّه لن يسمح بهلاك أشجع أبطال نارنيا كلِّهم بحثاً عنِ ابنه. فالآن، لا يؤذَن لأيٍّ كان أن ينطلق».

فقال صغرون: «ولكنّه بالتأكيد سيأذَن لنا نحن بالانطلاق، عندما يعرف مَن أنا ومَن أرسلَني».

(اعترضت جِلّ قائلةً: «ومَن أرسلنا كِلَينا».)

فقالت رِيشنُور: «نعم، أعتقد أنّه يُرجَّح جدّاً أن يأذن لكما. ولكنَّ الملك مُسافرٌ الآن. وطرَمبكِن سيلتزم القوانين. إنّه صُلبٌ في ولائه كالفولاذ، ولكنّه أصمُّ كالصخر، وحادُّ الطَّبع جدّاً. فلن يُمكِنكما أبداً أن تجعلاه يُدرِك أنّه قد يكون الآنَ هو أوانَ السماح بحصول استثناء للقاعدة».

وقال طيرُ بُومٍ آخر: «قد تحسبان أنّه رُبّما يُراعينا نحن قليلاً، لأنّنا طيور بُوم، والجميع يعرفون مدى حكمة البُوم. ولكنّه كبير السنّ جدّاً الآن، ولن يقول للواحد

منّا سوى: «أنتَ مجُرَّد فرخ صغير. وأنا أتذكَّرك لمَّا كنتَ بيضةً قبل الانفقاس. لا تحاوِل أن تتقدَّم لتُعلِّمني أنا، يا سيِّد. جَلابِيط * قَبابيط ** !»

وقد أحسن ذلك البُوم تقليدَ صوت طرمبكِن، فتعالت أصوات الضَّحِك البُوميّ من كلّ ناحية. وبدأ الولدان يُدركان أنّ أهل نارنيا جميعاً يشعرون تجُاه طرمبكِن كما يشعر تلامذة المدارس تجُاه مُعلِّم قاسٍ يخاف منه الجميع بعض الشيء ويهزأون به، ولكنْ لا أحد يكرهه.

وسأل صغرون: «كم سيغيب الملك؟»

فقالت ريشنُور: «يا ليتنا نعرف! لعلَّكما تعرفان أنَّه قد سرت مؤخَّراً شائعة بأنَّ أصلان نفسه شوهِد في بعض الجُزر — في تِيريبنثيا كما أظنّ. وقال الملك إنَّه سيقوم بمحاولة أخيرة قبل وفاته لرؤية أصلان وجهاً لوجه من جديد، وطلبِ نصيحته بشأن مَن يتولّى المُلكَ بعده. ولكنَّنا جميعاً نخشى أنَّه إن لم يُقابِل أصلان في تِيربنثيا يواصِلُ رحلته نحو الشرق، إلى الجُزر السبع والجُزر المنفردة، وإلى ما وراءها أيضاً. إنَّه لا يتحدَّث أبداً عن تلك الرحلة إلى آخِر العالَم، ولكنَّنا كلّنا نعلم أنَّه لَمْ يَنسَها قطّ. فأنا على يقين بأنَّه في

*الجلابيط: جمع جلبوط، يُقصَد به الكائن الطفيلي الصغير الحقير.

**القبابيط: جمع قبُّوط، أي جندب. والمقصود هنا التحقير والتقليل من قدرهم.

أعماق قلبه يرغب في الذهاب إلى هناك ثانيةً».

وقالت جِلّ: «إذاً، لا فائدة من انتظاره حتّى يرجع؟»

فقالت البومة: «طبعاً، لا فائدة! ولكنْ، ما العمل؟ يا ليتكما — أنتما الاثنين — عرفتماه وكلَّمتماه حالاً! إذاً لكان رتَّب كلّ شيء، ولربمّا أعطاكما جيشاً يذهب معكما بحثاً عن الأمير».

عندئذٍ ظلَّت جِلّ صامتة وهي تأمل أن يكون صغرون مُهذَّباً كفايةً بحيث لا يُخبِر طيورَ البوم كلَّها سببَ عدم حدوث ذلك. وقد كان كذلك، أو كاد يكون. ذلك أنَّه تمتم هامساً: «حسناً، لم تكُنِ الغلطة غلطتي»، قبل أن يقول بصوتٍ عالٍ:

«حسنٌ جدّاً. سيكون علينا أن نُدبِّر الأُمور بغير ذلك. ولكنّ هنالك أمراً واحداً بعدُ أُريد لكم أن تعرفوه. فإذا كان برلمان البُوم هذا، كما تدعونه، عادلاً وصريحاً وغيرَ قاصدٍ أيّ سُوء، فلماذا ينبغي أن يكون سرّيّاً للغاية، إذ ينعقد في خربةٍ تحت جُنح الظلام، وما شابه؟»

فنعبت بضعةُ طيورِ بُوم: «تُوهُوو! تُوهوو! أين يجب أن نجتمع؟ ومتى يجتمع أحدٌ إلّا في الليل؟»

وشرحت رِيشنُور: «أنتما ترَيان أنّ لمُعظَم المخلوقات في نارنيا عاداتٍ غير طبيعيَّة جدّاً. فإنَّهم يقومون بأمورهم في النهار، تحت ضوء الشمس الساطع (يُوه!) حين ينبغي أن يكون كلّ واحد نائماً. ونتيجةً لذلك، يكونون في الليل عُمياناً وأغبياء جدّاً بحيث لا يمكنُ أن تُفهَم منهم كلمة

واحدة. وهكذا تعوَّدنا، نحن طيورَ البُوم، أن نجتمع في أوقاتٍ معقولة وحدَنا عندما نريد أن نتباحث في الأُمور».

فقال صغرون: «فهمتُ! حسناً، والآنَ لِنُتابع. أخبرونا كلَّ شيء عن الأمير المفقود». وعندئذٍ حَكَتِ القصَّةَ بومةٌ كبيرةُ السنّ، لا رِيشنُور.

وتبيَّن أنَّه منذ عشر سنين تقريباً، لمَّا كان ريليان، ابنُ كاسپيان، فارساً صغير السنّ كثيراً، جال راكباً بصحبة الملكة أُمِّه ذاتَ صباحٍ من شهر أيَّار (مايو) في أجزاء نارنيا الشماليَّة. وكانَ معهما عدَّةُ مُرافِقين وسيِّدات، وعلى رؤوسهم جميعاً أكاليلُ زَهرٍ خضراءُ الوَرَق، وإلى خصُورهم أبواق. إنمَّا لم تكُن معهم كلابُ صيد، لأنَّهم كانوا يتنـزَّهون ولم يكونوا يتصيَّدون.

وعند اشتداد حرِّ النهار وصلوا إلى فُسحةٍ بهيجة فيها نبع ماء يتدفَّق من الأرض. وهُناك ترجَّلوا وأكلوا وشربوا وفرِحوا ومرحوا. وبعد قليلٍ نعست الملكة، ففرشوا لها عباءاتٍ على الضفَّة ذات العُشب، وابتعد الأمير ريليان مع باقي المجموعة عنها قليلاً، حتَّى لا توقظَها أحاديثُهم وضحكاتُهم.

وهكذا، ما لبثت حيَّةٌ كبيرة أن خرجت من الدَّغَل ولدغَت الملكة في يدها. وسمع الجميع صُراخ الملكة، فاندفعوا إليها، ووصل ريليان إلى جانبها أوَّلاً. فشاهد الأفعى تنساب مبتعدةً عنها، ولحق بها وسيفُه مجرَّد. وقد كانت ضخمةً وبرّاقة وخضراءَ كالسُّم، فاستطاع أن يراها

جيِّداً؛ غير أنَّها انسلَّت إلى داخلِ الشُّجيرات الكثيفة فلم يقدر أن يُدرِكها. فما كان منه إلَّا أنْ رجع إلى أُمِّه، حيث وجد الجميع منشغلين بها. ولكنَّ انشغالهم كان عبثاً، لأنَّ ريليان عرف من أوَّل نظرة إلى وجهها أنَّه لن ينفعها أيُّ علاجٍ في العالم. وما دامت نسمة الحياة فيها، بدا أنَّها كانتْ تحاول جاهدةً أن تقول لريليان شيئاً ما. ولكنَّها لم تستطع أن تتكلَّم بوضوح. ومهما كانتِ الرسالة التي أرادت تبليغه إيَّاها، فقد ماتت قبل أن تتفوَّه بها. وكانت قد مرَّت عشر دقائق تقريباً على سماعهم صراخها.

وحملوا الملكة الميْتة راجعين إلى كيرپراڤيل. وناح عليها ريليان والملك نوحاً شديداً، وكذلك بكاها أهل نارنيا كلُّهم. فإنَّها كانت سيِّدة عظيمة، حكيمة وكريمة وسعيدة، وقد أتى بها الملك كاسپيان عروساً له من آخِر العالم الشرقيّ. وقد قال بعضُهم إنَّ دم النجوم كان يسري في عروقها.



وشقَّ على الأمير كثيراً موتُ أُمِّه، كما كان يجدر به أن يفعل. ثُمَّ بعد ذلك قضى معظم أوقاته راكباً على حصانه في مستنقعات نارنيا الشرقيَّة، باحثاً عن تلك الحيَّة السامَّة ليقتلها وينتقم لأُمِّه. ولم يُعلِّق أحدٌ على ذلك كثيراً، مع

أنَّ الأمير كان يرجع إلى بيته من جولاته تلك منهوكاً ذاهلاً. ولكنْ بعد نحو شهر من وفاة الملكة، قال بعضهم إنَّهم لاحظوا فيه شيئاً من التغيير. فقد ظهرت في عينيه نظرات رجُلٍ قد رأى رؤىً. ومع أنَّه كان يقضي نهاره كلَّه في العراء، لم تظهر على حصانه علامات الركوب القاسي. وكان صديقه الرئيسيّ بين رجال الحاشية الأكبر سنّاً هو اللّورد درينيان، ذاك الذي كان رُبّانَ والده في تلك الرحلة العظيمة إلى الأنحاء الشرقيّة من العالم.

وذاتَ مساءٍ قال درينيان للأمير: «ينبغي لسموّك أن تتخلّى قريباً عن التفتيش عن تلك الأفعى. فليس من انتقامٍ حقيقيٍّ بالنسبة إلى وحش كما قد يكون بالنسبة إلى إنسان. وأنت تُرهِق نفسك عبثاً». فأجابه الأمير: «سيّدي، كدتُ أنسى الأفعى هذه الأيّام السبعة». وسأله درينيان عن السبب، والحالةُ هذه، وراء ركوبه المتواصل في الغابات الشماليّة. فقال الأمير: «سيّدي، لقد رأيتُ هناك أجمل شيءٍ يمكن وجوده على الإطلاق». وقال درينيان: «أيّها الأمير الطيّب، من فضلك اسمح لي بأن أركب معك غداً، حتّى أرى أنا أيضاً ذلك الشيء الحَسَن». فقال ريليان: «على الرحب والسّعة!»

ثمَّ في الوقت المؤاتي من يوم غد، أسرجا حصانَيهما ومضيا عَدْواً إلى قلب الغابات الشماليّة، وترجّلا عند النبع عينه الذي ماتت الملكة قُربَه. وقد استغرب درينيان أن يختار الأميرُ ذلك المكان من بين سائر الأمكنة كي

يستجمَّ فيه. وهناك استراحا حتّى انتصف النهار، وعند الظُّهر رفع درينيان نظره فشاهد أجمل سيّدة رآها على الإطلاق، وقد وقفت عند الجانب الشماليّ من النبع، ولم تقُل أيّة كلمة، بل أومأت إلى الأمير بيدها كما لو كانت ترجو منه أن يذهب إليها. وكانت طويلة وكبيرة ومُشرِقة، ومُلتفّةً برداءٍ أخضر كالسُّمّ. وأخذ الأمير يُحدّق إليها كرجُلٍ فاقدٍ صوابَه. ولكنَّ السيّدة اختفت فجأةً، ولم يعلم درينيان إلى أين مضت. ثمَّ عاد الاثنان إلى كيربرافيل. وقد قام في ذهن درينيان أنَّ تلك المرأة الخضراء المُشرِقة كانت شرّيرة.

وشكَّ درينيان كثيراً في عدم وجوب إخبار الملك بتلك المغامرة، إلّا أنّه لم يرغب أدنى رغبة في أن يكون ثرثاراً ومُفشِيَ أسرار، فلزم الصمت. ولكنَّه بعد مُدّة تمنّى لو أنّه تكلّم. إذ إنَّ الأمير ريليان في اليوم التالي خرج راكباً وحده. وفي تلك الليلة لم يرجع. ومن تلك الساعة لم يُعثرَ له على أيّ أثر قطّ، لا في نارنيا ولا في أيّ بَلَدٍ مُجاوِر، ولم يُعثر أيضاً على حصانه ولا على قُبّعته ولا على عباءته ولا على أيّ شيءٍ آخر له.

عندئذٍ ذهب درينيان، في مرارة قلبه، إلى الملك كاسبيان وقال: «سيّدي الملك، اقتلْني بسرعةٍ قتلَ خائنٍ كبير، لأنّني بسكوتي أهلكتُ ابنك!» ثمَّ أخبرَه القصّة.

إذ ذاك تناول كاسبيان فأسَ حرب وهجم على اللورد درينيان كي يقتله، فيما وقف درينيان بلا حراك، كأنّه

جذع شجرة، بانتظار الضربة القاضية. ولكنْ ما إن رفع الملك كاسپيان الفأس، حتّى ألقاها بعيداً فجأةً وصاح: «لقد فقدتُ مَلِكتي وابني؛ فهل أفقد صديقي أيضاً؟» ثمّ وقع على عنق اللورد درينيان وقبّله، وبكيا كِلاهما، ولم تنفصم عرى صداقتهما قطّ.

تلك كانت قصّة ريليان. ولمّا انتهت، قالت جِلّ: «أُراهِن أنّ تلك الأفعى وتلك المرأة كانتا الشخصَ نفسه».

فنعبَت طيور البُوم: «صحيح، صحيح! نحن نتّفق معكِ بالرأي تماماً».

وقالت رِيشنُور: «ولكنّنا لا نعتقد أنّها قتلت الأمير، لأنّه ليس من عِظام..».

فقال صغرون: «نحن نعرف أنّها لم تقتلْه. لقد أخبر أصلان پول بأنّه ما زال حيّاً في مكانٍ ما».

وقالت كُبرى طيور البوم سنّاً: «وهذا يكاد يجعل الأمر أسوأ؛ فمعناه أنّها تحتاج إليه لغَرَضٍ ما، وأنّ لديها مكيدةً رديئة على نارنيا. فقديماً، قديماً جدّاً، في البداية تماماً، خرجت من الشمال ساحرة بيضاء وقيّدت بلادنا تحت الثلج والجليد طوال مئة سنة. ونحن نعتقد أنّ هذه قد تكون واحدة من عصابة السوء نفسها».

فقال صغرون: «حسنٌ جدّاً إذاً. علينا أنا وپول أن نعثر على هذا الأمير. فهل يمكن أن تُساعِدونا؟»

وسألت رِيشنُور: «ألديكما مفتاحُ ما، أنتما كِلَيكُما؟»

فأجاب صغرون: «نعم! نعلم أنّ علينا أن نتوجّه إلى الشمال. ونعلم أنّ علينا أن نصل إلى خرائب مدينةِ مَرْدة».

إذ ذاك أُطلقت صيحاتُ «تُوهُوو» أكبر من ذي قبل، وسُمِعت أصواتُ تنَقُّل أقدام الطيور ونَفْشِ ريشها، ثمّ بدأت جماعةُ البُوم تتكلّم كلُّها في وقتٍ واحد. وقد أعربوا جميعاً عن أسفهم البالغ لعدم تمكّنهم شخصيّاً من مرافقة الوَلَدين في تفتيشهما عن الأمير المفقود.

وقالوا: «أنتما تريدان أن تُسافِرا نهاراً، ونحن نرغب في أن نسافر ليلاً. هذا لا ينفع... لا ينفع».

وأضافت بومة أو بومتان أنّه حتّى هناك، في البُرج الخَرِب، لم يعُد الظلام تقريباً بمِثل الشدّة التي كان عليها لمّا ابتدأوا، وأنّ البرلمان استمرّ وقتاً طويلاً كافياً. ففي الواقع أنّ مجرّد ذِكر القيام برحلة إلى مدينة المَرْدة الخَرِبة بدا أنّه ثبّط هِمَم تلك الطيور.

غير أنّ رِيشنُور قالت: «إن كانا يُريدان الذهاب على تلك الطريق — عبرَ سَبْخة* أتّنز — فعلينا أن نأخذَهما إلى واحدٍ من سُكّان المستنقعات. فهؤلاء هم القوم الوحيدون الذين يقدرون أن يُساعدوهما كثيراً».

فقالت جماعةُ البُوم: «صحيح، صحيح! لنفعَل هذا الأمر المَليح!»

* سبخة: مناطق مستنقعات ومياه مالحة لا تصلُح للزراعة.

وقالت ريشنُور: «هيًا بنا إذاً. أنا سآخُذ أحدَهما. فمن يأخذ الآخر؟ ينبغي أن نفعل ذلك هذه الليلة».

فقالت بومة أُخرى: «أنا آخذ الآخر، حتّى أهل المُستنقعات فقط».

وقالت ريشنُور لِجلَ: «أأنتِ مستعدّة؟»

فقال صغرون: «أظنُّ أنَّ پول نائمة».

الفصل الخامس

بِركهموم

كانت جِلَ نائمة. فمنذ ابتدأ برلمان البوم أخذت تتثاءب تثاؤباً شديداً، حتّى سطا عليها النوم الآن. ولم تُسَرَّ قطُّ بأن توقَظ من جديد لتجد نفسَها مُستلقيةً على ألواحٍ مجرَّدة في مكانٍ مُغبّر يُشبِه بُرج كنيسة ينتشر فيه ظلامٌ حالك ويكاد يكون مليئاً بطيور البوم. بل إنَّها كانت أقلَّ سروراً إذ سمعت بأنَّ عليهما أن ينطلقا إلى مكانٍ آخر — وليس إلى السرير كما يبدو — على ظهر البُوم.

وقال صوت صَغْرون: «أوه، هيا يا پول، تشدَّدي. فرُغم كلّ شيء، هذه مغامرة!»

فقالت جِلَ بحِدَّة: «لقد سئمتُ المغامرات».

غير أنَّها قبلت أن تمتطيَ ظهر ريشنور، وقد أيقظتها تماماً (إلى حين) برودة الجوّ غيرُ المتوقَّعة فيما البومة تطير بها في ظلام الليل. وكان القمر قد غاب، ولم تظهر نجوم. وقدِ استطاعت أن ترى وراءها في البعيد نافذةً واحدة مُضاءة مرتفعة عن الأرض ارتفاعاً لا بأس به، كانت بلا شكٍّ في أحد أبراج كيرپراڤيل. فجعلها ذلك تتمنّى لو تعود

إلى تلك الغرفة البهيجة، فتنعمَ بدفء السرير وهي تراقب ضوء النار على الحيطان.

ثمَّ وضعت يديها تحت عباءتها، وتلفَّعت بها جيِّداً. وكان غريباً أن تسمع صوتَين في الفضاء المُظلِم على مسافة قريبة منها، إذ كان صغرون وبومته يتحادثان. ففكَّرت: «إنَّه لا يبدو مُتعَباً». ولم تُدرِك أنَّه خاض مُغامراتٍ عظيمة سابقاً في ذلك العالم، وأنَّ هواء نارنيا كان يردُّ له قوَّةً قد اكتسبها لمّا أبحر مع الملك كاسپيان إلى البحار الشرقيَّة.

واضطُرَّت جِلّ لأنْ تقرص نفسها حتَّى تظلَّ مستيقظة، لأنَّها عرفت أنَّها قد تسقط عن ظهر ريشنُور إذا غلبها النعاس. ولمَّا أكملتِ البُومتان أخيراً رحلتهما وحطَّتا، ترجَّلت عن ظهر ريشنُور مُتيبِّسةً لتجد نفسها على أرضٍ مُنبسِطة. كانت ريحٌ باردة جدّاً تهبّ، وبدا أنَّهم في مكانٍ خالٍ من الشجر، فيما أخذت ريشنُور تُنادي: «تُوهو، توهُوو! استيقظ يا بِركَهمُوم، استيقظ! هذا شأنٌ من شؤون الأسد».

لم يأتِ أيُّ ردّ، وقتاً طويلاً. ثمَّ ظهر في البعيد تماماً ضوءٌ باهت، وأخذ يقترب شيئاً فشيئاً. وسُمع معه صوتٌ يقول:

«أهلاً بالبُوم! ما الخبر؟ هل مات الملك؟ أم هل حلَّ عدوٌّ في نارنيا؟ أهو طُوفان أم تَنانين؟»

ولمَّا وصل الضوء إليهم، تبيَّنَ أنَّه ضوء مصباح كبير. واستطاعت جلّ أن ترى جزءاً قليلاً فقط من الشَّخص



الذي كان يحمله. فقد بدا أنَّه بمُجمَله رِجلان وذراعان. ومضَت البومتان تتحدَّثان إليه وتشرحان له كلَّ شيء، غير أنَّ تعبها الشديد منعها أن تُصغي. وإذ حاولت أن توقظ نفسها قليلاً، أدركت أنَّهما كانتا تودِّعانها. ولكنَّها في ما بعد لم تقدر قطُّ أن تتذكَّر كثيراً، ما عدا أنَّها — عاجلاً أو آجلاً — كانت هي وصغرون ينحنيان لدخول بابٍ مُنخفِض، ثُمَّ (أُوه، يا للسماء!) كانا مُمَدَّدين على شيءٍ ناعم ودافئ، وقد سُمع صوت يقول:

«ها أنتما هنا. هذا أفضل ما نقدر عليه. ستنامان بصعوبة وسط البرودة، والرطوبة أيضاً. ولا ينبغي أن أتعجَّب. لَن تناما ولو نومةً قصيرة، على الأرجح؛ حتَّى

لو لم تحدث عاصفة رعديّة أو طوفان، ولو لم يقع كوخُ الوَغَم* هذا على رؤوسنا كلّنا، كما شاهدتُ مثله يقع. يجب أن تستغلاّ الوضع أحسنَ استغلال..». ولكنّ جِلَ كانت قد نامت قبل انتهاء الصوت من الكلام.

ولمّا استيقظ الوَلَدان في وقتٍ متأخّر من صباح الغد، وجدا أنّهما كانا نائمين، جافّين ودافئين جدّاً، على فِراشَينِ من قَش، في مكانٍ مُعتِمٍ يدخله ضوء النهار من فتحة مُثلّثة.

فسألت جِلَ: «أين نحن، يا تُرى؟»

أجاب يُسطاس: «في وَغَمٍ واحدٍ من أهل المستنقعات».

«ماذا؟»

«في كوخِ ساكنِ مُستنقعات. ولا تسأليني ما هذا الأخير. فلمْ أتمكّن من رؤيته البارحة. وها أنا أنهض. فلنذهب ونُفتّش عنه».

ثمّ قالت جِلَ وهي تجلس: «كم يكون شعور الواحد كريهاً بعد أن ينام وهو لابسٌ ثيابه العاديّة!»

فقال يُسطاس: «كنتُ أفكّر توّاً كم هو جميلٌ ألاّ نُضطرَّ إلى ارتداء ثيابنا».

وقالت جلَ باستهزاء: «ولا إلى الاغتسال أيضاً، كما أحسب». ولكنّ صغرون كان قد نهض وتثاءب ونفَضَ نفسه، وزحف إلى خارج الوَغَم. ثمّ حذَت جِلَ حذوَه.

* الوغم: كوخ مخروطي الشكل، مكسوٌّ بلحاء الشجر أو جلود الحيوانات.

وكان ما وجداه في الخارج مختلفا تماماً عن أجزاء نارنيا القليلة التي شاهداها يومَ أمس. فقد كانا على سهلٍ منبسطٍ كبير، تُقطّعُه إلى جُزُر صغيرة كثيرة قَنَواتُ ماء لا تُحصى. وكانتِ الجُزُر مُغطّاةً بأعشاب قاسية ومحفوفة بالقصب والأسَل*. وقد ظهرت أحياناً مساكبُ** أسَل مساحتُها نحو أربعة آلاف متر مُربّع. وكانت سُحبٌ من الطيور تحطُّ فيها وتطير منها أيضاً: بطٌّ وشُكّب وبَلشون وواق. وأمكنهما أن يريا أكواخَ وَغَم كثيرة، كالذي باتا ليلتهما فيه، منتشرةً في أماكن متفرّقة، ولكنّ كُلاًّ منها يبعد عن الآخر مسافةً لا بأس بها، لأنّ أهل المُستنقعاتِ قومٌ يحبُّون الحفاظ على خصوصياتهم.

وما عدا حاشية الغابة على بُعد بضعة كيلومترات إلى جنوبهما وغربهما، لم تبدُ للعِيان شجرة واحدة. وإلى جهة الشرق امتدّت المستنقعات المسطّحة حتّى تلالٍ رمليّة مُنخفِضة على مدى الأُفق. وكان يُمكِنك أن تعرف من رائحة الملح القويّة التي تحملها الريح الهابّة من ذلك الاتّجاه أنّ البحر يقع هناك بعيداً. وإلى جهة الشمال قامت تلالٌ منخفضة باهتة اللون، تُعزّزها الصخور في بعض الأماكن.

* الأسل: نبات ينمو في المستنقعات، ساقه مرنة. يُستخدَم في صُنع السلال والحصن.

** المساكب: جمع مسكبة: أي حوض أو بقعة تُزرَع بذات النوع من المزروعات، كالورد أو الأسل.

أمّا الباقي فكان كلّه مستنقعات مُسطَّحة. وكان من شأن ذلك المكان أن يكون مُوحِشاً وباعثاً على الكآبة في مساءٍ رطب. ولكنْ عند رؤيته تحت شمس الصباح، وسط هبوب ريحٍ مُنعِشة، وامتلاء الجوّ بصياح الطيور وتغريدها، كان في عُزلته شيءٌ جميل ولذيذ ونظيف. حتّى إنّ الولَدَين شعرا بالانفراج والابتهاج.

وقالت جِلّ: «تُرى، أين ذهب ذلك المخلوق؟»

فقال صغرون، وكأنّه يتباهى بمعرفةِ كلمة غريبة: «السَّبّاخ، ساكنُ الم ستنقعات. أتوقَّع... مهلاً! لا بُدَّ أنَّ ذلك هو!» ثُمَّ رأياه كلاهما، قاعداً وظهرُه نحوهما، يصيد السمك على بعدِ خمسةٍ وأربعين متراً تقريباً، وقد صعبت رؤيته أوّلاً لأنّه كان بلون المستنقع تقريباً، ولأنّه كان قاعداً بلا حراك.

وقالت جِلّ: «أظنُّ أنّه ينبغي لنا أن نذهب ونتكلّم إليه».

ولمّا اقتربا، أدار الشخص رأسه فأراهما وجهاً نحيفاً طويلاً ذا خدَّين غائرَين تقريباً، وفمٍ مُطبَقٍ بإحكام، وأنفٍ حادّ، وذقنٍ خالية من الشَّعر. وكانت على رأسه قُبّعةٌ عالية مستدقّةُ الأعلى كالمَسلّة، وذات حافَة مُسطَّحة وعريضة بشكل هائل. أمّا شعره، إن صحّ أن يُسمّى شعراً، وقد تدلّى فوق أُذنيه الكبيرتين، فكان رمادياً ضارباً إلى الخُضرة، وكانت كلُّ خُصلةٍ منه مُسطَّحة لا مُدوَّرة، بحيث بَدَت كالقصب الرقيق. وقد كان تعبير وجهه رزيناً، ولونُه داكناً، وكان يمكنك أن ترى حالاً أنّه ينظر إلى الحياة نظرةً جدّيّة.

وما لبث أن قال: «صباح الخير، يا ضيفان... وإن كنتُ عندما أقول 'الخير' لا أعني أنّه ربّما لا يتحوّل صباحاً ماطراً، أو قد يصير مُثلِجاً، أو ضبابيّاً أو عاصفاً. أكاد أقول إنكما لم تناما قطّ».

فقالت جِلّ: «لا، بل نمنا. وقد كانت ليلتُنا هانئة».

وقال ساكن المستنقعات وهو يهزّ رأسه: «آهٍ! أرى أنكُما تستخلصان أفضل ما يمكن في وضعٍ سيّئ. ذلك حَسَن. لقد تربّيتُما تربيةً صالحة بالفعل. إنكُما تعلّمتُما أن تضعا للأشياء وجهاً جميلاً».

فقال صغرون: «رجاءً، نحن لا نعرف اسمك».

«اسمي بِركَهمُوم. ولكنْ لا يهمُّ إن نَسِيتُماه. فأنا أقدر أن أُكرِّره لكما دائماً».

ثمَّ قعد الولدان إلى كِلا جانبَيه. فرأيا عندئذٍ أنَّ له رجلَين وذراعَين طويلةً، حتّى إنّه لو وقف لكان أطول من مُعظم الرجال مع أنَّ بَدَنه ليس أكبر بكثير من بدنِ قَزَم. وقد كانت أصابع يديه مكفَّفة كأصابع الضفدعة، وكذلك كانت قدماه الحافيتان تتدلّيان في المياه المُوحِلة. وكان لابساً ثياباً بلون التُّراب، فضفاضةً عليه.

ثمَّ قال برِكَهمُوم: «إنيِّ أحاوِل أن أمسك بشيءٍ من سمك الأنقليس لأطبخ حَساء أنقليس* لِفَطورنا. وإن كنتُ لن أتعجَّب إن لم أمسك بأيّة سمكة أنقليس. ولن تحُبّا هذا السمك إذا أمسكت بعضَهُ..».

وسأله صغرون: «ولِمَ لا؟»

«ذلك لأنّه مُنافٍ للعقل أن تحُبّا نوعَ طعامِنا، مع أنّني لا أشكُّ بأنكما ستُقنِعان هذا بقناع جميل. ومع ذلك، فبينما أنا أصِيد، لو تحاولان إشعال النار... فلا ضرر في المحاولة. الحطب وراء الوَغْم، وقد يكون رطباً. يمكنكما إشعال النار داخل الوغم، وعندئذٍ يُعمي الدخان عيوننا. أو يمكنكما أن تُشعِلاها في الخارج، وعندئذٍ يُطفِئها المطر. ها هي علبة القَدح خاصتّي. ولَن تعرفا كيف تستعملانها، كما أتوقَّع».

*الأنقليس أو ثعبان الماء: سمك يعيش في المياه العذبة، ولكنه يتكاثر ويبيض في المياه المالحة والعذبة، وأحياناً على البر بعض الوقت.

ولكنَّ صَغرون كان قد تعلَّم ذلك في مغامرته السابقة. فرجع الولَدان ركضاً إلى الوَغْم، ووجدا الحطب (وقد كان جافّاً تماماً) ونجحا في إشعال نارٍ بصعوبةٍ أقلَّ من المعتادة. ثمَّ قعد واهتمَّ بالنار فيما ذهبت جلّ واغتسلت اغتسالاً مُرتَجَلاً — وليس جيّداً كثيراً — في أقربِ قناة. وبعد ذلك اهتمَّت هي بالنار ريثما اغتسل هو. وقد شعر كلاهما بمزيدٍ من الانتعاش، لكنْ بجوعٍ شديد.

وما لبث ساكن المُستَنقعات أنِ انضمَّ إليهما. فعلى الرُّغم من توقُّعه ألاّ يمسك شيئاً من الأنقليس، فقد أصاب نحو عشر سمكات وكان قد سلخها ونظّفها. ثم وضع على النار قِدْراً كبيرة بعد أن سوّاها، وأشعل غليونه. وأهل المستنقعات يُدخِّنون نوعاً من التبغ ثقيلاً وغريباً جدّاً (يقول بعضُهم إنّهم يمزجونه بالوحل). وقد لاحظ



الولدان أنّ الدُّخان من غليون بِركَهمُوم لم يكَد يرتفع في الهواء قطعاً، إذ كان يخرج من تجويف الغليون لينزل إلى الأسفل وينسحب على طول الأرض كالضباب. وكان أسود كثيراً، وقد جعل صغرون يسعل.

وقال بِركَهمُوم: «والآن، ستستغرق سمكات الأنقليس هذه وقتاً طويلاً جداً حتّى تنضج، وقد يُغمى على أيٍّ منكما من الجوع قبل نضْجه. أعرِف بنتاً صغيرة... ولكنْ لا يجدر بي أن أخبرِكما تلك القصّة. فإنّها قد تُحزِنكما، وذلك شيءٌ لن أفعله أبداً. وعليه، فإبعاداً لفكركما عن جوعكما، يمكننا أن نتحدّث عن خُططنا أيضاً».

فقالت جِلّ: «نعم، لنتحدّث عنها فعلاً. هل يمكنك أن تساعدنا في العثور على الأمير ريليان؟»

وامتصّ ساكن المستنقعات خدّيه حتّى صارا غائرَين أكثر ممّا تصوّراه ممكناً وقال: «حسناً، لا أدري أنّكما يمكن أن تُسمّيا ذلك 'مُساعدة'. ولا أدري أنّ أحداً يمكنه أن 'يساعد' تماماً. فالمنطق يقول إنّه لا يُرجَّح أن نصل إلى مسافة بعيدة في رحلةٍ نحو الشمال، خصوصاً في هذا الوقت من السنة والشتاءُ يقترب سريعاً بكلّ ما فيه. وسيكون شتاءً مُبكّراً أيضاً، حسْبَما تبدو عليه الأمور. ولكنْ يجب ألّا تَدَعا ذلك يُحزِنكما. فالمُرجَّح جداً أنّكما لن تكادا تُلاحِظان أحوال الجوّ، نظراً لوجود أعداء وجبال وأنهار يجب عبورها، وتيهاننا عن الطريق وشحّ زادِ طعامنا وتقرُّح أقدامنا. وإن لم نقطع مسافة كافية لإحراز أيّ تقدُّم،

فقد نصل إلى حيث لا يمكننا أن نرجع بسرعة».

وقد لاحظ كِلا الولَدين أنّه أخيراً تكلّم بصيغة الجميع (نحن) لا بصيغة المخاطب (أنتما)، فهتفا كِلاهما في اللحظة ذاتها: «أأنت ذاهبٌ معنا؟»

«إي نعم، ذاهبٌ طبعاً. فهذا مُمكِن أيضاً، كما ترَيان. لا أعتقد أنّنا سنرى الملك من جديد في نارنيا ما دام قد انطلق إلى المناطق الأجنبيّة، وقد كان مُصاباً بسُعال ثقيل عند رحيله. ثمّ إنّ طرَمبكِن يعجز بسرعة. وستجدان أنّ حصاداً رديئاً يكون قد حلّ بعد هذا الصيف الجافّ على نحوٍ رهيب. ولن أتعجّب إذا هاجمنا عدوٌّ ما. انتبِها إلى كلامي!»

فقال صغرون: «وكيف ننطلق؟»

أجاب ساكن المستنقعات بكلّ بطء: «جميع الآخَرين الذين ذهبوا للبحث عن الأمير ريليان انطلقوا من النبع عينه الذي بقُربه شاهد اللورد درينيان المرأة. وقد توجّهوا إلى الشمال أغلبَ الأحيان. وبما أنّ أيّ واحدٍ منهم لم يرجع، فلا يمكننا أن نقول تماماً كيف سارت أمورهم».

فقالت جِلّ: «علينا أن ننطلق بالعثور على خرائب مدينةِ مَرَدة. هكذا قال أصلان».

وأجاب بِركَهمُوم: «علينا أن ننطلق بالعثور عليها، أليس كذلك؟ وليس مسموحاً لنا أن ننطلق بالتفتيش عنها، كما أعتقد».

فقالت جِلّ: «ذلك هو ما أعنيه طبعاً. ثُمَّ عندما نعثر عليها..»

وأجاب بِركهمُوم بكلِّ جفاف: «نعم، عندما!»

فسأل صَغرون: «ألا يعرف أحدٌ أين هي؟»

فقال بِركهمُوم: «لستُ أعرفُ أحداً يعرفُها. ولا أقول إنّي لم أسمع بتلك المدينة الخَرِبة. إنّما رغم ذلك لا ينبغي الانطلاق من النبع. فسيكون عليكما أن تعبرا سَبْخة أتّنز. هناك تجدان خرائب المدينة، إذا كانت موجودة في مكانٍ ما. ولكنّني وصلتُ في ذلك الاتجاه بعيداً إلى حيثُ وصل معظم الناس، ولم أبلغ أيّة خرائب. ولذلك لن أخدعكما».

وسأل صغرون: «وأين سَبْخة أتّنز؟»

فقال بِركهمُوم مُشيراً بغليونه: «انظرا إلى هناك شمالاً. أترَيان تلك التلال والأجزاء الصخريّة؟ ذلك أوّلُ سَبْخة أتّنز. ولكنَّ بيننا وبينها نهراً، هو نهرُ الثّرثار. وليس عليه جسورٌ بالطبع».

وقال صغرون: «يُفترَض أن نعبره خَوضاً، كما أظنّ».

فأقرّ بِركهمُوم: «حسناً، لقد تمَّ خوضُه فعلاً».

وقالت جِلّ: «لعلّنا نُقابل في السَّبْخة قوماً يمكنهم أن يدلُّونا على الطريق».

فقال ساكن المستنقعات: «صحيحٌ قولُكِ عن مُقابلة قوم».

وسألت جِلّ: «أيُّ قومٍ يسكنون هناك؟»

فأجاب بِركَهمُوم: «لا يحقُّ لي أن أقول إنّه لا بأس بهم

كما هُم، إذا أعجبكم ما هُم عليه».

وقالت جِلّ بإصرار: «نعم، ولكنْ ما هُم؟ في هذه البلاد كثير من المخلوقات الغريبة. أعني: أحيواناتٌ هم أم طيور أم أقزام أم ماذا؟»

فصفر ساكن المستنقعات صفرة طويلة وقال: «عجباً! ألا تعرفان؟ ظننتُ أنّ طيور البوم أخبرتكم. إنّهم مَرَدة!»

وأجفلت جِلّ. فهي لم تحبّ المَرَدة قطّ، ولو في الكُتب، وقد رأت مارداً مرّةً في حُلم. ثمّ لمحتْ وجه صغرون، وقد صار شاحباً جدّاً، وفكّرت بقلبها: «أعتقد أنّه مذعورٌ أكثر منّي!» فجعلها ذلك تشعر بأنّها أشجع.

وقال صغرون: «قال لي المَلِك من زمانٍ بعيد — لمّا كنتُ معه في البحر — إنّه كسر أولئك المَرَدة كسرةً كبيرة في الحرب وجعلَهُمْ يؤدُّون له الجزية».

فأجاب ساكن المستنقعات: «صحيحٌ تماماً! إنّهم في حالة سِلمٍ معنا بالحقيقة. وما دُمنا نبقى على هذا الجانب من نهر الثرثار، فهم لن يؤذونا أبداً. ولكنْ على الجانب الآخر، في السَّبْخة، ما تزال لهم فرصةٌ دائماً. فإن كُنّا لا نقترب من أيّ واحد منهم، وإن لم ينسَ أيُّ واحدٍ منهم نفسه، وإن كُنّا لا نُرى، فمن الممكن تماماً أن نقطع مسافةً طويلة».

عندئذٍ فقدَ صغرون أعصابه فجأةً كما يسهل أن يحصل للمذعور، فقال: «انظر إليّ! لا أعتقد أنّ الأمر كلّه هو بنصف السوء الذي تُشير إليه، كما لم يكن الفِراشان في الوَغَم قاسِيَين ولا الحطب رطباً. ولا أظنُّ أنّ أصلان

كان بعثنا إطلاقاً لو كانت فرصة النجاح ضئيلةً هكذا».

وقد توقَّع تماماً أن يُجاوبه ساكنُ المستنقعات جواباً غاضباً، إلَّا أنَّه قال فقط: «تلك هي الروح الصحيحة، يا صغرون. تلك هي طريقة الكلام المناسبة: أن تضع للأمور قِناعاً جميلاً. ولكنْ ينبغي لنا جميعاً أن ننتبه إلى طباعنا، بالنظر إلى جميع الظروف الصعبة التي سنُضطرُّ إلى اجتيازها معاً. لا نفع في الخصام، كما تعلم. على كلِّ حال، لا تُباشِرْه بسرعةٍ فائقة! أعرفُ أنَّ هذه البعثات غالباً ما تنتهي بهذه الطريقة: أن يطعن الناس بعضُهم بعضاً بالسكاكين – ولن أتعجَّب – قبل أن تُنجَز المهمَّة. ولكن كُلَّما استطعنا تأجيل المخاصمة..».

فقاطعه صغرون: «حسناً، إذا كنتَ ترى أنَّ الأمر مُتعذِّر إلى هذا الحدّ، فأظنُّ أنَّه أفضلُ لك أن تبقى هنا. فأنا وبُول يمكننا أن نذهب وحدنا، أليس كذلك يا پول؟»

وقالت جِلّ بسرعة: «كُفَّ عن الكلام، يا صغرون، ولا تكُن غبيّاً»، إذ خشِيَت أن يصدِّق ساكن المستنقعات كلامه فيتصرَّف على هذا الأساس.

فقال بِركهموم: «لا يَهِن عزمُكِ، يا پول! سأذهب معكما بالتأكيد حتماً. لن أُفوِّت فرصةً كهذه. فإنَّها ستنفعني. إنَّهم جميعاً – أعني أهل المستنقعات الآخرين – يقولون إنّي مُتقلِّب جدّاً ولا آخذ الحياة على محمِل الجدّ بما فيه الكفاية. وإن قالوا هذا مرَّةً، قالوه ألفَ مرَّة. إنَّهم قالوا لي: 'يا بِركهموم، إنَّك مليءٌ بالخفَّة والحيويَّة

والحماسة. فعليك أن تتعلَّم أنَّ الحياة ليست كلُّها ضفادع مُحمَّرة وحساء أنقليس. إنَّك تحتاج إلى شيء يُصَحِّيك قليلاً ويجعلُكَ متَّزناً. ونحنُ نقول هذا لخيرك فقط، يا بِركهموم.' ذلك هو ما يقولونه. فالمطلوب تماماً الآن هو عملٌ كهذا: رحلة إلى أعالي الشمال في أوّل الشتاء تماماً، بحثاً عن أمرٍ ربَّما لا يكون هناك، من طريق مدينة خَرِبة لَمْ يَرَها أحدٌ. فإن كان هذا لا يُعقِّل الفتى، فلا أدري ماذا يُعقِّله». ثمَّ فرك يديه الشبيهتين بيدَي الضفدعة، وكأنَّه ذاهبٌ إلى حفلة أو مسرحيَّة إيمائيَّة، وأضاف: «والآن، لنرَ أين صارت تلك السمكات!»

ولمَّا جاءت الوجبة، كانت شهيَّة، ونال كلٌّ من الولدين حصَّتَين كبيرتين. وفي البداية لم يُصدِّق ساكن المستنقعات أنَّهما أحبَّا الحساء فعلاً. ولمَّا أكلا كثيراً حتَّى اضطُرَّ إلى تصديقهما، عاد يقول إنَّه ربَّما لا يكون مناسِباً لهما قطّ: «ما هو طعامٌ عند أهل المستنقعات قد يكون سمّاً عند البشر، ولَن أتعجَّب!» وبعد الوجبة شربوا شاياً في عُلَب معدنيَّة (كالتي رُبَّما تكون قد شاهدت عُمَّال الطرق يشربونه بها)، ثُمَّ رشف بِركهموم رشفاتٍ كثيرةً من قنّينة سوداء مُربَّعة، وقدَّم للولَدَين شيئاً منها، إلَّا أنَّهما لم يَستسيغا ذلك.

ثمَّ قضَوا باقي نهارهم في تحضير إعدادات الانطلاق باكراً في الصباح التالي. وقال بِركهموم إنَّه لكونه أكبرَهم على الإطلاق سيحمل ثلاث بطّانيّات يلفُّ بها قطعة

كبيرة من اللحم المقدَّد. وكان على جِلّ أن تحمل ما بقي من الأنقليس، وشيئاً من البَسكويت، وعلبة قَدح النار، فيما كان على صغرون أن يحمل عباءته وعباءة جِلّ حين لا يُضطرّان إلى لبسهما. وأعطى بِركهمُوم ثانيَ أفضل قوسٍ لصغرون (وكان قد تعلَّم شيئاً من رماية السهام عند الإبحار إلى الشرق بإمرة كاسپيان)، فيما أبقى قوسه الفُضلى لنفسه، مع أنّه قال إنّ فرصة إصابة أيّ هدف يبلغ معدَّلُها واحداً بالمئة بوجود الرياح ووتر قوسٍ رطب وضوءٍ خفيف وأصابع متجمِّدة من البرد. وأعدَّ هو وصغرون كلٌّ سيفَه. كان صغرون قد أحضر السيف الذي تُرِك له في غُرفته بقصر كيرپراڤيل، ولكنْ كان على جِلّ أن تقنع بسِكّينها الكشفيّة. وكاد ينشب خصام حول هذا، ولكنْ ما إن بدأ المُناوشة حتّى فرك ساكن المستنقعات يديه وقال: «أهَه! ها أنتما على أُهبة المخاصمة. وهكذا فكّرت. فذلك هو ما يحدث عادةً في المغامرات». فأسكتهما ذلك كِلَيهما.

ثمّ أخلد الثلاثة إلى النوم باكراً في الوَغْم. وكانت ليلة الوَلَدين هذه المرّة سيّئة تقريباً. ذلك لأنّ بِركهمُوم، بعدما قال: «أفضلُ لكما، أنتما الاثنين، أن تأخذا قسطاً من النوم. ولستُ أعني أنّ أيّاً منّا سيغمض له جفنٌ الليلة!» نام حالاً وأخذ يشخر شخيراً عالياً ومتواصلاً، حتّى إنّ جِلّ، حين نامت أخيراً، حلمت طوال الليل بحفّارات الطُرق وشلّالات الماء والركوب في قطار سريع هدّار.

الفصل السادس

أراضي الشمال القاحلة الوَعِرة

حوالَى الساعة التاسعة من صباح اليوم التالي، كان يمكن أن يُرى ثلاثة أشخاص منفردين يشقّون طريقهم عبر نهر الثرثار في الأماكن القليلة العمق وعلى الحجارة الكبيرة في مجراه. وقد كان نهراً ضحلاً كثير الخرير، حتّى إنّ جِلّ نفسها لم تكن قد تبلّلت حتّى رُكبتيها لمّا وصلوا إلى الضفّة الشماليّة. وبعد نحو أربعين متراً قُدّامهم ارتفعت الأرض حتّى أوّل السَّبخة، شديدة الانحدار في كلّ مكان، وفي جُروف صخريّة كثيراً.

فقال صغرون: «أظنُّ أنّ تلك طريقُنا!» مشيراً نحو اليسار والغرب إلى حيث يسيل جدولٌ من السَّبخة في مخاضةٍ ضحلة. ولكنّ ساكن المستنقعات هزّ رأسه نفياً. وقال: «يُقيم المَرَدة عموماً على طول حافَة ذلك الممرّ المائي. ويمكنكما أن تقولا إنّ الممرّ كان بمثابة شارعٍ لهم. خيرٌ لنا أن ننطلق إلى الأمام مباشرةً، مع أنّ الانحدارَ شديدٌ قليلاً».

ثمّ عثروا على مكانٍ يمكنهم التسلّق فيه، وبعد نحو خمس دقائق، وقفوا على القمّة لاهثين. وألقوا نظرة حنين

إلى وادي نارنيا وراءهم، ثُمَّ أداروا وجوههم نحو الشمال. وقد ترامت السَّبخة صعوداً وبعيداً على مدِّ أنظارهم، وكانت إلى يسارهم أرضٌ أكثر صخوراً. ففكّرت جِلّ أنَّ تلك ينبغي أن تكون حافة ممرِّ المردة، ولم تتحمَّس كثيراً للنظر إلى ذلك الاتّجاه. ثمَّ انطلقوا.

كانت الأرض ليِّنة وجيِّدة للمشي، والنهار ذا شمسٍ شتائيَّة باهتة. وكلَّما توغَّلوا في السَّبخة، تزايدت العُزلة، وبات يمكنهم أن يروا طير بازٍ بين حين وآخر، وأن يسمعوا تغريد طيور أبي طيط*. ولمَّا توقَّفوا في منتصف الصباح للاستراحة وشرب الماء في فُرجةٍ قرب جدول، كانت جلّ قد بدأت تشعر بأنَّها ربمَّا تستسيغ المغامرات، وعبَّرت عن ذلك فعلاً. فقال ساكن المستنقعات: «لم نخُض أيَّ مغامرة بعد».

ولكنَّ المشي بعد أوَّل توقُّف — كالدخول إلى غرفة الدرس بعد الاستراحة الصباحيَّة في المدرسة أو استئناف السفر في قطار تالٍ على السكَّة الحديدية — لا يجري أبداً كما كان جارياً من قبل. فلمَّا انطلقوا من جديد، لاحظت جِلّ أن حافَةَ الجُرف الصخريَّة قد باتت قريبة، وصارت الصخور أقلَّ انبساطاً وأكثر شموخاً ممَّا كانت قبلاً، حتَّى بانت بالحقيقة مثل أبراجٍ صغيرة من الصخر. وكم كانت أشكالها غريبةً عجيبة!

* أبو طيط: طائر يشبه النورس، رأسه أسود

وفكّرت جِلّ: «إنّي أحسب حقّاً أنَّ جميع قصص المَردة ربمَّا تكون قد جاءت من هذه الصخور الغريبة العجيبة... فإذا كنتِ تمرِّين من هنا وسط ظلمة نسبيَّة، يسهل أن تتصوَّري هذه الجلاميد الصخريَّة مَردةً أو عمالقة. انظري إلى تلك الصخرة هناك! إنَّك تكادين تتصوَّرين أنَّ تلك الكتلة في الأعلى هي رأس. سيكون أكبر من أن يُناسِب الجسم، ولكنَّه موافقٌ تماماً لماردٍ بَشِع. وتلك الكتلة الكثيفة كلُّها — وأظنُّ أنَّها خَلَنج وأعشاش طيور في الواقع — تقوم تماماً مقام الشعر واللحية. وذانِك النتوءان إلى كِلا الجانبين يُشبِهان الأُذنين تماماً. ستكونان كبيرتين على نحوٍ مُروِّع، ولكنَّني عندئذٍ أجرؤ على القول إنَّ للمَرَدة آذاناً كبيرة، شأنهم شأن الأفيال. وعندئذٍ... آه، يا للهول!»

لقد جمد الدم في عروقها، إذ إنَّ ذلك الشيء تحرَّك. فقد كان مارداً حقيقيّاً؛ ولا خطأ في ذلك البتَّة، إذ شاهدته يُدير رأسه. ولاح لعينيها ذلك الوجه الضخم الأبله المنتفخ الخدَّين. فإنَّ تلك الأشياء كلَّها كانت عمالقة، لا صخوراً. وكانوا أربعين أو خمسين، كلُّهم في صفٍّ واحد، واقفين كما يبدو بوضوحٍ وأقدامُهم في أسفل الممرِّ الضيِّق ومَرافقهم مُتَّكئة على حافة الممرِّ العليا، تماماً كما يقف رجالٌ كسالى مُستندين على حافة حائطٍ في صباحٍ صافٍ بعد الفَطور.

ولاحظ بِركَهمُوم المَرَدة أيضاً، فهمس قائلاً: «تابِعا

السَّير باستقامة. لا تنظرا إليهم. ومهما فعلتما، فلا تركضا هرباً، وإلّا لحقوا بنا بعد هُنَيهة».

وهكذا واصلوا السَّير، مُتظاهِرين بأنّهم لم يَرَوا المردة. وكان ذلك أشبه بالمرور أمام بوّابة بيتٍ في باحته كلبٌ شرس، إنّما أسوأ بكثير جدّاً. فقد كان من هؤلاء المردة عَشَراتٌ وعشرات. ولم يَبدُ عليهم الغضب، ولا اللطف، ولا مُجرَّد المُبالاة. كما لم تظهر أيّة إشارة تدلُّ على أنّهم رأوا المُسافرين الثلاثة.

ثمّ سُمِع صوت أزيزٍ وطنين هائل، إذ قُذِف في الهواء شيءٌ ثقيل قبل أن يرتطم بالأرض جلمودُ صخر على بُعد نحو عشرين خطوةً قُدّامهم. وبعدَه... طَدّ!... سقط جلمودٌ آخر بُعد ستّة أمتار خلفهم.

وسأل صغرون: «هل يُصوِّبون إلينا؟»

فقال بِركَهمُوم: «لا! ولو كانوا يفعلون ذلك، لكُنّا أكثر أماناً بكثير. إنّهم يحاولون إصابة تلك... تلك الرُّجمة هناك إلى اليمين. واعلما أنّهم لن يُصيبوها. ولكنّنا آمِنون بما فيه الكفاية، إذ إنّ رمياتهم سيّئة جدّاً. وهم يلعبون لعبة الرماية صباحاً أغلبَ أيّام الصحو. فربّما كانت هذه هي اللعبة الوحيدة التي يُمكّنهم ذكاؤهم المحدود من فهمها».

وقد كان ذلك وقتاً مُروِّعاً. فلم يبدُ أنّ لصفِّ المَرَدة نهاية، ولم يتوقّفوا عن رشق الحجارة الكبيرة التي سقط بعضُها على مسافة قريبة جدّاً. وفضلاً عن الخطر الفعليّ، كان منظر وجوههم ووقْع أصواتهم كافيَين لإخافة أيّ شخص. وقد حاولت جِلّ ألّا تنظر إليهم.

وبعد خمسٍ وعشرين دقيقة تقريباً بدا أنّ المَرَدة يتخاصمون. وقد وضع ذلك حدّاً للعبة رمي الصخور. لكنّ وجودك على بُعد أقلّ من كيلومترين عن مَرَدة يتشاجرون ليس أمراً مُبهِجاً. فقد هاجموا بعضهم بعضاً وتشاتموا بكلماتٍ طويلة عديمة المعنى، في كلٍّ منها نحو عشرين مقطعاً. وأرغَوا وأزبدوا وهذروا وثرثروا، وقفزوا في غضبهم قفزاتٍ هزّت كلُّ واحدةٍ منها الأرض كما لو كانت قُنبلة. وانهالوا بعضُهم على رؤوس بعض بمطارق حجريّة ضخمةٍ خشنة. غير أنّ جماجمهم كانت قاسية جدّاً حتّى إنّ المطارق ارتدّت عنها بقوّة، وعندئذٍ كان المسخ الذي ضرب الضربة

يُرخي مطرقته ويزعق ألماً لأنها أوجعت أصابعه. ولكنّه كان شديد الغباوة بحيثُ يفعل الأمر نفسه بعد دقيقة. وقد كان ذلك أمراً جيّداً في نهاية المطاف، لأنّه بعد ساعةٍ واحدة كان جميع المَردة قد تأذّوا كثيراً حتّى قعدوا كلّهم وأخذوا يبكون. ولمّا قعدوا، انخفضت رؤوسهم عن حافة الممرّ، فغابوا عن الأنظار. ولكنّ جِلّ استطاعت أن تسمعهم وهم يُوَلوِلون ويَنتحِبون ويُبَؤْوِون كأطفالٍ كبار، حتّى بعدما صار موضعهم بعيداً نحو كيلومتر ونصف إلى الوراء.

في تلك الليلة، بات المسافرون ليلتهم في السَّبخة المكشوفة، وعلَّم بركَهمُوم الولَدَين كيف يستخدمان بطّانيّتيهما بأن يناما وظهرُ أحدهما إلى ظهر الآخر. (فتلاصُق ظهرَيهما يُدفئهما كِلَيهما، كما يمكنهما أن يتدثّرا بالبطّانيّتين معاً.) ولكنْ مع ذلك بقي البرد شديداً، وكانت الأرض صُلبة وخشنة. وقال لهما ساكن المستنقعات إنّهما يشعران بمزيد من الراحة إن فكّرا فقط كم سيكون البرد أشدّ بكثير جدّاً في ما بعد وفي أقاصي الشمال، ولكنّ ذلك لم يُسرِّ عنهما قطّ.

ثمّ ارتحلوا عبر سَبخة أتنـز عدّةَ أيّام، مُحتفظين باللحم المقدَّد ومُقتاتين أساساً بما اصطاده يُسطاس وساكن المستنقعات من طيور السبخة (ولم تكن بالطبع طيوراً ناطقة). وقد حسدت جِلّ يُسطاس على تمكّنه من الصَّيد بالسّهام، وكان قد تعلّم ذلك في أثناء رحلته مع الملك

كاسپيان. ونظراً لوفرة الجداول في السبخة، لم يُعوِزهم الماءُ قطّ. وقد فكّرت جِلّ أنّ الكُتب التي تحكي عن الذين يقتاتون بالطرائد التي يصطادونها لا تذكر أبداً كم نَتفُ الطيور المُصطادة وتنظيفُها عملٌ قَذِر وكريه الرائحة وطويل الوقت، وكيف يجعل الأصابع باردة جدّاً. ولكنّ الأمر العظيم كان أنّهم لم يكادوا يلتقون أيَّ مَرَدة. فقد رآهم أحد المَرَدة مرّةً، ولكنّه لم يعمل شيئاً ما عدا أنّه ضحك ضحكة هادرة ثمّ مضى يمشي بتثاقُلٍ وضجيج ليقوم بأُموره الخاصّة.

وفي اليوم العاشر تقريباً، وصلوا إلى مكان تغيّرت فيه تضاريس الأرض. فقد بلغوا طرف السَّبخة الشماليّ، وأطلّوا عبرَ مُنحَدر طويل شديد الانحدار على أرضٍ مختلفةٍ وأكثرَ وَعورةً. وكان في أسفل المُنحَدر صخورٌ شاهقة، ووراءها أراضٍ من الجبال العالية، والجُروف القائمة، والأودية المُحجِرة، والوِهاد العميقة والضيّقة جدّاً بحيث لا يقدر المرء أن يرى في أعماقها إلى مدىً بعيد، وأنهار تتدفّق عبر المجاري الهدّارة لتغور فجأةً في أعماقٍ سوداء. ولا داعيَ للقول إنّ بِركَهمُوم هو مَن دلّ على بعض تساقط الثلوج على السفوح الأكثر بُعداً، ثمّ أضاف: «ولكنْ سيكون مزيدٌ من الثلوج على الجانب الشمالي من الجبال، ولن أتعجّب من هذا».

وقد استغرق وصولهم إلى أسفل المُنحدَر وقتاً لا بأس به. وعندئذٍ أطلّوا من أعلى الصخور على نهرٍ يجرى تحتهم

من الغرب إلى الشرق، وكان مُسوَّراً بالجُروف في الجانب الأبعد كما كان في الجانب الأقرب، كما كان أخضر وغير مُشمِس وكثير المَساقِط والشلالات، وقد هزّ هديره الأرض حتّى حيث كانُوا واقِفين.



وقال بِركَهمُوم: «الجانب المشرق في هذا أنّنا إن كسرنا أعناقنا ونحن نسقط عن الجُرف نكون بمأمنٍ من الغرق في ماء النهر».

عندئذٍ قال صغرون فجأة: «ما ذلك؟» مشيراً نحو أعلى النهر إلى يسارهم. ثمّ التفتوا جميعاً فرأوا آخِر شيءٍ كانوا يتوقّعون رؤيته: جسراً، ويا له من جسرٍ أيضاً! فقد كان قنطرةً واحدة ضخمة تمتدّ فوق الممرّ العميق من جانبٍ إلى جانب. وكان أعلى القنطرة يرتفع عن الجُروف بما يُعادِل

ارتفاع قبّة كاتدرائيّة القدّيس بولس عن الشارع.

وقالت جِل: «عجباً، لا بدّ أن يكون جسرَ مَرَدة!»

فقال بِركَهموم: «أو لعلّه جسرُ سَحَرة، على الأرجح. فعلينا أن نُفتّش عن سُحورٍ في مكانٍ كهذا. أظنُّ أنّ هذا فَخّ. وأظنُّ أنّه سيتحوّل إلى ضباب ويتبدّد فيما نكون على وسطه تماماً».

وقال صغرون: «أوه، بحقّ السّماء، لا تُنغّص عيشنا هكذا بتشاؤمِك! فماذا يمنع أن يكون جسراً حقيقيّاً؟»

فأجاب بِركَهمُوم: «هل تحسبان أنّ أيّاً من المَرَدة الذين رأيناهم قد يكون له عقلٌ يُمكّنه من بناء شيءٍ كهذا؟».

وقالت جِل: «ولكنْ ألا يمكن أن يكون مَرَدةٌ آخرون قد بَنَوه؟ أعني: مَرَدة عاشوا قبل مئاتٍ من السنين وكانوا أذكى بكثير من صنف المَرَدة الحاليّين! وربّما بناه أولئك الذين بَنَوا مدينة المَرَدة التي نبحث عنها. ومن شأن هذا أن يعني أنّنا على الطريق الصحيح: فالجسر القديم يؤدّي إلى المدينة القديمة!»

فقال صغرون: «هذه فكرة بارعة حقّاً، يا پول. لا بدّ أن يكون هذا هو الواقع. فهيّا بنا».

وهكذا داروا وتوجّهوا نحو الجسر. ولمّا وصلوا إليه، بدا لهم صُلباً بالتأكيد. وقد كانت حجارته كبيرة كحجارة قلعةٍ رومانيّة قديمة، ولا بُدّ أنّ بنّائين مَهَرةً قد ربّعوها قديماً، وإن كانت الآن مُشقّقة ومُفتّتة بعضَ الشيء. وبدا أنّ حاجز الجسر كان مُغطّىً بنقوش فاخرة، بَقِيَت منها بعضُ الآثار،

وبينها حُليّ معماريّة تمثّل وجوهاً وأشكالاً تظهر فيها مَرَدةٌ ومينوطورات* وجَبّارات وأُمّاتُ أربع وأربعين وشياطين مُروِّعة. ومع ذلك لم يكُن بِركهموم واثقاً بقوّة الجسر، إلّا أنّه قبل أن يعبره مع الولَدَين.

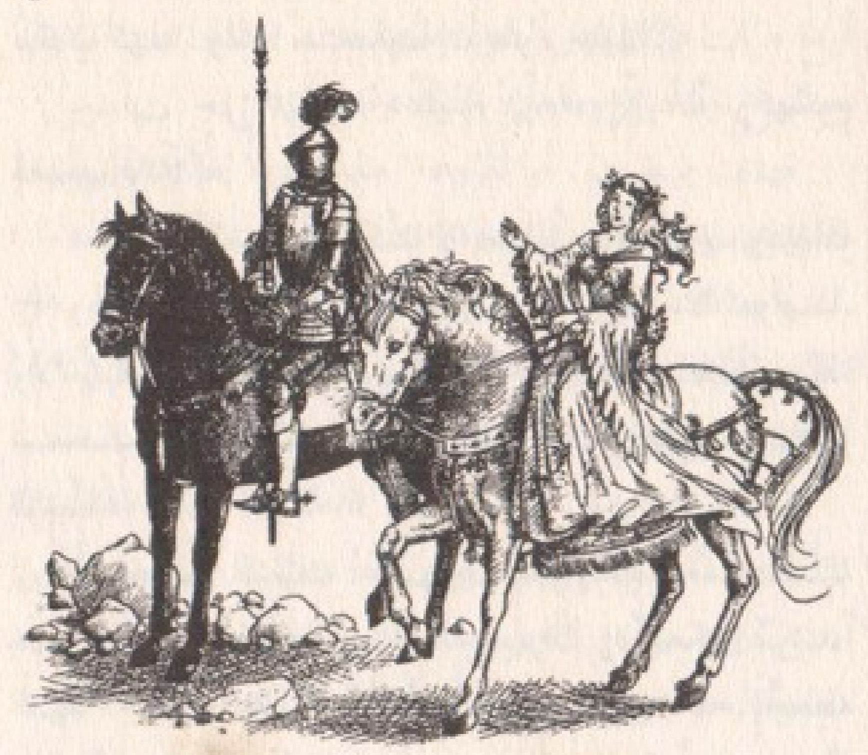
وكان الصعود إلى أعلى الجسر طويلاً وشاقّاً. ففي أماكن كثيرة، كانت الحجارة الكبيرة قد سقطت، تاركةً فجواتٍ هائلة كان يمكنك أن ترى من خلالها النهر مُزبداً على بعد آلاف الأقدام في الأسفل. وقد شاهدوا نسراً يطير عابراً تحت أقدامهم. وكلّما صعدوا إلى أعلى، صار الجوُّ أبرد، وزادت حدّة الريح حتّى صعُب عليهم كثيراً أن يظلّوا ثابتي الأقدام، وقد بدا أنّها تهزُّ الجسر هزّاً.

ولمّا بلغوا قِمّة الجسر واستطاعوا النظر إلى مُنحدَر الجسر الآخر، رأوا ما يُشبِه بقايا طريقِ مَرَدة مُمتدّة إلى البعيد أمامهم داخِلَ الجبال. وقد كانت حجارةٌ كثيرة من أرضيّة المُنحدَر المرصوفة ناقصةً، كما انتشرت رُقَع كبيرة من الأعشاب بين الحجارة الباقية. وكان مُقبِلاً نحوَهم على تلك الطريق القديمة شخصان يمتطيان حصانَين وقامتُهما توازي حجماً قامة الآدميّين الراشِدين المألوفة. فقال بِركهموم:

«لنتابع سيرَنا مُتقدّمين نحوهما. فأيُّ شخصٍ نقابله في مثل هذا المكان قد يكون عدوّاً أو صديقاً، ولكِنْ يجب علينا ألّا ندَعهما يحسبان أنّنا خائفون».

* المينوطورات: جمع مينوطور، وهو كائن خرافي له جسم انسان ورأس ثور.

ولمّا نزلوا عن طَرَف الجسر وداسوا عشب الحافة، كان الغريبان قد صارا قريبَين منهم جدّاً. وكان أحدهما فارساً مرتدياً درعاً سابغة كاملة وغطاء وجهه مُسدَل. وقد كان درعه وحصانه أسودَين، ولم يكن على تُرسه شعار، ولا على رُمحه رايةٌ صغيرة. أمّا الشخص الآخر فكان سيّدة تمتطي حصاناً أبيض، جميلاً وظريفاً جدّاً بحيث ترغب حالاً في



تقبيل أنفِه وإعطائه قطعة سُكّر. ولكنّ السيّدة التي كانت جالسةً على سَرج جانبيّ، ولابسةً ثوباً طويلاً فضفاضاً يبهر النظر بلونه الأخضر، كانت أجمل من حصانها.

عندئذٍ قالت تلك السيّدة، بصوتٍ عذبٍ كأعذب تغريدِ طائر، مردِّدةً حرف الراء بكلّ خِفّة: «طابَ نهارُكما،

يا مسافِرُون! إنّ بعضكم أصغر سنّاً من أن يُسافِرُوا مشياً في هذا القفر الوعر!»

فقال بِركهمُوم بمنتهى الصلابة والتأهُّب: «لا بأس في هذا، يا سيِّدتي».

وقالت جِلّ: «نحن نبحث عن مدينة المَرَدة الخَرِبة».

فقالت المرأة: «المدينة الخَرِبة؟ غريبٌ أن تبحثوا عن مكانٍ كهذا. وماذا ستفعلون إن عثرتمْ عليها؟»

وبدأت جِلّ تقول: «علَينا أن..». إلّا أنّ بِركهمُوم قاطعها قائلاً:

«عفوَكِ سيِّدتي! ولكنّنا لا نعرفكِ ولا نعرف رفيقكِ — وهو فتىً صامتٌ على ما يبدو — وأنت لا تعرفيننا. ولا ينبغي أن نتكلّم إلى الغرباء في شأننا الخاصّ، إذا سمحتِ. هل تظنّين أنّه سيهطل علينا قليلٌ من المطر قريباً؟»

فضحكت السيِّدة أعذب ضحكةٍ رنّانةٍ مُنغّمةٍ يمكنك تصوُّرها. ثمّ قالت: «حسناً، يا صغيران. إنّ معكما مُرشِداً عتيقاً حكيماً وقوراً. لا أستاء منه لاحتفاظه بِخُططِه الخاصّة، ولكنّني حُرّة بتقديم مشورتي. فغالباً ما سمعتُ اسم «مدينة الخراب» الخاصّة بالمردة، ولكنّني لم ألتقِ قطّ من دلّني على الطريق المؤدّية إليها. هذه الطريق تؤدّي إلى أرضِ صِلابُناب وقصرها، حيث يُقيم المَرَدة اللُّطفاء. وهُم غيرُ حاذّين ومُتمدّنون وعُقَلاء ومُجامِلون، بمقدارِ ما مَرَدةُ سَبخة أتنَـر أغبياءُ وعُنَفاء ومتوحّشون ومُمعِنون في الضراوة

والشراسة. وفي صِلابُناب قد تسمعون — أو لا تسمعون — أخباراً عن مدينة الخراب، ولكنّكم حتماً ستجدون أماكنَ إقامةٍ جيّدةً ومُضيفين مُرحّبين بانشراح. فيكون من الحكمة أن تقضوا الشتاء هناك، أو على الأقلّ أن تنـزلوا هناك بضعةَ أيّام طلباً للراحة والانتعاش. إذ تجدون هناك حمّامات مُبخّرة، وأسرّةً ناعمة، ومواقد متأجّجة؛ كما تُمَدُّ أربعَ مرّات في النهار سُفرةٌ عليها ما لذّ وطاب من مَشويٍّ ومطبوخ ومخبوز ومُحلّى ومُغَذٍّ ومُنعِش».

فهتف صَغرون: «يا لَلرَّوعة! هذا شيءٌ يُطلَب ويُرغَب! فكِّرا في نوم السرير من جديد».

وأضافت جِلّ: «نعم، وفي الاستحمام بماء ساخن. هل تظنّين أنّهم سيطلبون منّا النـزول ضيوفاً عندهم؟ إنّنا لا نعرفهم كما تَرَين».

فأجابت المرأة: «قولوا لهم فقط إنّ ذات الفُستان الأخضر تُسلّم عليهم، وإنّها قد بعثت إليهم بولَدَين جنوبيَّين وسيمَين لأجل وليمة عيد الخريف».

وقال صغرون وجِلّ: «أوه، شُكراً لكِ، شكراً جزيلاً لكِ!»

ثمّ أضافتِ المرأة: «إنّما انتبهوا. أيّ يومٍ وصلتُم إلى صِلابُناب، فلا تقرعوا الباب مُتأخّرين. فإنّهم يُغلِقون أبوابهم بعد الظهر ببضع ساعات. ومن عادة أهل القصر ألّا يفتحوا لأحدٍ بعد أن يُوصِدوا البوّابة بالمزلاج، مهما قرع قرعاً شديداً».

فشكرها الولدان ثانيةً وقد أشرقت أعيُنهما، ثُمَّ لوَّحت لهم مودِّعةً. ونزع ساكنُ المستنقعات قُبَّعته ذات البُرج، وانحنى بكلِّ جمود. ثمَّ انطلق الفارس الصامت والسيِّدة الباهرة بحصانَيهما صاعِدَين مُنحَدر الجسر بوقعِ حوافِرَ عالي القعقعة.

وقال بِركَهمُوم: «حسناً! أنا مستعدٌّ لبذل الكثير كيَ أعرف من أين هي آتية وإلى أين هي ذاهبة. فهي ليست من النوعِ الذي يُتوقَّع لقاؤه في براري أرض المَرَدة، أهي منها؟ أنا متأكِّدٌ أنَّها لا تنوي خيرًا».

فقال صغرون: «آه، كلامٌ فارغ! أنا أعتقد أنَّها فائقة تماماً. ثمَّ فكِّرا في الطعام الحار والغرف الدافئة. أتمنَّى فعلاً ألَّا تكون صِلابُناب بعيدةً من هنا كثيراً».

وقالت جِلّ: «وأنا أيضاً! ثُمَّ ألَم يكن ثوبُها رائعاً؟ وحِصانُها أيضاً؟»

فقلا بِركَهمُوم: «ومع ذلك، فقد كنتُ أتمنَّى لو نعرف قليلاً عنها بَعد».

فقالت جِلّ: «كِدتُ أسألُها عن كلِّ ما يتعلَّق بها. ولكنْ كيف كان ممكناً أن أفعل ذلك وأنتَ لم تُرِد إخبارها بأيِّ شيء ممّا يتعلَّق بنا؟»

وقال صغرون: «نعم، ولماذا كنتَ جامداً ومنقبضاً جداً؟ ألم يُعجِباك؟»

«مَن هُما؟ عن أيِّ اثنَين تتحدَّث؟ أنا رأيتُ واحداً فقط».

فسألت جِلّ: «ألَم ترَ الفارس؟»

فقال بِركَهمُوم: «لقد رأيت طقم دروع! لماذا لم يتكلَّم؟»

أجابت جلّ: «لعلَّه كان خَجِلاً. أو ربَّما كان يكفيه أن ينظر إليها ويُصغي إلى صوتها العذب. فهذا ما أفعله أنا حتماً لو كنتُ في مكانه».

فعلَّق بِركَهمُوم: «كنتُ أتساءل عمَّا كان ممكناً أن نراه لو رفعنا غطاء الوجه من تلك الخُوذة ونظرنا إلى الداخل».

وقال صَغرون: «كفى! فكِّر في شكل طقم الدروع. ماذا يُمكِن أن يوجد داخله غير رجُل؟»

فسأل السَبّاخ بحماسةٍ مُروِّعة: «ما قولُك في هيكلٍ عظميّ؟» وبعد قليلٍ من التفكير، أضاف: «لا شيء على الإطلاق. أعني: لا شيء يمكنكما أن تَرَياه. أي شخصٌ غير مَرئيّ».

وقالت جِلّ بارتعاد: «في الواقع، يا بِركَهمُوم، أنَّ لديك أكثر الأفكار رعباً. فكيف تُفكِّر فيها كلِّها؟»

أمّا صغرون فقال: «آه، أُفٍّ من أفكاره! إنَّه دائماً يتوقَّع الأسوأ، وهو دائماً على خطأ. فلنُفكِّرْ في أولئك المَرَدة اللُّطَفاء، ونتقدَّم إلى صِلابُناب بأسرع ما يمكننا. أتمنَّى لو أعرِف كم تبعد عنّا!»

وعندئذٍ حصلت تقريباً أوَّل جولة تامَّة من النزاعات التي تنبَّأ بها بِركَهمُوم. ولا يعني هذا أنَّ جِلّ وصغرون

لم يكن لهما من المُناوشة والمُشاجرة مقدارٌ لا بأس به، بل أنّ هذا كان أوّل خلاف جِدّيّ فعلاً. فإنّ بركَهمُوم لم يُرِد أن يذهبوا قطّ إلى صِلابُناب. وقال إنّه لا يدري ما قد تعنيه حقّاً فكرة كَون المارد «لطيفاً»، وإنّ علامات أصلان — على كلّ حال — لم تذكر شيئاً عن النزول عند مَرَدة، لُطفاء كانوا أم عُنَفاء.

غير أنّ الوَلَدين، وقد سئما الريحَ والمطر، والطيورَ الهزيلة المشويّة على نار الحَطَب، والنومَ على الأرض الباردة الصُّلبة، كانا مُصمِّمَين بكلّ عزم على زيارة المَرَدة اللُّطَفاء. وفي الأخير، قبل بركَهمُوم أن يُرافِقهما إلى هناك، إنّما بشرطٍ واحدٍ فقط: أن يَعِداه وعداً قاطعاً بألّا يقولا للمَرَدة اللُّطَفاء إنّهم جاؤوا من نارنيا، وإنّهم يبحثون عن الأمير ريليان، إلّا إذا أذِن هُوَ لهما بذلك. فقطعا له وعداً مؤكّداً بهذا، وتابعوا سيرهم.

بعد الحديث مع تلك السيّدة، ساءت الأمور بطريقتين مختلفتين. ففي المقام الأوّل، ازدادت وُعورة الأرض كثيراً جدّاً. إذ أفضت بهم الطريق إلى أودية ضيّقة لا نهاية لها، هبّت في أسافلها دائماً ريحٌ شماليّة شديدة لفحت وجوههم. ولم يجدوا أيّ شيء يُمكِن استخدامُه كحَطَب لإشعال النار، ولا أيّة ثغرات صغيرة ملائمة للتخييم والمبيت كتلك التي وجدوها في السَّبخة. وكانت الأرض كلُّها صخرية ومُحجِرة تُقرّح قدمَيك نهاراً وتُؤلم كلّ جزء من جسمك ليلاً.

وفي المقام الثاني، مهما كان قصد السيّدة من إخبارِهم عن صِلابُناب، فقد كان التأثير الفعليّ لذلك في الوَلَدَين سيّئاً. إذ لم يقدرا أن يُفكّرا في شيء ما عدا السرير والحمّام والوجبات الساخنة ومدى لذّة المبيت داخل أبوابٍ مُقفَلة. فإنّهما الآن لم يعودا يتحدّثان عن أصلان، ولا حتّى عن الأمير المفقود. وتخلّت جِلّ عن عادة تكرار العلامات لنفسها كلّ مساء وكلّ صباح. وقد قالت لنفسها في البداية إنّها مُتعَبةٌ جدّاً، ولكنّها سرعان ما نَسِيَت كلّ ما يتعلّق بالعلامات الأربع. ومع أنّه قد يُخيَّل إليك أنّ فكرة قضاء وقتٍ مُمتع في صِلابُناب من شأنها أن تجعل الوَلَدَين أكثر ابتهاجاً، فقد جعلَتهما في الواقع أكثر تأسّفاً على حالهما وأكثر تشكّياً وتهجّماً أحدهما على الآخر وعلى بركَهموم.

أخيراً وصلوا في عصر أحد الأيّام إلى مكانٍ اتّسع فيه الممرُّ الضيّق الذي كانوا يسيرون فيه، وانتشرت غابات شربين* إلى كِلا جانبَيه. وتطلّعوا قُدّامهم فرأوا أنّهم قد خرجوا من بين الجبال. وقد امتدّ أمامهم سهلٌ صخريٌّ قاحِل، ووراءه بعيداً مزيدٌ من الجبال مُكلّلة بالثلوج. ولكنْ كان بينهم وبين تلك الجبال البعيدة هضبة منخفضة أعلاها مُسطّحٌ قليلاً وغير مُتناسِق.

ثمّ أشارت جِلّ بيدها عبرَ السَّهل قائلةً: «انظرا!» وهناك، من خلال أضواء الغروب المُتوارِية، ومِمّا وراء

* الشربين: نوع من الأشجار الصنوبرية دائمة الخضرة.

الهضبة المسطَّحة، رأى الجميع أنواراً... أنواراً حقيقيَّة! لا أضواءً صادرة عن القمر، أو النيران، بل صفُّ أنوارٍ بيتيّاً مُبهجاً مُنبعِثاً من نوافذ. وإن لم تكُن قد قضيتَ في البراري الوعرة عدَّة أسابيع، نهاراً وليلاً، يصعب عليك تقريباً أن تعِيَ حقيقة شعورهم.

عندئذٍ صاح صغرون وجِلّ بصوتَين مُبتهِجين مُنفعِلَين: «صِلابُناب!» وكرَّرَ بِركَهموم بصوتٍ بليد كئيب: «صِلابُناب». ولكنّه أضاف: «انتباهاً! وَزٌّ برّيّ!» وأنزل القوس عن كتفه في لحظةٍ واحدة. ثمَّ أصاب وزّة سمينة جيّدة. وكان الوقت قد فات كثيراً حتّى يُفكّروا في الوصول إلى صِلابُناب في ذلك اليوم. إلّا أنّهم أشعلوا ناراً وتناولوا عشاءً ساخناً، وسهروا سهرةً أكثر دفئاً من أيّة سهرة أُخرى قضَوها منذ ما يزيد عن أسبوع. وبعدما خمدت النار، صار برد الليل قارساً. ثمَّ لمّا استيقظوا في الصباح التالي، وجدوا بطّانيّاتهم متجمّدة من الصقيع. فقالت جِلّ وهي تضرب الأرض بقدمها:

«لا بأس! سنتمتّع بحمّامٍ ساخنٍ هذا المساء!»

الفصل السابع

هضبة الخنادق الغريبة

لا يُنكَر أنّ ذلك اليوم كان رديئاً جداً جداً. إذ كانت فوق الرؤوس سماءٌ بلا شمس، تلبّدت فيها غيومٌ مُثقَلة بالثلج، وتحت الأقدام صقيعٌ أسود، فيما تهبُّ رياحٌ تشعر كما لو كانت ستسلخ جلدك. وعندما نزلوا إلى السهل، تبيَّن لهم أنّ هذا الجزء من الطريق القديمة كان أكثر خراباً من أيّ جزءٍ آخر سبق أن رأوه. فقدِ اضطُرّوا إلى شقّ طريقهم فوق حجارة كبيرة مُكسَّرة وبين جلاميدَ عبر حجارةٍ ودبش، في سَيرٍ يُنهك الأقدام المتقرّحة. ورُغم إرهاقهم الشديد، كان الجوُّ أبرد بكثيرٍ من أن يسمح لهم بالتوقُّف والاستراحة.

ونحو الساعة العاشرة نزلت أوّل رقائق ثلج خفيفة مُدَوِّمةً لتستقرّ على ذراع جِلّ. ثمَّ بعد عشر دقائق أخذ الثلج يتساقط بكثافةٍ ملموسة. وفي ظرف عشر دقائق صارت الأرض بيضاء بشكلٍ ملحوظ. ثمَّ لم يمضِ نصف ساعة حتّى كانت عاصفة ثلجيّة ثابتة إلى حدٍّ بعيد، بدت كأنّها تنوي الاستمرار طول اليوم، تهبُّ على وجوههم بحيث كاد يتعذّر عليهم أن يُبصِروا.

ولكي تستوعب ما تلى ذلك، عليك أن تظلَّ مُتذكّراً كم كانت قدرتُهم على الرؤية ضئيلةً جدّاً. فإذِ اقتربوا من الهضبة المنخفضة التي لاحت منها النوافذ المُضاءة، لم يستطيعوا أن يحيطوا بكلّ ذلك المنظر إحاطةً كاملة. فقدِ اهتمُّوا بأن يروا جيِّداً على بُعد بضع خطواتٍ قُدّامهم. وللقيام بذلك وحدَه، كان عليك أن تُغمِض عينيك نِصفَ إغماض. ولا داعيَ للقول إنَّهم لم يكونوا يتكلّمون.

ولمّا وصلوا إلى أسفل الهضبة، لمحوا ما قد يكون صخوراً إلى كِلا الجانبين، صخوراً مُربّعة بعضَ الشيء إذا نظرتَ إليها بتدقيق، ولكنّ أيّاً منهم لم يُدقّقِ النظر. إذ كان الجميع أكثر اهتماماً بالإفريز* الذي كان قُدّامهم تماماً واعترض سبيلهم، وكان علوّه نحو مترٍ واحدٍ. ولم يلقَ ساكنُ المستنقعاتِ الطويلُ الرِّجلين صعوبةً في القفز



* الأفريز: ما برز خارج سور أو حائط.

إلى أعلاه، ثُمَّ ساعد الولدين على تسلُّقه. وقد كان ذلك عملاً مُزعِجاً لهما، إذ أصابهما بكثيرٍ من البَلَل، فيما لم يهمّه هو شيء من ذلك، لأنّ الثلج آنذاك كان كثير العمق على الإفريز. وبعد ذلك تسلّقوا تسلُّقاً صعباً، وقعت جِلّ في أثنائه مرّة، صاعدِينَ أرضاً وَعِرة طولُها حوالي مئة متر، فوصلوا إلى إفريزٍ ثانٍ. وقد كان هنالك أربعةٌ من تلك الأفاريز معاً، يبعد أحدها عن الآخر أبعاداً غير متساوية.

وإذ صعدوا إلى الإفريز الرابع بكثيرٍ من الجهد، تأكّدت لهم تماماً حقيقةُ كونهم قد بلغوا أعلى الهضبة المسطّحة. فبعدما وفّر لهم المُنحَدر بعض الوقاية، تعرّضوا هناك لشدّة الريح. ذلك أنّ الهضبة، رغم غرابة الأمر، كانت في أعلاها مُسطّحةً تماماً كما سبق أن ظهرت من بعيد: سهلاً مرتفعاً منبسطاً واسعاً تهبُّ فيه العاصفة بغير أن يُقاوِمها شيء. وكاد الثلج في مُعظم الأماكن يظلّ ثائراً لا يستقرُّ على الأرض، إذ ظلّت الريح تُذرّيه في ألواحٍ وسُحُب، وتدفعه على وجوههم. وحوالَي أقدامهم أخذت دوّامات صغيرة من الثلج تجري كما تراها أحياناً جاريةً على الجليد. بل إنّ سطح الثلج كان في أماكن كثيرة أملسَ كالجليد تقريباً. وممّا زاد الحال سوءاً أنّ أكواماً أو سدوداً غريبة انتشرت فيه بشكل متقاطع ومُتصالِب، فقسّمَته أحياناً إلى مُربّعات أو مُستطيلات. وقد كانوا مُضطرّين طبعاً إلى عُبور هذه كلّها تسلُّقاً، وكانت تُراوِح بين نصف مترٍ ومترٍ وربع ارتفاعاً، وتبلغ أقلّ من مترين بقليلٍ عرضاً. وعلى الجانب الشماليّ من

كلَّ سدٍّ، كان الثلج قد تجمَّع في أكوامٍ سميكة، فكان عليكَ بعد كلِّ تسلُّقٍ أن تغوص في كومة ثلجٍ وتتبلَّل من جديد.

وبينما كانت جِلّ تشقُّ طريقها عنوةً، وهي رافعةً غطاءَ الرأس الموصول بعباءتها وخافضةً رأسها وواضعةً يديها الخَدِرتَين داخل العباءة، لمحت أشياء أُخرى غريبة على تلك الهضبة المروِّعة: أشياءَ إلى يمينها بَدَت كمداخن المصانع تقريباً، وإلى يسارها جُرفاً صخريّاً ضخماً أكثر شموخاً مّما يكون أيُّ جُرف. غير أنَّ ذلك لم يلفت انتباهها قطّ، ولم تُلقِ إليه بالاً. فالأُمور الوحيدة التي شغلت بالَها كانت يدَيها الباردتين (وأنفها وذقنها وأُذنيها الباردة) والحمّامات الساخنة والأسرَّة المُريحة في صِلابُناب.

وفجأةً زلَّت وتدحرجت مسافةَ مترٍ ونصفٍ تقريباً. فذُعِرت إذ وجدت نفسها مُنزلِقةً داخلَ شقٍّ ضيِّق بدا أنَّه ظهر أمامها في تلك اللحظة. وفي ظَرفِ نصفِ ثانية بلغتِ القعر. فبدا لها أنَّها في ما يُشبه خندقاً أو حفرةً مُستطيلة، لا يزيد عرضُها عن مترٍ واحد. ورغم أنَّ السقطة خضَّت كيانها، فإنَّ أوَّل شيء لاحظته تقريباً كان شعورها بالراحة لبُعدِها عن مهبِّ الريح، إذ كانت حيطان الخندق ترتفع عالياً فوقها. وكان ثاني شيءٍ لاحظته، بطبيعة الحال، وجهَي صَغرون وبِركَهمُوم القلقين وهُما ينظران إليها من على الحافَة.

ثمَّ صاح صَغرون: «هل تأذَّيتِ، يا پول؟»

فصرخ بِركهموم: «كِلتا رجليها انكسرتا، ولن أعجب».

ولكنَّ جِلّ وقفت وأوضحت أنَّها بخير، إلّا أنَّها تحتاج إلى مساعدتهما للخروج.

وسألها صغرون: «ما هو الذي سقطْتِ فيه؟»

فقالت: «إنَّه شِبه خندق، أو قد يكون زقاقاً غائراً، أو شيئاً من هذا النوع. فهو يجري مستقيماً تماماً».

وقال صغرون: «نعم، وحقِّ السماء! وهو يجري نحو الشمال على خطٍّ مستقيم. تُرى، أهو طريقٌ من نوعٍ ما؟ وإن كان كذلك ففي وسعنا أن نكون في قعره بمأمنٍ من هذه الريح الكريهة. أفي القعر ثلجٌ كثير؟»

«لا يكاد يُوجَد أيُّ ثلج. فأظنُّ أنَّ الثلج كلَّه تسوقه الريح فوق الحافات العُليا».

«ماذا تجدين إذا تقدَّمتِ؟»

فقالت جِلّ: «نصفَ ثانية! سأذهب وأرى». ثُمَّ نهضت ومشت في الخندق. ولكنْ قبل أن تقطع مسافة طويلة، انعطف الخندق بحدَّة نحو اليمين. فنقلت الخبر إلى الآخرَين بصوتٍ عالٍ.

وسألها صغرون: «ماذا تجدين وراء الزاوية؟»

وصدف آنذاك أنَّ شعور جِلّ تجاه الممَرات المتعرِّجة والأماكن المظلمة تحت الأرض — أو حتَّى تحت الأرض تقريباً — كان مثلَ شعور صغرون تجاه حافات الجُروف. فلم تكن تنوي أن تنعطف حول تلك الزاوية وحدها، خصوصاً لَمّا سمعت بِركَهمُوم يزعق من ورائها: «خُذي حِذرَك، يا پول. فهذا تماماً يُشبِه الأمكنة التي قد تؤدِّي إلى

كهفِ تِنّين. وفي بلاد المَرَدة قد يُوجد دُودُ أرض عملاق أو خنافس عملاقة!»

عندئذٍ قالت جِلّ وهي تتراجع بسرعة: «لا أظنّ أنّه يجري إلى مسافة بعيدة جدّاً في أيّ اتّجاه».

فقال صغرون: «يحسن بي تماماً أن أُلقيَ نظرة. فأنا أودّ أن أعرف ما تقصدينه بقولك مسافة بعيدة جدّاً». وهكذا قعد على حافة الخندق، وتدلّى إلى القعر (وكان الجميع الآن قد تبلّلوا كثيراً بحيث لم يُقلِقهم مزيدٌ من البَلَل). ثمّ دفع جِلّ جانباً وتقدّم أمامها. ومع أنّه لم يقُل شيئاً، فقد تأكّدت من أنّه تنبّه إلى ذُعرها. وهكذا تبعته عن قُرب، مُحاذِرةً أن تتقدّم عليه.

غير أنّ الاستكشاف كان مُخيّباً للآمال. فقد دارا حول المُنعطَف الأيمن، وسارا بضع خطوات مُباشرةً، حتّى وصلا إلى خيار طُرق، فكان عليهما إمّا التقدّم إلى الأمام وإمّا الانعطاف نحو اليمين. وإذ ألقى صغرون نظرةً على المنعطف الأيمن، قال: «هذا لا ينفع، فهو يُعيدنا إلى حيث كُنّا، جنوباً». ثمّ مضى إلى الأمام، ولكنْ بعد بضع خطواتٍ أيضاً وجدا مُنعطفاً ثانياً نحو اليمين. إنّما هذه المرّة لم يكُن خِيارٌ أمامهما، لأنّ الخندق الذي كانا يسيران فيه وصل إلى طريق مسدود. فقال صغرون ناخراً: «لا نفع في هذا!»

ولم تتوانَ جِلّ عن الدوران والتقدّم في طريق العودة. ولمّا رجعا إلى المكان الذي فيه سقطت جِلّ أوّل الأمر،

لم يَلقَ ساكن المستنقعات الطويلُ اليدين صعوبةً في انتشالهما.

ولكنّ الخروج إلى الأعلى من جديد كان مُروّعاً. ففي شقوق تلك الخنادق الضيّقة تحت، كاد الدم يعود إلى آذانهما المتجمّدة. واستطاعا أن يريا بوضوح ويتنفّسا بسهولة، ويسمعا بعضُهما بعضاً وهما يتكلّمان بلا صُراخ. فكان بؤساً كاملاً أن يعودا إلى الصقيع القارس. وبدا الأمر صعباً بالفعل لمّا اختار برِكَهمُوم تلك اللحظة ليقول:

«أما زلتِ متأكّدة بشأن تلك العلامات يا پول؟ أيّة علامة ينبغي أن نكون بصدَدِها الآن؟»

فقالت پول: «آه، مهلاً! أُفٍّ من تلك العلامات! أظنّ أنّها الآن يجب أن تكون شيئاً ما عن شخصٍ ما يذكر اسم أصلان. ولكنّني لستُ مستعدّةً الآن لترديد العلامات كاملةً!»

وكما ترى، فقد أخطأت ترتيب العلامات. وسببُ ذلك أنّها تخلّت عن تكرار العلامات الأربع كلّ مساء. وقد كانت ما تزال تعرف العلامات حقاً، لو كلّفت نفسها شيئاً من التفكير. غير أنّها لم تعُد تستظهر درسها جيّداً بحيث تتلوها في سهولةٍ بالترتيب الصحيح حالما تُسأل عنها، بغير تفكيرٍ كثير. وقد أزعجها سؤال برِكَهمُوم لأنّها في قرارةِ نفسها، كانت قد انزعجت أصلاً لعدم معرفتها درست الأسد جيّداً مثلما شعرت أنّ عليها أن تعرفها. فهذا الانزعاج المضاعَف، فضلاً عن شقاءِ كونها

تشعر بالبرْد ومُرهقةً جداً، جعلها تقول: «أُفٍّ من تلك العلامات!» ولعلّها لم تقصد تماماً ما قالته.

وقال بِركَهمُوم: «أوه، تلك كانت العلامة الثانية. أليس كذلك؟ فالآن أتساءل: أأنتِ على حقّ؟ لقد خلطْتِ العلامات، ولَن أعجَب! إنّما يبدو لي أنّ هذه التلّة، هذه الأرض المنبسطة المرتفعة التي نحن عليها، تستحقُّ أن نتمهّل لإلقاء نظرة عليها. هل لاحظتما..».

ولكنّ صغرون قال: «يا لَلعجب! أهذا هو الوقت المؤاتي للتمهُّل والتأمُّل في المنظر المُعجِب؟ بحقّ السماء، لنُتابع سيرنا».

وما لبثت جلّ أن قالت وهي تُشير بيدها: «أُوه، انظُرا، انظُرا، انظُرا!» ونظرا كلاهما، فرأيا ما رأته هي. فعلى مسافةٍ ما إلى جهة الشمال، وعلى مستوى أعلى تماماً من الهضبة التي كانوا واقفين عليها، ظهر صفٌّ من الأنوار. وهذه المرّة، تبيّن، على نحوٍ أوضح ممّا كان لمّا رأوها في الليلة السابقة، أنّها نوافذ: نوافذ صُغرى تجعل المرء يُفكّر تفكيراً لذيذاً في غرف النوم، ونوافذ كبرى تجعله يفكّر بالقاعات الكبرى حيث تهدر النار في الموقد، ويتصاعد البُخار من الحساء الساخن والدُخانُ من اللحم المُحمرّ ذي المَرَق الشهيّ.

وهتف صَغرون: «صِلابُناب!»

فقال بِركَهمُوم: «هذا كلّه حسن جداً. ولكنّ ما كنتُ أقوله هو..».

فقالت جلّ بحِدَّة: «آه، سكوتاً! لا يمكننا تضييع لحظة واحدة. ألا تذكر ما قالته السيِّدة عن إقفالهم الأبواب باكراً جدّاً؟ يجب علينا أن نصل إلى هناك في الوقت المناسب، يجب علينا ذلك، يجبُ فعلاً. فإنّنا سوف نموت إن أُقفِلت في وجوهنا الأبواب في ليلٍ مثل هذا».

وبدأ بِركَهمُوم يقول: «حسناً، لم يبدأ اللّيل بعدُ..».

ولكنّ الولدين كِلَيهما قالا: «هيّا بنا!» وأخذا يمشيان باضطراب على الهضبة الزَّلِقة مُتقدّمَين بأسرع ما تستطيع أرجلُهما أن تحملهما. فلحق بهما ساكن المُستنقعات وهو ما يزال يتكلّم، ولكنْ لأنّهم عادوا يشقُّون طريقهم وسط الريح لم يكونا يستطيعان سماعَه حتّى لو أرادا. وهُما لم يريدا ذلك. فقد كانا يفكّران في الحمّامات والأسرَّة والأشربة الساخنة، كما كانت فكرةُ وصولهم إلى صِلابُناب بعد فوات الأوان بحيث يبقون خارجاً فكرةً لا تكاد تُطاق.

وعلى الرغم من عَجَلتهم، فقد استغرق عبور أعلى تلك التلّة المُسطَّحة وقتاً طويلاً. وبعدما عبروه أيضاً كانت ما تزال على الجانب البعيد عدّةُ أفاريز ينبغي النزول عليها بحذر شديد. إلّا أنّهم أخيراً وصلوا إلى الأسفل واستطاعوا أن يروا هيئة صِلابُناب.

كان ذلك المبنى قائماً على جُرفٍ صخريٍّ شديد الانحدار. وعلى الرغم من أبراجه الكثيرة، كان أشبه ببيتٍ هائل منه بقصرٍ محُصّن. فقد بدا واضحاً أنّ المَردة



اللُّطفاء لم يكونوا يخشون أن يُهاجِمَهم أحد. إذ كان في السور الخارجيّ شبابيك قريبة جدّاً من الأرض، وهو أمرٌ لا يعمله أحد في قلعةٍ فعليّة. بل كانت أيضاً في أماكن متفرّقة أبوابٌ صغيرة غريبة، بحيث يكون من السهل تماماً أن يدخل المرء إلى القصر ويخرج منه دون المرور بساحة الدار. وقد جعل ذلك جِلّ وصغرون يشعران بالسرور والابتهاج، إذ جعل المكان كلّه يبدو أكثر أُلفةً وأقلّ تنفيراً.

أوّلَ الأمر روّعهم علوُّ الجُرف الصخريّ وشدّةُ انحداره، ثمّ ما لبثوا أن لاحظوا وجود طريقٍ للصعود أسهلَ إلى اليسار يؤدّي إلى القصر بعد عدّة تعرّجات. ولكنّ الصعود كان شاقّاً، بعد الرّحلة الطويلة التي سبق أن أجهدتهم، حتّى كادت جِلّ تستسلم. واضطرّ صَغرون

و بِركهمُوم إلى مساعدتها على اجتياز آخِر مئة متر. إلّا أنّهم في نهاية المطاف وقفوا أمام بوّابة القصر. وكانت شَعريّة التحصين* مرفوعة، والبوّابة مفتوحة.

مهما كُنتَ مُتعَباً، فإنّ عبورَ مدخلِ مارد يستلزم بعض الجُرأة. وقد كان بِركَهمُوم هو الذي أبدى أكبر قدرٍ من الشجاعة، على الرغم من جميع تحذيراته السابقة من صِلابُناب. إذ قال:

«امشيا بخطىً ثابتة الآن، ولا يَبدُ عليكما الخوف، مهما فعلتُما. لقد فعلنا أسوأ شيء على الإطلاق بمجيئنا إلى هنا. ولكنْ إذ وصلنا إلى هنا فعلاً، يحسن بنا أن نُظهِر سيماء الجرأة على وجوهنا».

وما إن قال هذه الكلمات، حتّى تقدم إلى المدخل بخُطىً واسعة، ووقف بلا حراك تحت القنطرة، حيث يمكن أن يُساعِد الصدى صوته، ونادى بأعلى ما يستطيع:

«هُوه! يا بَوّاب! ضيوفٌ يطلبون المبيت».

وبينما هو ينتظر حدوث شيء، نزع قُبّعته ونفَّض عنها كتلة الثلج الثقيلة التي تجمّعت على حافتها الواسعة.

وهمس صغرون في أذن جِلّ: «حقّاً إنّه قد يكون متشائماً ومُنغّصاً لِلعَيش، ولكنّ لديه كثيراً من الشجاعة، بلِ الوقاحة».

* شعرية التحصين: شبكة من القضبان المعدنية تكون على مدخل بوابة أو نافذة.

ثمَّ انفتح باب، فانبعث وهجُ نارٍ لذيذ وظهر البوّاب. وعضّت جِلّ شفتَيها لئلّا تصرخ. فلم يكُن ذلك مارداً هائلاً تماماً. أعني أنّه كان أطول بقليل من شجرة تُفّاح، ولم يكن قطّ بطول عمود التلغراف. وكان ذا شعر أحمر خشن، وسترةٍ جلديّة بلا كُمَّين مغطّاة بصفائح معدنيّة تُشكّل نوعاً من قميص الزَرَد، ورُكبتَين عاريتَين (كثيفتَي الشعر جدّاً)، وساقَين مُغطّاتين بما يُشبه لِفافَين من جِلد. وقدِ انحنى وحدّق إلى برِكَهمُوم قائلاً:

«وأيُّ نوعٍ من المخلوقات تُسَمّي نفسك؟»

فاستجمعت جِلّ شجاعتها بكلّ ثبات، وقالت صارخةً إلى المارد: «رجاءً، إنّ السيّدة ذات الفُستان الأخضر تُسلّم على ملك المَرَدة اللُّطفاء، وقد أرسلتنا نحن الوَلَدين الجنوبيَّين وساكنَ المستنقعات هذا (واسمُه برِكَهمُوم) لأجل حضور وليمة عيد الخريف التي تُقيمونها. إن كان هذا يُناسِبكم تماماً بالطبع».

فقال البوّاب: «أوهُو! هذه قصّة مختلفة تماماً. ادخلوا، أيُّها الصغار، ادخلوا. خيرٌ لكم أن تدخلوا غرفة الضيوف ريثما أبعثُ بخبرٍ إلى جلالته». ثمّ نظر إلى الوَلَدَين بفُضولٍ وقال: «وجهان أزرقان! لم أكُن أعرف أنّ وجوه الآدميّين بهذا اللّون. وهذا الأمر لا يهمُّني شخصيّاً. إلّا أنّني أجرؤ على القول إنّكما تبدوان جميلَين أحدُكما في نظر الآخر. فالخنافس تُعجِبها الخنافس، كما يقولون».

وقالت جِلّ: «وَجهانا أزرقان فقط من جرّاء البرد. فنحن لسنا بهذا اللون أصلاً!»

فقال البوّاب: «إذاً ادخُلوا واستدفئوا. ادخلوا أيُّها الجَنادِبُ الصِّغار». وتبعوه إلى داخل الغرفة. ومع أنّهم كادوا يُصابون بالهَلَع عند سماعهم ذلك الباب الكبير جدّاً ينسفق وراءهم، فقد نَسُوا أمره حالما شاهدوا الشيء الذي طالما اشتاقوا إليه منذ وقت العشاء مساء أمس، ألا وهو النار. ويا لها من نار! إذا بدا كأنّ أربع أو خمس شجرات كاملة تتأجّج فيها، وكانت شديدة الحرارة بحيث اضطُرّوا إلى البقاء بعيدين عنها بضعة أمتار. غير أنّهم ارتمَوا جميعاً على الأرضيّة المرصوفة بالأُجُرّ على أقرب مسافة استطاعوا احتمال الحرارة عندها، وتنفّسوا الصُّعَداء مراراً.

ثمّ قال البوّاب لماردٍ آخر كان جالساً في مؤخّر الغرفة مُحدّقاً إلى الضيوف تحديقاً شديداً حتّى بدا كما لو أنّ عينيه ستخرجان من رأسه: «والآن، يا شابّ، اركض إلى الدار بهذا الخَبَر». وكرّر ما قالته جِلّ له. وبعدما ألقى الماردُ الشابُّ نظرة تحديقٍ أخيرة، وقهقه قهقهةً عالية، غادر الغُرفة.

وقال البوّاب لبرِكَهمُوم: «والآن، يا ضُفَيدع، تبدو كما لو كُنتَ بحاجة إلى شيءٍ من الابهاج». ثُمّ أخرج قِنّينة سوداء تُشبه قِنّينة برِكَهمُوم كثيراً ولكنّها أكبر منها بنحو عشرين ضعفاً، وقال: «لأُدبّرِ الأمر، لأُدبّرِ الأمر! لا يمكنني إعطاؤك كأساً وإلّا غرقتَ فيها. فلأُدبّرِ الأمر... هذه المملحة تَفي بالغرض تماماً. لا داعيَ لأن تذكر هذا في

الدار. فالأدوات الفضية سوف تظلّ تأتي إلى هنا، وليستِ الغلطةُ غلطتي».

لم تكن المملحة تُشبه ممالِحنا كثيراً، إذ كانت أضيق وأكثر استقامةً، فكانت لبِركَهموم كأساً جيّدة جدّاً عندما وضعها المارِد على الأرض بقربه.

وتوقّع الولدان من بِركَهموم أن يرفض الكأس، نظراً لعدم ثقته بالمَرَدة اللُّطفاء. إلّا أنّه تمتم: «لقد فات تقريباً أوان التفكير في الاحتياطات ما دُمنا الآن في الداخل والبابُ مُغلَقٌ وراءنا». ثمّ تشمّم الشرابَ وقال: «رائحته طيّبة! ولكنّ هذا لا يكفي. فالأفضل أن أُجرّب». ورشف رشفةً ثمّ قال: «والمذاق طيّب أيضاً. ولكنّه قد يكون هكذا عند أوّل رشفة. فكيف يكون بعدها؟» ثمّ رشف رشفةً أكبر وقال: «آهٍ! ولكنْ أيكون كلّه هكذا حتّى آخِر الكأس؟» ثُمّ رشف رشفةً أُخرى وقال: «سيكون في القعر شيء رديء، ولن أتعجّب». وأنهى الكأس كلَّها، ثم لحس شفتيه وقال للوَلَدين مُعلّقاً: «سيكون هذا اختباراً، كما تَرَيان. فإذا تقلّصتُ أو انفجرتُ أو صرتُ حرذوناً، أو شيئاً آخر، تعرِفان عندئذٍ أنّ عليكُما ألّا تأخذا أيَّ شيء يقدّمونه لكما».

ولكنّ المارد الذي كانت أُذناه أعلى كثيراً من أن تسمعا ما كان بِركَهموم يقوله همساً، قهقه ضاحكاً وقال: «عجباً، يا صُفَيدِع، أنتَ رجُل! هَه، هَه، انظرا كيف يُبعِد عنه الشراب!»

فأجاب بِركهموم: «لستُ رجُلاً... أنا ساكِنُ مستنقعات. ولستُ ضفدعاً أيضاً، بل سَبّاخ». وكان صوتُه غير واضحٍ بعضَ الشيء.

وفي تلك اللّحظة انفتح البابُ وراءهم ودخل الماردُ الأصغر قائلاً: «عليهم أن يذهبوا إلى قاعة العرش حالاً».

فوقف الولدان، ولكنّ بِركَهموم ظلّ قاعداً، وقال: «سبّاخ... ساكن مستنقعات. سبّاخ محترم جدّاً. سبّامُحترم!»

ثمّ قال المارد البوّاب: «دُلّهم على الطريق، يا شابّ. وأفضلُ أن تحمل الصُفيدِع. لقد شرب جرعة تفوق قدرته على الاحتمال».

فقال بِركَهُموم: «ما بيَ شيء. لستُ ضفدعاً. لا شيء من الضفدع عندي. أنا سبّاخُحْترَم!»

ولكنّ المارد الشابّ أمسك به من خصره وأشار إلى الولدين بأن يتبعاه. وبهذه الطريقة غير اللائقة عبروا ساحة الدار. وإذ كان بِركَهموم في قبضة المارد، وهو يرفس الهواء بفتور، بدا بالفعل شبيهاً بالضفدع جدّاً. إلّا أنّ وقت الوَلَدَين لم يتّسعْ كي يُلاحِظا ذلك، إذ سرعان

ما دخلوا المدخل الكبير المؤدّي إلى القصر الرئيسيّ، وقلباهما كِلَيهما يخفقان أكثر من المعتاد. وبعدما عبرا عدّة دهاليز وهما يُهَروِلان بسرعة لمواكبة خطوات المارد، وجدا أنفُسَهما يطرفان بأعيُنِهما في ضوء غرفة هائلة، حيث تألّقت مصابيح وهدرت نارٌ في الموقد، وقد انعكست أنوارُها جميعاً من زخارف السقف والأفاريز. وكان واقفاً إلى يسارهما ويمينهما مَرَدةٌ أكثر من أن يعدّاهما، لابسين كلُّهم أرواباً فاخرة؛ وعلى عرشَين في الطَّرَف البعيد يجلس شخصان هائلان بدا أنّهما المَلِك والمَلِكة.

وعلى بُعد نحو سبعة أمتار من العرشَين، توقّفوا. فحاول صغرون وجِلّ بارتباكٍ أن يؤدّيا انحناءةَ احترام (إذ إنّ الفتيات لا يُعلَّمن كيف ينحَنِينَ احتراماً في دار التجريب)، ووضعَ الماردُ الصغير بِركَهموم بحرصٍ على الأرض، حيث انهار إلى ما يُشبِه وضعَ جلوسٍ مُعيَّناً. والحقُّ يُقال إنّه بأطرافه الطويلة بدا شبيهاً بعنكبوتٍ كبير، على نحوٍ غير مألوف.

الفصل الثامن

بيتُ صِلابناب

همس صغرون: «هيّا يا جِلّ، قومي بالواجب!» وتبيَّنَ لجِلّ أنّ حلقها جافٌّ جدّاً بحيث لم تقدر أن تقول كلمةً واحدة. فأومأت لصغرون برأسها إيماءةً فَظّة.

وإذ نوى صغرون ألّا يُسامِحها البتّة (لا هي ولا بِركَهموم)، لحس شفتَيه وصرخ إلى المَلِك المارد.

«إذا سمحتَ، يا مولاي، تُسلِّم عليك السيِّدة ذات الفستان الأخضر، وقد قالت إنّك ترغب في أن نكون معَكُم في وليمة عيد الخريف».

فنظر المَلِك والملكة الماردان بعضهُما إلى بعض، وأومأ أحدهما للآخر برأسه، وابتسما بطريقة لم تُعجب جِلّ تماماً. وقد أعجبها الملك أكثر من الملكة. إذ كان ذا لحية مُجعَّدة حسنة وأنفٍ مستقيم كأنفِ النسر، كما كان حسن المنظر بالنسبة إلى المَرَدة. أمّا الملكة فقد كانت سمينة على نحوٍ هائل، وتحت ذقنها كتلة لحميَّة ضخمة، وذات وجه مُكتنِز مُغطًّى بالبودرة: وهذا شيء غير لائقٍ كثيراً في أحسن الأوقات، ولذلك يبدو أسوأ بكثير حين يكون الوجه كبيراً.

ثمّ مدَّ المَلِك لسانه ولحس شفتيه. وقد يفعل أيُّ شخص ذلك؛ غير أنَّ ذلك اللسان كان كبيراً وأحمر كثيراً جدّاً، وقد ظهر طويلاً بشكل غير مُتوقَّع، حتّى خلَّف لدى جِلّ صدمةً قويّة.

وقالت الملكة: «أوه، ما 'أطيب' هذين الولدين!» (ففكّرت جِلّ: «لعلّها هي الألطف رغم كلّ شيء».)

ثمّ قال الملك: «نعم، حقّاً. ولدان ممتازان تماماً. أهلاً بكما في بلاطنا. هاتا يدَيكما».

ومدَّ يده اليُمنى الكبيرة نظيفةً جدّاً، وفي أصابعها كثير من الخواتم، ولكنّها ذات أظفار مسنونة رهيبة أيضاً. وقد كان أكبر بكثير من أن يسلّم على الولدين باليد، حيث مدّا يديهما إليه على التوالي، إلّا أنّه صافحهما بذارعيهما. ثمّ سأل مُشيراً إلى بِركَهمُوم: «وما ذاك؟»

فقال بِركهموم: «شَبَاخُختِرم!»

وزعقت الملكة، جامعةً حواشيَ تنوُّرتها حول كاحليها: «أُوه! يا لَلمخلوق البَشِع! إنّه حيّ».

فقال صغرون بعَجَلة: «إنّه حَسَنٌ تماماً، يا جلالة الملكة، حسنٌ تماماً بالفعل. وستحبِّينه أكثر بكثير عندما تتعرَّفين به جيّداً. أنا واثق أنّكِ ستُحِبِّينه».

أرجو ألّا تفقد كلَّ اهتمامٍ بجِلّ، في ما تبقّى من هذا الكتاب، إذا قلتُ لكَ إنّها في تلك اللحظة بدأت تبكي. فإنّها معذورة إلى حدٍّ بعيد. إذ إنَّ الدفء كان قد بدأ



يتسرَّب إلى قدمَيها ويديَها وأُذنيها وأنفها منذ لحظاتٍ فقط، وكان الثلج الذائب يتقطَّر من ثيابها، ولم تكن قد أكلت أو شربت أيَّ شيءٍ تقريباً ذلك النهار، وقد آلمَتها رِجلاها كثيراً حتَّى شعرت بعدم قدرتها على الاستمرار في الوقوف مُدَّةً أطولَ بَعد. وعلى كلِّ حال، فقد نفعها بكاؤها في تلك اللحظة أكثر مِمّا كان ممكناً أن ينفعها أيُّ شيءٍ آخر، إذ قالت الملكة:

«آه، يا لَلفتاة المسكينة! سيِّدي، إنَّنا نُخطئ بإبقاء ضيوفنا واقفين. لِيُسرِعْ بعضٌ منكم! خُذوهم من هنا. وقدِّموا لهم طعاماً وشراباً وحمّامات. أريحوا البنت الصغيرة. أعطوها عِيدانَ كراميل، أعطوها دُمىً، أعطوها أدوية، أعطوها كلَّ ما يمكنكم أن تُفكِّروا فيه: شراباً، وفاكهةً مُجفَّفة مُحلاّة، وسَحلباً، وهَدْهدةً وتهويداً ولُعَباً. لا تبكي، أيتُّها البنت الصغيرة، وإلّا فلن تكوني نافعةً لشيءٍ عندما يأتي وقت وليمة العيد».

وقدِ اغتاظت جِلّ — تماماً كما قد نغتاظ أنا وأنت — عند ذِكر الدُّمى واللُّعَب. ومع أنَّ حلوى الكراميل والفاكهة المُجفَّفة المُحلاّة قد تكون لذيذة في ذاتها، فقد تمنَّت كثيراً لو يُقدَّم لها شيءٌ أكثر صلابةً. غير أنَّ كلام المَلِكة المُضحِك أحدث نتائج عجيبة. فإنَّ اثنين من خُدّام البَلاط الضِّخام التقطا بِركَهموم وصغرون في الحال، والتقطت إحدى وصيفات الشَّرَف جِلّ، وحملوهم إلى غُرَفهم.

كانت غرفة جِلّ بحجم كنيسةٍ تقريباً، وكان ممكناً أن تكون موحشةً تماماً لَولا وجودُ نارٍ هادرة في الموقد، وسَجادة قرمزيّة ثخينة جدّاً على الأرض. وهُنا بدأت تحدث لها أُمورٌ مُبهِجة. فقد سُلِّمت إلى مُربِّية المَلِكة سابقاً. وكانت هذه، من وجهة نظر المَرَدة، امرأةً مُسِنَّةً ضئيلة حنى العُمر ظهرَها حتّى كاد رأسُها يُوازي رُكبتَيها. أما من وجهة نظر البشر، فقد كانت ماردةً صغيرة بحيث يمكنها أن تجول في غرفةٍ عاديَّة بغير أن تلطم رأسها بالسقف. وكانت ماهرةً جدّاً، مع أنَّ جِلّ تمنَّت حقّاً لو أنّها تكفُّ قليلاً عن الطقطقة بلسانها قائلةً أقوالاً مثل: «أو—لا—لا! أزهِري يا مرغريتة»، أو «يا بطَّة، يا قشطة!» أو «والآن سنكون بخير يا حبيبة قلبي».

وقد ملأت المربِّية حوض استحمام عملاقاً بالمياه الساخنة، وساعدت جِلّ على النزول إليه. وإذا كنت تُجيد السباحة (مثل جِلّ)، فإنَّ حمّاماً عملاقاً يكون شيئاً مُمتِعاً بالفعل. كما أنَّ المناشف العِملاقة، وإن كانت خَشِنة وقاسية، مُمتعةٌ أيضاً، لأنّها تبلغ عدَّة أمتار مُربَّعة. فبالحقيقة، لا يُعوِزك أن تتنشَّف بها أبداً، بل يكفي أن تتشقلب عليها قبالة النار وتُمتِّع نفسك. ولَمّا انتهى ذلك، أُلبِست جِلّ ثياباً نظيفةً جديدة مُدفِئة: ثياباً فاخرة جدّاً وكبيرة قليلاً عليها، لكنْ مصنوعة للبشريّات لا الماردات كما هو واضح. وقد فكَّرت جِلّ: «أُخمِّن أنّه إذا جاءت تلك المرأة ذات الفُستان الأخضر إلى هُنا، فلا بُدَّ أن تُستخدَم هذه الثياب

لضيوفٍ بحجمنا».

وسرعان ما تبيّنَ لها أنّها على حقٍّ في ذلك. إذ وُضِعت لها طاولة وكرسيٌّ من الحجم المناسب للبشريّين الراشِدين الاعتياديين، كما أنَّ الشُوَك والملاعق والسكاكين كانت من الحجم المناسب أيضاً. وقد أبهجها جدّاً أن تجلس أخيراً، شاعرةً بالدفء والنظافة. وإذ كانت قدماها ما تزالان حافيتَين، سرَّها كثيراً أن تدوس على السجّادة العملاقة؛ وقد غاصت فيها جيّداً إلى ما فوق كاحِلَيها، وكان ذلك ملائماً تماماً لقدَمَيها المتقرّحتين. أمّا وجبة الطعام (وأظنُّ أنّها يجب أن تُدعى غداءً، مع أنَّ النهار كان قد قارب الغروب) فقد تألّفت من حساءِ دجاج بالكُرّاث، وديكٍ روميٍّ مُحمَّر ساخن، وحلوى مُبخَّرة، وكستناء مَشويّ، وفواكه بقدْر ما يمكنك أن تأكل.

إنّما كان الشيء المزعج الوحيد أنَّ المُرَبّية ظلّت تدخل وتخرج، وكلّما دخلت تجلب لُعبةً هائلة: دُمية ضخمة أكبر من جِلّ نفسها، حصاناً خشبياً على دواليب بحجم فيلٍ تقريباً، طبلاً بدا كخزّان غازٍ متوسّط الحجم، حَمَلاً مَكسوّاً

صوفاً. وقد كانت أشياء غير مُتقَنة، سيّئة الصنع، مطليّةً بألوانٍ زاهية جدّاً، حتّى كرهت جِلّ منظرها. وظلّت تقول للمُربّية إنّها لا تريد هذه الأشياء، ولكنَّ تلك قالت:

«تُو... تُو... تُو! أنا أعرف أنّكِ سترغبين في هذه الأشياء جيّداً بعد أن تستريحي قليلاً! تِي، هِي، هِي! باي باي الآن، أيّتها العزيزة الغالية!»

ولم يكن السرير سريراً عملاقاً، بل مجرّد سريرٍ عالي القوائم، مثل تلك الأسرّة التي ربّما تكون قد رأيتَها في فُندق عتيق الطراز، وقد بدا صغيراً جدّاً في تلك الغرفة الهائلة. وسرَّها كثيراً أن تنطرح عليه. ثمّ سألت والنعاس يُداعِب أجفانها: «أما زال الثلج يتساقط، يا مُرَبّية؟»

فقالت الماردة: «لا، إنّها تمطر الآن، يا بُطَيطة! وسيجرف المطر كلَّ الثلج المزعج. فحبيبة القلب الغالية سيُمكِنها غداً أن تخرج إلى الهواء الطلق وتلعب!» ثمّ غطّت جِلّ بإحكام، وقالت لها: «ليلة سعيدة!»

لستُ أعرِف شيئاً أكثر تنفيراً من قُبلةِ ماردة. وذلك ما فكَّرت فيه جِلّ أيضاً، إلّا أنَّ النوم سطا عليها في ظرْف خمس دقائق.

وظلَّ المطر يتساقط باستمرار طيلة المساء واللّيل، مُطَرطِشاً على نوافذ القصر. إلّا أنَّ جِلّ لم تسمع وقْعه قطّ، بل نامت نوماً عميقاً إلى ما بعد وقت العشاء، ثمّ إلى ما بعد نصف اللّيل. وبعد ذلك جاءت أكثر ساعات اللّيل ظلاماً وسكوناً، ولم يكن شيءٌ يتحرّك في بيت المَرَدة سوى

الفئران. في تلك الساعة، حلمَت جِلّ حلماً.

رأت نفسَها أنّها استيقظت في الغرفة ذاتها، وشاهدتِ النارَ وقد همدَت وصارت جمراً أحمر، والحصانَ الخشبيّ في ضوء النار. ثمّ جاء الحصان من تلقاء ذاته، جارياً على دواليبه فوق السجّادة، حتّى وقف عند رأسها. وعندئذٍ لم يعُد حصاناً، بل صار أسداً بحجم الحصان. ثمّ لم يبقَ أسداً دُمية، إذ صار أسداً حقيقيّاً، بلِ الأسدَ الحقيقيّ، تماماً كما رأته على الجبل ما وراء آخِرِ العالَم. وعبقَت في الغرفة كلّها رائحةُ كلّ عطر زكيّ في الوجود. ولكنْ كان في عقل جِلّ عِلّةٌ ما، مع أنّها هي لم تستطع أن تتذكّر ما هي، وقد جرت الدموع غزيرةً حتّى بلّلت المخدّة. وطلب منها الأسد أن تُكرّر العلاماتِ الأربع، فتبيّنَ لها أنّها قد نسيَتها كلّها. وعندئذٍ استولى عليها رُعبٌ شديد. ثمّ التقطها أصلان بفكّيه (وقد استطاعت أن تحسّ شفتَيه ونَفَسه، دونَ أسنانه) وحملها إلى النافذة وجعلها تنظر إلى الخارج. وكان ضوء القمر متألّقاً، وقد كُتِبَت بأحرفٍ كبيرة على العالم أو على السماء (لم تدرِ على أيّهما) الكلمتان 'تحتي أنا'. وبعد ذلك تلاشى الحلم. ولمّا استيقظت جِلّ في وقتٍ متأخّرٍ جدّاً من صباح اليوم التالي، لم تتذكّر قطّ أنّها حلمت أيّ حلم.

ثُمّ نهضت ولبست ثيابها. وبعدما فرغَت من تناول فَطورها مُقابل النار، فتحتِ المُربّية الباب وقالت: «ها هُما صديقا العزيزة الجميلة وقد جاءا ليلعبا معها!»

وإذا بصغرون وساكن المستنقعات يدخلان، فتقول جلّ:

«مرحبا! صباح الخير. أليس هذا رائعاً؟ لقد نمتُ حَوالى خمس عشرة ساعة، كما أظنّ. وأنا أشعر فعلاً بأنّني أحسن حالاً، أفلا تشعرانِ أنتما بمثل ذلك؟»

فقال صغرون: «أنا أشعر بهذا... ولكنّ بِركهموم يقول إنّ لديه صُداعاً في رأسه. ياه! إنّ لنافذتك مقعداً. فإذا وقفنا عليه، يمكننا أن نرى ما في الخارج. وفي الحال عملوا كلّهم باقتراحها. وعند أوّل لمحة قالت جلّ: «آه، كم هذا مُروّعٌ للغاية!»

كانت الشمس مُشرقة، وقد جرف المطرُ الثلوج كلّها تقريباً، ما عدا بعض الرُّقَع القليلة. وتحتهم في الأسفل، انتشرت كخريطةٍ قمّةُ التلّة المُسطّحة التي جاهدوا فوقها بعد ظُهرِ أمس. وإذ رأوها من القصر، لم يكُن ممكناً أن تُحسَبَ أيّ شيء آخر ما عدا خرائبَ مدينةٍ عملاقة. وقد كانت مُسطّحة، كما رأت جِلّ الآن، لأنّها كانت ما تزال على العموم مرصوفة، وإن كانت الأرصفة مُكسّرة في بعض الأمكنة. أمّا السدود المُتصالبة فكانت ما بقي من جُدرانِ مبانٍ ضخمة ربّما كانت في ما مضى قصوراً وهياكل للمَرَدة. وقد كان جزءٌ من جدار، يعلو نحو مئة وسبعين متراً، ما يزال قائماً: وهو الذي سبق أن حَسِبته جِلّ جُرفاً شامخاً. والأشياء التي بَدَت مثل مداخن المصانع كانت أعمدةً هائلة قُطِعت على ارتفاعاتٍ مُتفاوتة، وقد تجمّع حُطامُها

عند قواعدها كأشجارٍ من الصخور الضخمة مقطوعة ومُلقاة على الأرض. أمّا الأفاريز التي نزلوا عليها بحَذَر في الجانب الشماليّ من التلّة (وكذلك أيضاً بلا شكّ الأفاريز الأُخرى التي صعدوا عليها في الجانب الجنوبيّ)، فقد كانت الدرجات الباقية من أدراجٍ عملاقة. وتتويجاً لكلّ ذلك، بأحرفٍ سوداء كبيرة على وسط الرصيف بالطول، ظهرت الكلمتان «تحتي أنا».

عندئذٍ نظر المُسافِرون الثلاثة بعضُهم إلى بعض بخيبةٍ مُرّة. وبعد صَفرةٍ قصيرة قال صغرون ما كانوا كلُّهم يُفكّرون فيه: «إخفاقٌ في العلامتين الثانية والثالثة!» وفي تلك اللحظة تذكّرت جِلّ حلمَها دفعةً واحدة، فقالت بلهجةٍ ناضحة باليأس:

«الغلطة غلطتي أنا! فقد تخلّيت عن تكرار العلامات كلّ ليلة. ولو كنتُ أفكّر فيها، لأمكنني عندئذٍ أن أُدرِك أنّ تلك كانتِ المدينة، حتّى وسط تلك الثلوج كلّها».

وقال بِركَهموم: «وأنا أسوأ. فقد أدركتُ ذلك فعلاً، أو كِدت. إذ حسبتُ أنّها تبدو مثل مدينةٍ خَرِبة على نحوٍ استثنائيّ».

فقال صغرون: «أنت الشخص الوحيد الذي لا يقع عليه أيُّ لوم. فأنت حاولت فعلاً أن تُوقِفنا».

وقال السبّاخ: «مع ذلك لم أبذل جهداً كافياً في محاولتي. وأنا لم أكن مدعوّاً لأنْ أُحاوِل فحسب، بل كان ينبغي أن أفعل ذلك حقاً. لكأنّني لم أكن أقدر على

إيقافِ كُلٍّ منكما بإحدى يدَيّ!»

فقال صغرون: «الحقيقة هي أنّنا كنّا متشوّقين كثيراً جدّاً للوصول إلى هذا المكان بحيث لم نهتمّ بأيّ شيء آخر. وأنا على الأقلّ أعرف أنّني كنتُ هكذا. فمنذُ التقينا تلك المرأة برفقة الفارس الصامت، لم نعُد نُفكّر بشيء آخر. وقد نَسِينا تقريباً كلّ ما يتعلّق بالأمير ريليان».

وقال بِركَهموم: «لا ينبغي أن أتعجَّب إن كان ذلك هو ما قصدَته تماماً».

فيما قالت جلّ: «ما لا أفهمُه تماماً هو كيف أنّنا لم نَرَ الكتابة. أو لعلّها جاءت إلى هناك منذ الليلة السابقة؟ أيُمكن أن يكون هو — أي أصلان — قد وضعها هناك ليلاً؟ فقد حلمتُ حلماً غريباً..». ثُمّ قصّت عليهما الحلم.

عندئذٍ قال صغرون: «يُوه، ما أغبانا! لقد رأيناها فعلاً. فنحن دخلنا في الأحرف. ألا تفهمين؟ لقد دخلنا وسط الكلمة "أنا". فذلك كان الزقاق الغائر الذي سقطْتِ فيه. وقد سرنا على طول حرف الألف المهموز، نحو الشمال مباشرة، ثُمّ انعطفنا إلى يميننا على طول قعر حرف النُّون، ووصلنا إلى منعطف آخر إلى اليمين، صعوداً إلى نقطة النون، ثمّ عُدنا فأكملنا سيرنا حتّى أعلى الألِف الأخيرة، أو (إذا شئتِ) حتّى آخِر الحرف في الناحية الشماليّة الشرقيّة، وبعد ذلك رجعنا إلى حيثُ كُنّا. فما كان أغبانا حقّاً!» ثمّ رفس مقعد النافذة بحدّة، وتابع يقول:

«إذاً، لا فائدة يا پول. وأنا أعرف بماذا كنت تُفكّرين، لأنّني كنتُ أُفكّرُ في الأمر ذاته. فقد كنت تُفكّرين كم كان يمكن أن يكون الأمر أحسن لو لم يضع أصلان التعليمات على حجارة المدينة الخربة إلّا بعد مرورنا فيها. وعندئذٍ تكون الغلطة غلطته هو، لا غلطتنا نحن. وهذا مُرجَّح جدّاً، أليس كذلك؟ كلّا! علينا أن نعترف بخطئنا. فليس عندنا إلّا أربع علامات فقط نستهدي بها، وقد أخفقنا في أوّل ثلاثة».

فقالت جِلّ: «تقصد أنّني أنا أخفقت. هذا صحيحٌ تماماً. فأنا قد أفسدتُ كلّ شيء منذُ جئتَ بي إلى هنا. ورغم كلّ شيء — أنا آسفة أشدَّ الأسف وما شابه — رغم كلّ شيء، ما هي التعليمات؟ لا يبدو أن الكلمتَين 'تحتي أنا' تعنيان الكثير».

وقال بِركَهموم: «بلى، إنّهما تعنيان! فهما تعنيان أنّ علينا أن نبحث عن الأمير المفقود تحت تلك المدينة».

فسألت جِلّ: «ولكنْ كيف يمكننا ذلك؟»

فقال بِركهموم وهو يفرك يديه الكبيرتين الضفدعيّتين: «هذه هي المسألة: كيف يمكننا ذلك الآن؟ لا شكّ أنّه لو كانت عقولنا منشغلة بعملنا لمّا كنّا في مدينة الخراب لكان تبيَّن لنا كيف ذلك... بعثورنا على بابٍ صغير، أو كهف أو نَفَق، أو بلقائنا شخصاً يُساعِدنا. وربّما كان ذلك هو أصلان نفسه (مَن يدري؟). وربّما كان يمكننا أن ننزل إلى ما تحت تلك الحجارة المرصوفة، بطريقة أو بأُخرى. فإنّ تعليمات

أصلان تعمل عملها دائماً، وليس من استثناءاتٍ أبداً. أمّا كيف نفعل ذلك الآن، فتلك مسألة أُخرى».

وقالت جِلّ: «حسناً، سيكون علينا أن نرجع إلى حيثُ كنّا، حسب ظنّي».

فقال بِركَهموم: «أمرٌ سهل، أليس كذلك؟ فلماذا لا نُحاوِل فتح ذلك الباب أوّلاً؟» ونظروا جميعاً إلى الباب فرأوا أنّ أيّاً منهم لا يستطيع الوصول إلى مسكته، وأنّ أيّاً منهم — على نحوٍ شِبه مؤكّد — لا يستطيع أن يُديرها إذا نالَتها يدُه.

وسألت جِلّ: «أتعتقدان أنّهم لن يسمحوا لنا بالخروج إن طلبنا ذلك منهم؟» فلم يقل أيُّ واحدٍ منهما: «ماذا لو لم يسمحوا لنا؟» إلّا أنّهم كلّهم فكّروا في ذلك.

ولم تكُن تلك فكرةً مُبهِجة. فقد كان بِركَهموم كُلّيّاً ضدّ أيّة فكرة تقضي بإطّلاع المَرَدة على مقصدهم الحقيقيّ والطلب إليهم أن يُيسّروا لهم الخروج. وبالطبع لم يكُنِ الوَلَدان يقدران أن يُصرّحا بشيء دون أن يأذن هو لهما، لأنّهما كانا قد وعَداه بذلك. وتأكّد الثلاثة كلُّهم على نحوٍ شبهِ قاطع من عدم وجود فرصة لِتَمكُّنهم من الهرب من القصر ليلاً. فحالما يصيرون في غُرَفهم داخل الأبواب المُقفلة، يظلّون سُجَناء حتّى الصباح. ومن الممكن طبعاً أن يطلبوا إبقاء أبوابهم مفتوحة، ولكنّ من شأن ذلك أن يُثير الشكوك.

وقال صغرون: «إنّ فُرصَتنا الوحيدة هي بأن نحاول

التسلُّل إلى الخارج في وضح النهار. ألا يُمكِن أن تكون بعد الظهر ساعةٌ فيها ينام مُعظم المَرَدة؟... وإذا أمكننا التسلُّل إلى المطبخ في الأسفل، أفلا يُمكِن أن يكون بابٌ خلفيٌّ مفتوحاً؟».

فردَّ ساكن المُستنقعات: «بالكادّ أدعو هذه فُرصة! غير أنَّها الفرصة الوحيدة المُتاحة لنا».

وفي الواقع أنَّ خُطَّة صغرون لم تكن معدومة الأمل تماماً كما قد تظنّ. فإن أردتَ أن تخرج من بيتٍ ما بغير أن يراك أحد، يكون مُنتصف بعد الظُهر من بعض النواحي وقتاً أفضل من منتصف الليل لتجريب ذلك. إذ يُرجَّح أن تكون الأبواب والنوافذ مفتوحة. وإذا وقعتَ في يد أحدهم، يُمكِنك دائماً أن تتظاهر بأنَّك لم تكُن تَنوي الابتعاد كثيراً وأنَّك لا تملك أيَّة خُطط محدَّدة. (من الصعب جدّاً أن تجعل إمَّا المَرَدة وإمَّا الراشدين يُصدِّقون ادِّعاءك إذا عثر أحدُهم عليك وأنت تُعَربِش للخروج من نافذة غرفة النوم في الساعة الواحدة بعد نصف الليل.)

وقال صَغرون: «إنمَّا علينا أن نُطَمئنَهم ثُمَّ نُغافِلَهم. فيجبُ أن نتظاهر بأنَّنا نحبُّ الإقامة هُنا ونتوق إلى وليمة عيد الخريف تلك».

فقال بِركَهموم: «العيد يُصادِف ليلةَ غَد. لقد سمعتُ أحدهم يذكر ذلك».

وقالت جِلّ: «فَهِمتُ! علينا أن نتظاهر بأنَّنا مُتلهِّفون له بكلّ حماسة، ونظلّ نطرح أسئلةً عنه. وعلى كلّ حال،

فهم يحسبوننا مُجرَّد أولاد، وهذا يجعل الأمر أسهل».

فردَّ بِركَهموم مُتنفِّساً الصُعَداء: «المَرَح! ذلك هو ما ينبغي أن نكون عليه: المَرَح... وكأنْ لا هَمَّ لنا في الدُنيا. المَرَح والعَبَث! وأنتما الصغيرَين لستما دائماً مسرورَين ومُبتَهجين، كما لاحظتُ. فعليكما أن تُراقِباني وتحذوَا حذوي. سأكون مَرِحاً: هكذا (ثُمَّ كشَّر تكشيرةً مَهُولة) وعابِثاً (وهُنا رقص رقصةَ مَرَح يُرثى لها جدّاً). وستَدخُلانِ الجوَّ سريعاً، إذا أبقيتُما أعيُنَكما عليَّ. فأنتما تَريان أنَّهم فعلاً يعتبرونني فتىً مُضحِكاً. وأستجرئُ أن أقول إنكما كِلَيكُما خمَّنتُما أنَّني كنتُ سكرانَ قليلاً البارحة. إلَّا أنَّني أُؤكِّد لكما فعلاً أنَّ ذلك كان مُصطَنَعاً... حسناً، في مُعظَمِه. فقد فكَّرتُ بأن ذلكَ قد ينفعُ بطريقةٍ ما».

(حينَ جرى الحديث لاحقاً عن المُغامرات، لم يستطع الولدان أن يتأكَّدا قطعاً هل كانت هذه العبارة الأخيرة صحيحةً مئة بالمئة، إلَّا أنَّهما كانا على يقين بأنَّ بِركهموم كان يحسبها صحيحةً لَمَّا نطق بها.)

وقال صغرون: «حسنٌ جدّاً. المَرَح هيَ الكلمة المناسبة. والآن، حبَّذا لو نستطيع فقط أن نطلب من أحدٍ ما أن يفتح لنا هذا الباب. فبينما نحن نمرح ونعبث، علينا أن نكتشف كلَّ ما يُمكِننا اكتشافه من أحوال هذا القصر».

ومن محاسن الصُدَف أنَّه في تلك اللحظة بالذات انفتح الباب، وقالت لهم المربِّية الماردة مُستعجِلةً: «والآن،

يا أحبّائي، هل تودُّون أن تجيئوا وتُشاهِدوا الملك والحاشية مُنطلِقين إلى الصَّيد؟ فيا له من مشهدٍ رائع!»

فلم يُضيِّعوا ثانيةً واحدة، بلِ اندفعوا إلى الخارج مُتجاوِزين المُربِّية، ونزلوا على أوّل دَرَج وصلوا إليه. وقد أرشدهم ضجيجُ كِلاب الصَّيد والأبواق وأصوات المَرَدة، حتّى وصلوا إلى ساحة الدار بعد بضع دقائق. وكان المردة كلُّهم يسيرون على الأقدام، لعدم وجود أحصنة عملاقة في ذلك الجزء من العالم، ولأنّ المَرَدة يصطادون مشياً، على طريقة الصَّيد العاديَّة. وكذلك كانت كِلاب الصيد أيضاً من الحجم المألوف.



ولمّا لم ترَ جِلّ أحصنة، خاب أملُها كثيراً أوّل الأمر، لأنّها تأكّدت أنّ الملكة الضخمة البدينة لن تذهب أبداً وراء كلاب الصيد سيراً على قَدَميها، ولن يكون من الخير أن تبقى في البيت طول النهار. ولكنّها ما لبثت أن رأتِ الملكة على مِحَفَّة كبيرة مُستقرَّة على أكتاف ستّةِ مَرَدةٍ شُبّان. وقد كانت تلك المخلوقة القبيحة المُسِنّة غاطسةً كلُّها في اللّون الأخضر وإلى جانبها بُوق. كما كان قد تجمَّع عشرون مارداً أو ثلاثون، بمن فيهم المَلِك، على أُهبة الصَّيد، وهم يتحدَّثون ويضحكون جميعاً بشكلٍ يصمُّ أُذنيك. وتحتُ في الأسفل، أقربَ إلى مستوى جِلّ، ظهرت أذنابُ الكلاب المهتزَّة ونباحُها وأفواهُها الرّخوة التي يسيل منها اللُّعاب وأُنوفُها الممدودة إلى يَدِك.

وهَمَّ برِكَهموم بأن يُباشِر ما حَسِبه تصرُّفاً مَرِحاً وعابثاً (كان يُمكِن أن يُفسِد كلّ شيء لو لاحظه أحد)، فتكلَّفت جِلّ ابتسامَتها الطفوليّة البالغة الجاذبيّة واندفعت مُسرِعةً نحو محفَّة المَلِكة، وصاحت تُخاطِبُها قائلةً:

«أُوه، رجاءً! إنّكِ لستِ راحلةً بعيداً، أليس كذلك؟ أأنتِ راجعة؟»

فردَّت المَلِكة: «نعم، يا عزيزتي. سأرجع هذا المساء».

وقالت جِلّ: «أُوه، جيِّد! ما أحلى هذا! ويُمكِننا أن نأتيَ إلى الوليمة ليلةَ غَد، ألا يُمكِننا ذلك؟ كم نتوق إلى ليلةِ الغد! ونحن نحبُّ البقاء هنا. وبينما أنتِ في الخارج،

يُمكِننا أن نتفقَّد القصر كُلَّه بسرعة ونرى كلَّ ما فيه، ألا يُمكِننا ذلك؟ هلاَّ تقولين 'عم'!»

وفي الواقع أنَّ الملكة قالت «نعم»، ولكنَّ ضَحِك رجال الحاشية كلِّهم طغى على صوتها.

الفصل التاسع

كيف اكتشفوا شيئاً يستحقُّ المعرفة

اعترف الجميع في ما بعد بأنَّ جِلَّ كانت رائعة في ذلك اليوم. فما إن انطلق الملك وباقي الصيّادين، حتَّى بدأت تجول في أنحاء القصر كُلِّه وتطرح كثيراً من الأسئلة، ولكنَّها فعلت ذلك بطريقة طفوليَّة بريئة للغاية حتَّى لا يشكَّ أحد بوجود أيَّة نيَّة مُبيَّته لديها. ومع أنَّ لسانها لم يهدأ قطّ، فلا يكاد يمكنك أن تقول إنَّها كانت تتحدَّث، بل إنَّها بالأحرى كانت تُثرثِر وتُقهقِه. وقد أبدتِ المودَّة للجميع: لسائسي الخيل والبوّابين والخادمات والوصيفات واللوردات المردة المُسِنِّين الذين لم يعودوا يستطيعون المُشاركة في حملات الصَّيد. وقبِلت أن تقبِّلها وتُلامِسَها بخشونةٍ كثيراتٌ من الماردات، وقد بَدَت عديداتٌ منهنَّ مُتأسِّفاتٍ عليها ودَعَونها «الصغيرة المسكينة» مع أنَّ أيَّة واحدة منهنَّ لم تُوضِح سبب ذلك. وقد صادقت خصوصاً الطبّاخ، واكتشفت الحقيقة البالغة الأهميَّة بوجود بابٍ في غرفة غَسل الأواني

وحِفظها يؤدّي بك إلى الخروج من السور الخارجيّ بحيث لا تُضطَرُّ إلى اجتياز ساحة الدار أو المرور عبر دهليز البوّابة الرئيسيّة. وفي المطبخ تظاهرت بأنّها جشعة، فكانت تأكل كلّ نوعٍ من الفُتات سُرَّ الطبّاخ ومساعدوه بتقديمه لها. ولكنْ في الطابق الأعلى، بين السيّدات، كانت تطرح أسئلةً عن اللباس الذي يجب أن ترتديه لأجل الوليمة الكبيرة، وكم يُسمَح لها أن تبقى ساهرة، وهل يُتاح لها أن تُراقِص بعض المَرَدة الصِّغار جدّاً جدّاً. ثُمَّ إنّها (وهذا الأمر جعل بَدَنها يقشعرُّ والحرارةَ تشيع في كلّ جسمها عندما تذكّرته في ما بعد) كانت تميل برأسها إلى ناحية بطريقةٍ حمقاء اعتبرها الراشدون، من مَرَدةٍ وغيرهم، فاتنةً جدّاً، ثمَّ تهزّ جدائلها مُتَملمِلةً وتقول: «أوه، كم أتمنّى لو كانتِ الليلة ليلة غد! أفلا تتمنّون أنتم ذلك؟ أتظنّون أنّ الوقت سيجري بسرعةٍ حتّى ذلك الحين؟» وقالت جميع الماردات إنّها كانت فاتنةً صغيرة ممتازة، وربّتت بعضُهنّ عُيونَهنّ بمناديل ضخمة كما لو كُنّ سيَبكين.

وقد قالت إحدى المارِدات لأُخرى: «إنهنّ صغيرات طيّبات جدّاً في هذا العمر. ما يبدو تقريباً مدعاةً إلى الأسف والرثاء..».

وبذل صغرون وبِركَهموم كلاهما أقصى جهدهما، ولكنّ الفتيات يقُمن بمثل هذه الأمور أفضلَ من قيام الصبيان بها. والصبيان يفعلونها أفضل مما يفعلها ساكنو المستنقعات.

وعند الغداء حدث شيء جعل الثلاثةَ جميعاً يتشوّقون أكثر منهم في أيّ وقتٍ مضى إلى مغادرة قصر المَرَدة اللُّطَفاء. فقد تناولوا غداءهم في القاعة الكبيرة إلى طاولة صغيرة خاصّةٌ بهم قرب الموقد. وإلى طاولة أكبر، على بُعدٍ يناهز العشرين متراً، كان يتغدّى ستّةٌ من المَرَدة الكبار سنّاً. وقد كانت محادثتهم كثيرة الضجيج وعاليةً جدّاً في الهواء، حتّى إنّ الولَدَين لم يعودا ينتبهان إليها سريعاً، كما لا تهمّك أنت هُتافات الصارخين خارج نافذتك، أو جَلَبة السَّير في الشارع. وكانوا يأكلون لحم غزال بارداً، وهو طعامٌ لم يسبق لجِلّ قطُّ أن ذاقت مثله، وقد أحبّتْهُ كثيراً.

وفجأةً التفت إليهما بِركَهموم وقدِ امتقع وجهه بشحوبٍ كثير تُمكِن رؤيته تحت لون بَشرته الطيني الأصليّ، قائلاً: «لا تأكُلا أيّةَ لُقمة أُخرى!»

فسأله الآخران همساً: «ما الأمر؟»

«ألم تسمعا ما كان هؤلاء المَرَدة يقولونه؟ فقد قال أحدهم: 'هذا فخذ غزالٍ لذيذ.' وقال آخر: 'إذاً كان ذلك الغزال كذّاباً.' فسأله الأوّل: 'ولماذا؟' فردَّ الآخر: 'أوه، يقولون إنّه لمّا اصطادوه قال لهم: لا تقتلوني، فأنا قاسي اللّحم، ولن أُعجِبَكم!'»

ولم تُدرِك جِلّ هُنيهةً كاملَ معنى ذلك. ولكنّها ما لبثت أن أدركته لمّا انفتحت عينا صغرون على وسعهما من شدّة الهول وقال: «إذاً كُنّا نأكل غزالاً ناطقاً».

إلاّ أنَّ ذلك الاكتشاف لم يُخلِّفِ التأثير نفسَه لدى كُلٍّ منهم. فإنَّ جِلَّ، وذلك العالم جديدٌ عليها، رقَّت للغزال المسكين، وعدَّت قتل المردة له أمراً فاسداً. أمّا صغرون، وقد سبق أن زار ذلك العالم وكان واحد من الحيوانات الناطقة على الأقلّ صديقَه العزيز، فإنّه شعر بالهَلَع، كما قد تشعر أنت تجاه جريمة قتل. غير أنَّ بِركهِموم، وهو ابن نارنيا منذ ولادته، فقدِ اعتراه الغثيان والذهول، وشعر كما قد تشعر أنت إذا تبيَّن لك أنّك أكلتَ لحم طفل. وقال:

«لقد جلَبنا على رؤوسنا غضب أصلان. وهذه نتيجة عدم مراعاة العلامات. فأخشى أن تكون لعنةٌ قد حلَّت علينا. ولو كان مسموحاً، لكان أفضل شيء نفعله أن نأخذ هذه السكاكين ونطعن بها قلوبنا!»

وشيئاً فشيئاً صارت حتّى جِلّ ترى الأمر من وجهة نظره. وعلى كلّ حال، لم يعُد أيٌّ منهم يرغب في الغداء بعد. فحالما خُيِّل إليهم أنّهم في مأمن، انسلُّوا من القاعة بهدوء.

أنذاك كان يقترب وقتُ النهار الذي عليه تعلّقت آمالهم بالفرار، فتوتّرت أعصابُهم جميعاً. وأخذوا يتسكّعون في الممرّات بانتظارِ أن يسود الهدوء. إلّا أنّ المَرَدة ظلُّوا قاعدين في القاعة وقتاً طويلاً بعد انتهائهم من الغداء، وكان المارد الأصلع يحكي لهم قصّة. فلمّا فرغ منها، نزل المسافرون الثلاثة إلى المطبخ على مهل. ولكنَّ كثيراً من المَرَدة كانوا ما يزالون هناك، خصوصاً في غُرفة الأواني،

وهم يغسلون الأطباق ويُعيدونها إلى أماكنها. فكان عذاباً لهم أن ينتظروا انتهاء أولئك جميعاً من عملهم، ومسح أيديهم، ومغادرتهم الغرفة واحداً فواحداً. وأخيراً بقيت في الغرفة ماردة واحدة مُسِنَّة، ظلَّت تتسكّع وتشغل نفسها بأمورٍ شتّى، حتّى أدركوا في الأخير مذعورين أنّها لا تنوي مُغادرة المكان قطعاً. ثمّ قالت لهم:

«حسناً يا أعزّائي الصغار، لقد انتهى ذلك العمل تقريباً. فلنضعِ الغلاّية هناك، حتّى نعمل فنجان شاي لذيذاً في الحالَ. والآن يمكنني أن آخذ قسطاً من الراحة. إنّما انظروا داخِلَ غرفة الأواني، كأعزّاء لُطَفاء، وقولوا لي هل الباب الخلفيُّ مفتوح».

فأجاب صغرون: «نعم، هو مفتوح».

«حسناً! فأنا أتركه مفتوحاً دائماً حتّى يقدر الهرُّ أن يدخل ويخرج، ويا له من مسكين!»

ثمّ قعدت على كرسيّ وأسندت قدمَيها على كرسيٍّ آخر، وقالت:

«لستُ أدري هل أغفو إغفاءةً قصيرة. يا ليت حملة الصَّيد المُتعبة لا ترجع مُبكِّرةً جدًّا!»

فابتهجوا جميعاً عند ذِكر الإغفاءة القصيرة، ثمّ أُحبِطوا حالاً عند ذِكر رجوع حَملة الصَّيد. وسألت جِلّ:

«متى يرجع الصيّادون عادةً؟»

فأجابت الماردة: «لا يمكننا أن نعرف أبداً. ولكن أرجو، يا أعزّائي، أن تذهبوا وتهدأوا قليلاً!»

فتراجعوا إلى طَرَف المطبخ الأبعد، وكان ممكناً أن ينسلُّوا خارجين من غرفة الأواني في الحال، لو لم تجلسِ الماردة وتفتحْ عينيها، وتطردْ عنها ذُبابة.

وهمس صغرون: «لا نُحاوِلْ ذلك قبل أن نتأكَّد من أنَّها نائمة حقّاً، وإلاَّ أفسد هذا كلَّ شيء».

وهكذا تكوَّموا جميعاً في طَرَف المطبخ، ينتظرون ويُراقِبون. وقد كانت فكرةُ إمكانيَّةِ رجوع الصيَّادين في أيِّ وقت مُروِّعةً فعلاً. كما أنَّ المارِدة كانت مُتملمِلة، إذ تحرَّكت كلَّما ظنُّوا أنَّها نامت حقّاً.



وفكَّرت جِلّ: «لا يمكنني أن أحتمل هذا». ولكي تُسلِّي نفسها، أخذت تنظر حوالَيها. فوجدت أمامها

تماماً طاولة عريضة نظيفة، عليها طَبَقا حلوى نظيفان وكتابٌ مفتوح. وقد كانا طَبَقي حلوى خاصَّين بالمَرَدة طبعاً، ففكَّرت جِلّ أنَّها تقدر أن تتمدَّد مستريحةً تماماً في أحدهما. ثمَّ تسلَّقت إلى المقعد بقرب الطاولة لكي تنظر الكتاب. وقرأت:

البطُّ البرِّيّ: طيرٌ لذيذ يُمكِن طبخه بطرقٍ متنوِّعة.

ففكَّرت من دون كثيرٍ من الاهتمام: «إنَّه كتابُ طَبخ!» ونظرت من فوق كتفها، فرأت عينَي المارِدة مُطبَقتين، ولكنْ لم يبدُ أنَّها نائمة تماماً. ثُمَّ ألقت نظرة أُخرى على الكتاب، وإذا بالفقرة التالية تكاد تُوقِف قلبَها عن الخفقان، فيما أخذت تقرأ:

الإنسان: طالما اعتُبِر هذا الكائنُ الأنيق الصغير ذو القَدَمين أرفعَ اعتبار على أنَّه طعامٌ شهيٌّ مترَف جدّاً. إنَّه يُشكِّل جُزءاً تقليديّاً من وليمة عيد الخريف، وهو يُقدَّم بين السمك واللحم المشويّ. وكلُّ إنسان...

إلاَّ أنَّها لم تقدر أن تُكمِل القراءة. وأدارت رأسها، فإذا الماردة قد استيقظت وأخذتها نوبة سُعال. فوكَزت الآخرَين وأشارت إلى الكتاب. وصعدا هما أيضاً إلى المقعد، وانحنيا على الصفحات الضخمة. وكان صَغرون

ما يزال يقرأ عن كيفيّة طبخ الإنسان لمّا أشار بِركَهموم إلى الفقرة التالية، وكان فيها ما يلي:

السبّاخ: ترفض بعض المراجع هذا الحيوان كليّاً باعتباره غير صالح لاستهلاك المَرَدة، بسبب قوامه القاسي الأَلياف ونكهته الوحليّة. غير أنّ تلك النكهة يمكن أن تُخفّف كثيراً إذا...

عندئذٍ مسّت جِلّ قدمَيه وقدمَي صغرون برِفق. ونظر الثلاثة كلُّهم إلى الماردة من جديد. فإذا فمها مفتوحٌ قليلاً، ومن أنفها تصاعد صوتٌ رحّبوا به في تلك اللحظة أكثر من ترحيبهم بالموسيقى: إذ كانت تشخر! وإذ ذاك صارتِ المسألة مسألةَ سيرٍ على رؤوس أصابع الأقدام، غيرَ مُستجرئين أن يُسرعوا كثيراً، ولا مستجرئين تقريباً أن يتنفّسوا، حتّى خرجوا إلى غُرفة الأواني (وما أكرهَ رائحة غُرَف الأواني عند المَرَدة!)، ومنها أخيراً إلى ضوء الشمس الباهت في عصرِ نهارٍ شتائيّ.

وقد وجدوا أنفسَهم عند أعلى ممرٍّ صغير وَعِرٍ ينحدر إلى أسفلُ انحداراً شديداً، وبحمدِ السماء: عند الجانب الأيمن من القصر، لاحت مدينة الخراب أمام أنظارهم. وفي ظرف دقائقَ قليلة، رجعوا إلى الطريق العريض المنحدر المؤدّي إلى الأسفل من بوّابة القصر الرئيسيّة. وكان من الممكن أيضاً أن يُروا تماماً من كلّ نافذةٍ بمُفرَدِها في تلك الجهة. ولو كانت

هنالك نافذة، أو نافذتان، أو خَمس، لَتوافرت فُرصة معقولة بألّا يكون أحدٌ ناظراً إلى الخارج. ولكنْ كان عدد النوافذ خمسين تقريباً، بدل الخمسة. وقد أدركوا آنذاك أيضاً أنّ الطريق التي يسيرون عليها، بل بالحقيقة جميع الأراضي الواقعة بينهم وبين المدينة الخَرِبة، لا تؤمّن حمايةً تكفي لاختباء ثعلب، إذ كانت كلُّها مكسوّةً بالعشب القاسي والحصى والحجارة المُفلطحة. وممّا زاد الطين بلّة أنّ الولدَين كانا ما يزالان لابسين الثياب التي زوّدهما بها المَرَدة في الليلة السابقة، بخلاف بِركَهموم الذي ما كان أيُّ شيء ليُناسِبه. وقد كانت جِلّ مُرتديةً فُستاناً أخضر زاهياً، طويلاً عليها بعضَ الشيء، وفوقه عباءة قرمزيّة ذات حواشٍ من الفَرو الأبيض. أمّا صغرون فكان يرتدي جوربَين قرمزيَّين، وسترةً وعباءة زرقاوين، ويحمل سيفاً مِقبَضُه من ذهب، ويعتمر قُبّعةً فيها ريش.

وتمتم بِركَهموم: «كِلاكُما مُلوَّنانِ ألواناً حسنة، تظهر للعِيان بكلّ جلاء في نهارٍ شتائيّ. حتّى أسوأ رامي سهام في العالم لا يُمكِن أن يُخطِئ أيّاً منكما إذا كُنتما ضمن نطاق الرماية. وعلى ذكر الرُّماة، سيؤسِفُنا ألّا نحمل أقواسنا الخاصّةَ قبل مُضيّ وقت طويل، ولن أتعجّب. ثُمّ إنّ ثيابَكِ هذه رقيقةٌ قليلاً، أليس كذلك؟»

فردّت جِلّ: «بلى، فقد بدأتُ أتجمّد فعلاً!»

قبل دقائق قليلة، لمّا كانوا في المطبخ، فكّرت جِلّ أنّهم لوِ استطاعوا فقطِ الخروج من القصر لباتت نجاتُهم عندئذٍ

شبه تامّة. أمّا الآن فأدركت أنّ أخطر جزءٍ من الفرار كان سيأتي.

وقال بِركَهموم: «على مهل، على مهل! لا تنظرا إلى الوراء. ولا تمشيا بسرعة زائدة. ومهما فعلتما، فلا تركُضا. لِنظهَرْ كما لو كُنّا نتمشّى تنزُّهاً، حتّى إذا رآنا أحد لا يخشى سوءاً على الأرجح. ففي اللحظة التي فيها نبدو مثل أشخاصٍ هاربين، يكون أمرنا قدِ انتهى».

بدت المسافة إلى المدينة الخَرِبة أطول ممّا كان ممكناً أن تحسبَه جِلّ معقولاً. إلّا أنّهم كانوا يقطعونها شيئاً فشيئاً. ثُمّ سُمع صوتٌ حادّ، فشهق الآخران. أمّا جِلّ، وهي لا تدري ما ذلك، فقالت: «ما هذا؟»

فهمس صَغرون: «صوتُ بُوقِ صَيد!»

وقال بِركهموم: «ولكنِ الآن أيضاً لا تركضا. ليس قبلَ أن أُشير عليكما».

ولم تتمالك جِلّ نفسها هذه المرّة عن النظر من فوق كتفها. فإذا بها ترى، على بُعدِ أقلّ من كيلومتر، الصيّادين راجعين من ورائهم إلى اليسار.

ثم تابعوا سيرهم. وفجأةً سُمِعت جَلَبة أصواتٍ مَرِدة صاخبة، تَلَتها صَرخات وصَيحات.

فقال بِركَهموم: «لقد رأَونا. فلنركض!»

فشمّرت جِلّ أذيال ثوبها الطويلة، وركضت (وما أصعب الركض بثوبٍ طويل!). ذلك أنّ الخطر بات مؤكّداً آنذاك. وقد استطاعت أن تسمع صوت كلاب

الصيد وصوت الملك هادراً: «وراءَهم، وراءَهم! وإلّا فلَن تكون لدينا فطائرُ بَشَرٍ غداً».

وما لبثت جِلّ أن صارت آخِر الثلاثة، يُعيقها ثوبُها الطويل، وتنزلق على الحجارة المتقلقلة، ويدخل شعرها في فمها، وينتابُ صدرَها وَجعُ الركض، وقد باتت كلاب الصيد أقرب بكثير. وكان عليها آنذاك أن تركض صاعدةً التلّة على المنحدر الصخريّ المؤدّي إلى أسفل درجة من الدَرَج العملاق. ولم تكُن لديها أيّة فكرة عمّا ينبغي أن يفعلوه عند وصولهم إلى هناك، ولا كيف يكونون أحسن حالاً على الإطلاق ولو بلغوا القِمّةَ. غير أنّها لم تُفكّر في ذلك، إذ كانت مثل حيوانٍ مُطارَد: ما دامت مجموعة كلاب الصَّيد وراءها، ينبغي لها أن تركض حتّى تسقط أرضاً.

كان ساكن المستنقعات في المُقدّمة. ولمّا وصل إلى الدرجة السُفلى، توقّف ونظر قليلاً إلى يمينه، ثمّ اندفع



فجأةً إلى داخل ثغرة صغيرة أو شقٍّ في قعرها. وإذ اختفت رجلاه الطويلتان في داخل الثغرة، بدتا شبيهتين جدّاً بأرجل العنكبوت. وتردَّد صغرون قليلاً، ثم توارى أيضاً من بعده. أمّا جِلّ فوصلت إلى هُناك بعد نحو دقيقة، لاهثةً ومُترنّحة. وكانت الثغرة صدعاً غير جذّاب بين الأرض والصخر بطولِ مترٍ تقريباً وعُلوٍ لا يكاد يتجاوز قدماً واحدة. فكان عليك أن تنبطح على وجهك وتزحف إلى داخلها زحفاً. ولم يكُن ممكناً أن تفعل ذلك بسرعة بالغة أيضاً. وقد تأكّدت تماماً أنّ أسنان كلبٍ ستُطبِق على عَقِبَيها قبل وصولها إلى الداخل.

ثمّ سمعتْ صوت بِركَهموم في الظلام بقربها قائلاً: «بسرعة، بسرعة! حجارة! لنسدَّ الفتحة». وكان الظلام هناك في الداخل حالكاً، ما عدا الضوء الرماديّ في الفتحة التي زحفوا منها، والآخران يعملان بكلّ اجتهاد. وقد استطاعت أن ترى يَدي صغرون الصغيرتين ويدي السبّاخ الكبيرتين الضفدعيّتين سوداءَ مُقابِل الضوء وهي تشتغل باسْتِقتال لتكويم الحجارة. ثُمّ أدركت مدى أهمّيّة ذلك، فبدأت هي أيضاً تتلمّس بيديها بحثاً عن حجارة كبيرة ثُمّ تُناوِلُهما إيّاها. وقبل أن شرعت الكلاب تعوي وتنبح عند فوّهة الكهف، كانوا قد ملأوها بالحجارة، فاختفى كلُّ ضوءٍ بطبيعة الحال.

عندئذٍ قال صوت بِركَهموم: «لنبتعدْ إلى الداخل، بسرعة!»

وقالت جِلّ: «لِنُمسِك بعضُنا بأيدي بعض».

فقال صغرون: «فكرة جيِّدة!» ولكنَّ عثور بعضهم على أيدي بعض وسط الظلام استغرق وقتاً طويلاً تماماً. وكانت باتت الكلاب في ذلك الوقت تتشمَّم عند الجانب الآخر من الحاجز.

ثمّ اقترح صغرون أن يُحاوِلوا الوقوف، فحاولوا وتبيَّن لهم أنّهم يقدرون أن يقفوا. وعندئذٍ مدَّ بِركَهموم إحدى يديه إلى الوراء ليُمسك بها صغرون، ومدَّ صغرون إحدى يديه إلى الوراء لتمسك بها جِلّ (وقد تمنَّت كثيراً لو تكون هي الوُسطى في المجموعة لا الأخيرة)، وأخذوا يتلمّسون طريقهم بأقدامهم ويتقدّمون متعثّرين وسط الظلام. وكان كلّ ما تحت أقدامهم حجارة مُتقلقِلة. ثمّ وصل بِركَهموم إلى جدارٍ صخريّ، فانعطفوا قليلاً إلى يمينهم وأكملوا السَّير. وكان هنالك مقدارٌ كبيرٌ بعدُ من المُنعطفات والزوايا، حتّى فقدت جِلّ حسَّ الاتّجاه ولم تعُد لديها أيّة فكرة عن موقع فوّهة الكهف.

وسُمع صوت بِركَهموم من قلب الظلمة في المقدّمة يقول: «السؤال الآن هو: أليس من الأفضل — إذا جمعنا الأمور بعضَها مع بعض — أن نرجع (إذا قدرنا) ونُفاوِض المَرَدة في وليمتهم تلك، بدل أن نضلَّ طريقنا في سراديب تلّةٍ من المؤكّد تماماً أنّ فيها تنانين وحُفَراً عميقة وغازاتٍ ومياهاً و... آوا! أفلِتاني! أنقِذا أنفسكما! إنّني...».

وبعد ذلك جرى كلُّ شيء بسرعة. فقد سُمِعت صرخة ذُعر، وصوتُ هسهسة وانهيال تُرابٍ وحصى، وقعقعة حجارة. ووجدت جِلّ نفسَها تنزلق وتنزلق، وتنزلق انزلاقاً يائساً يتسارع كلَّ لحظة، هابطةً في مُنحدر يزداد انحداراً كلَّ لحظة. لم يكن مُنحدراً صُلباً ناعماً، بل مُنحدر حجارة صغيرة ورُكام. حتّى لو أمكنك أن تقف، ما كان ذلك لينفع. فأيُّ جزء من ذلك المُنحدر تضع قدمك عليه، يزلُّ من تحتك ويحملك معه إلى الأسفل. غير أنَّ جِلّ كانت مُستلقيةً أكثر منها واقفة. وكلّما انزلقوا جميعاً إلى مسافةٍ أبعد، زادت بَعثرتُهم لكلِّ الحجارة والتُّراب، حتّى إنَّ السقطة الكُبرى إلى الأسفل لكلِّ شيء (بما في ذلك هُم أنفسهم) كانت أسرع وأعلى ضجيجاً وأكثر غباراً وتُراباً ووسخاً. ومن الصرخات الحادّة وعبارات التوعُّد الصادرة عن الآخَرين، تكوَّنت لدى جِلّ فكرةٌ بأنَّ مقداراً كبيراً من الحجارة التي كانت تُزيحها كان يصدم صَغرون وبِركَهموم صدماً شديداً. وكانت عندئذٍ قد أخذت تسقط بسرعة هائلة، وتأكَّد لها تماماً أنّها ستتمزَّق إرْباً إرْباً عند بلوغها القعر.

ولكنَّ ذلك لم يحصل، بطريقةٍ من الطرق. إذ أسفرت السقطة عن كتلة من الرضوض، وبدا لها أنَّ تلك المادّة الرطبة اللزجة على وجهها هي دَم. وقد تكوَّمت حولها (وفوقها إلى حدٍّ ما) كميّة كبيرة من التراب والحصى والحجارة الأكبر حجماً، حتّى إنّها لم تقدر أن تنهض.

وكانت الظلمة حالكة جدّاً بحيث لا يحدث أيُّ فرقٍ إطلاقاً إنْ فتحتَ عينيك أو أغمضتهما. ولم يُسمَع أيُّ صوت. فكانت تلك بالذات أسوأ لحظة مرَّت يوماً في حياة جِلّ. ماذا لو كانت وحدها؟ ماذا لو أنَّ الآخَرين...؟ ثُمَّ سمعت حركةً حولها. وإذا الثلاثة كلُّهم، بأصواتٍ مرتعشة، يُفسِّرون أنَّ أيّاً منهم لم يكسر عظماً من عظامه على ما يبدو. ثمَّ قال صوت صغرون:

«لا يمكننا أبداً أن نصعد هذه المسافة كلَّها من جديد!»

وقال صوت بِركهموم: «وهل لاحظتما كم المكانُ هنا دافئ؟ فهذا يعني أنّنا قد هبطنا إلى الأسفل مسافةً طويلة جدّاً. ربّما كيلومتراً ونصفاً على وجه التقريب».

فلم يقُل أحدٌ شيئاً. ثُمَّ بعد مدَّةٍ أضاف بِركهموم: «لقد فقدتُ عُلبة القَدْح الخاصّة بي».

وبعد وقفة طويلة أخرى، قالت جِلّ: «أنا عطشانة عطشاً شديداً جدّاً».

ولم يقترح أحدٌ القيام بأيِّ شيء. فقد كان واضحاً جليّاً أنّه ليس من شيءٍ يمكن القيام به. إنّما في ذلك الحين، لم يشعروا بسوء الحال كثيراً كما قد يتوقَّع المرء؛ وذلك لأنّهم كانوا مُتعَبين للغاية.

وبعد ذلك بوقتٍ طويلٍ جدّاً، بغير أيِّ إنذار، تكلَّم صوتُ غريبٌ تماماً. وقد عرفوا حالاً أنّه ليس ذلك الصوت الوحيد في الدُّنيا الذي طالما تمنّى كلٌّ منهم في قرارة

نفسه أنَ يسمعه، أي صوت أصلان. إذ كان صوتاً مُظلِماً مُسطَحاً، يكاد أن يكون فاحماً شديد السواد... إن فهِمْتَ ما معنى ذلك. وقد قال: «ماذا تفعلون هُنا، يا مخلوقات العالَمِ الأعلى؟»

الفصل العاشر

سَفَرٌ بلا شمس

صاح المسافرون الثلاثة: «مَن هناك؟»

فجاء الجواب: «أنا قيِّم مستنقعات العالَم السُّفليّ، ومعي مئةُ مُسلَّح من أهل الأرض. قولوا لي بُسرعة مَن أنتم ولماذا جئتُم إلى أعماق الأرض؟»

وقال برِكَهموم بكلّ صدق: «لقد سقطنا صِدفةً».

فردَّ الصوت: «كثيرون يسقطون إلى هُنا، وقليلون يرجعون إلى الأراضي التي تُنيرها الشمس. فاستعدُّوا الآن لمُرافقتي إلى مَلِكة أعماق الأرض». وسأل صغرون بحَذر: «وماذا تُريدُ تلكَ منّا؟»

فقال الصوت: «لستُ أدري. ولا ينبغي فحصُ إرادتها، بل إطاعتُها».

وبينما هو يقول هذه الكلمات سُمع صوتٌ يُشبه انفجاراً خفيفاً، وفي الحال أضاء أرجاءَ الكهفِ الكبير نورٌ فاترٍ، رماديٌّ تتخلّله بعضُ الزُّرقة. وفجأةً تبدَّد كلُّ أمَلٍ بأنَّ المتكلّم كان يُفاخر مفاخرةً باطلة لمّا ذكر أتْباعَه المسلَّحين المئة. فقد وجدت جِلّ نفسها تطرف بعينيها محدِّقةً إلى

حَشدٍ كبير يضمُّ أشخاصاً مُختلفي الأحجام: من الأقزام الصغار الذين يبلغ طولُ الواحد منهم قَدَماً واحدة تقريباً، إلى الأشخاص الضّخام الذين يزيد طول الواحد منهم عن طولِ إنسان. وقد حملوا كلُّهم رماحاً ثُلاثيَّة الأسِنَّة، وكانوا كلُّهم شاحبي الوجوه على نحوٍ مُروِّع، ووقفوا كلُّهم جامدين كالتماثيل. وعدا ذلك، كانوا مختلفين بعضُهم عن بعضٍ كثيراً: فبعضُهم كانوا ذوي أذناب، وبعضُهم بلا ذَنَب؛ وبعضهم كانوا ذوي لِحىً كبيرة، وبعضهم كانت لهم وجوه ناعمة مدوَّرة تماماً كاليقطين الكبير. وظهرت أُنوفٌ طويلة حادَّة الطَرَف، وأنوفٌ طويلة ليِّنة كالخراطيم الصغيرة، وأنوفٌ كبيرة لمّاعة مُلطَّخة. وكان لعددٍ منهم قرونٌ وحيدة في منتصف جباههم. غير أنَّهم كانوا كلُّهم مُتشابِهين في أمرٍ واحد: أنَّ كلَّ وجهٍ من تلك الوجوه المئة جميعاً كان حزيناً كأقصى ما يمكن أن يكون أيُّ وجه. فقد كانوا حزانى للغاية، حتّى إنَّ جِلّ — بعد أوَّل نظرة



إليهم — نَسِيت أن تخاف منهم، إذ شعرت بأنَّها قد ترغب في إبهاجهم.

وقال بِركَهموم فاركاً يديه: «حسناً! هذا هو تماماً ما كان يُعوزني. فإنْ كان هؤلاء الفِتيان لا يُعلِّمونني أن أنظر إلى الحياة بعينِ الجِدّ، فلستُ أدري ماذا يُمكِن أن يُعلِّمني ذلك. انظرا إلى ذلك الفتى ذي الشاربين المتهدِّلين... أو إلى ذاك الذي له..».

عندئذٍ قال قائد أهلِ جوف الأرض: «انهضوا!»

ولم يكن ممكناً فعل شيءٍ غير ذلك. فهبَّ الثلاثةُ واقفين، وأمسكوا بعضهم بأيدي بعض. والمرءُ يحتاج إلى لمسة صديق في مثل هذه اللحظات! ثمَّ تحلَّق أهلُ جوف الأرض حواليهم وهم يمشون على أقدامٍ كبيرةٍ طريَّة، في بعضها عشر أصابع، وفي بعضها اثنتا عشرة إصبعًا، وبعضُها بلا أصابع بتاتاً.

ثمَّ قال القيِّم: «إلى الأمام سِر!» فساروا إلى الأمام فعلاً.

كان النور الفاتر ينبعث من كُرَةٍ كبيرة على رأس سارية طويلة، فحمل أطول الأقزام ذلك الضَّوء في مقدِّمة الموكب. وبفضل أشعَّته الكئيبة، تمكَّن الثلاثة من أن يَروا أنَّهم كانوا في كهفٍ كبير طبيعيّ، كانت حيطانه وسقفه ذات عُقَد والتواءات وأخاديد تظهر في ألف شكل خلّاب، فيما كانت أرضيَّته الحجريَّة تزداد انحداراً كلَّما تقدَّموا. وقد كان الوضع بالنسبة إلى جِلّ أسوأ ممّا كان

بالنسبة إلى الآخرين، لأنها كانت تكره الأماكن المظلمة الواقعة تحت الأرض. ثمَّ حينَ أخذ الكهف ينخفض أكثر، وهم يتقدَّمون، وحين وقف حاملُ الضوء في الأخير جانباً، وانحنى القَوم واحداً واحداً (كلُّهم ما عدا الأصغَرين منهم)، ودخلوا إلى شقٍّ مُظلِم صغير، واختفَوا، حينئذٍ شعرت بأنَّها لم تعُد تستطيع أن تحتمل ذلك، فقالت لاهثةً:

«لا أقدر أن أدخل إلى هناك، لا أقدر! لا أقدر! لن أدخُلَ!»

فلم يقُل أهل جوف الأرض شيئاً، بل خفضوا كلُّهم رماحَهم وصوَّبوها نحوها.

وقال برِكَهموم: «تماسكي، يا جِلّ! هؤلاء الفتيان الكبار ما كانوا ليدخلوا زاحفين إلى هناك، لو لم يكُن المكان أوسع في الداخل. ثمَّ إنَّ لوجودنا تحت الأرض فضلاً: فالمطر لن يسقط علينا هنا!»

فقالت جِلّ شاكيةً: «آه، أنت لا تفهم قصدي. إنَّني لا أقدر».

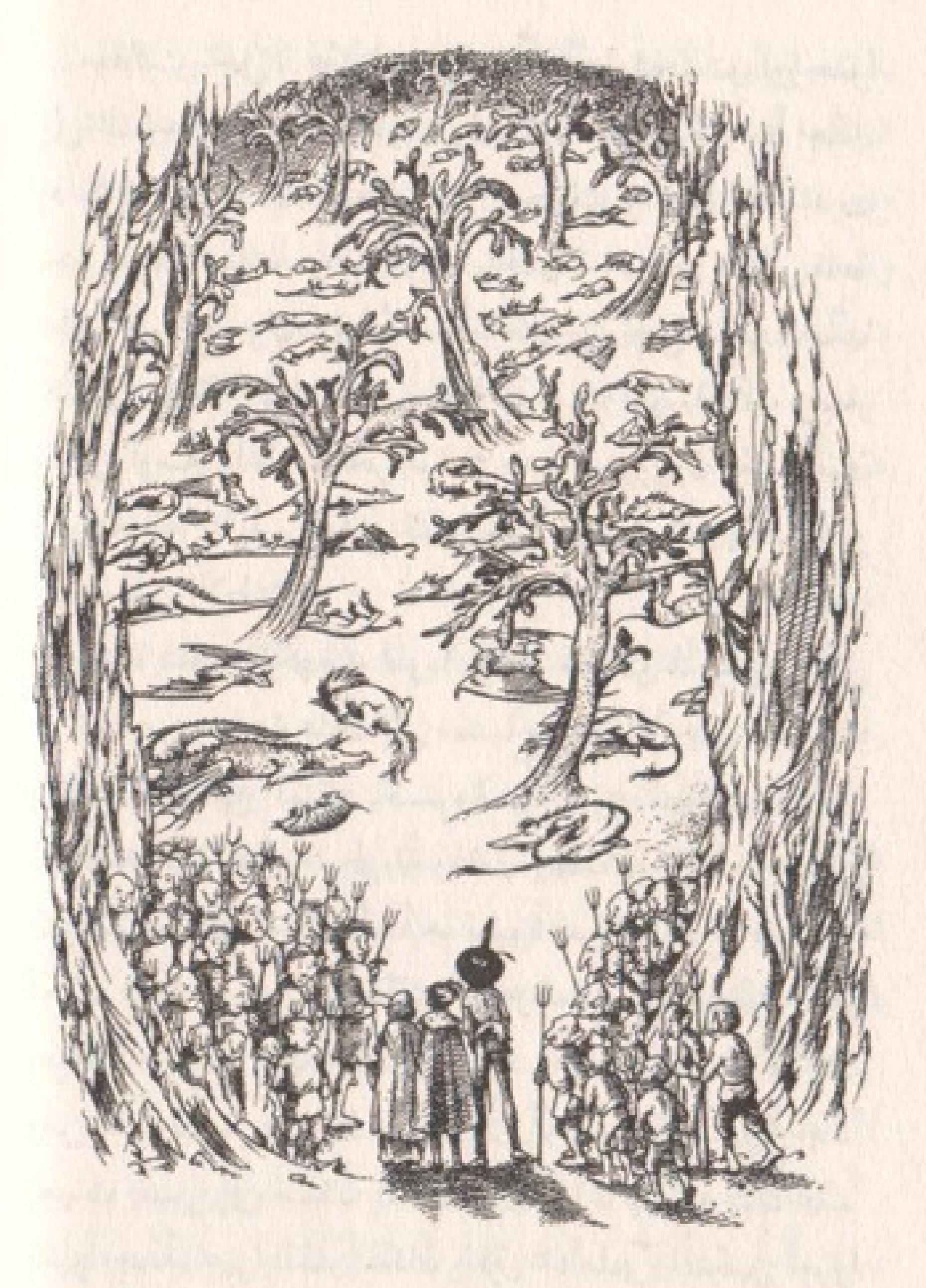
وقال صغرون: «فكِّري كيف كان شعوري أنا على ذلك الجُرف، يا پول. فادخل أنتَ أوَّلاً، يا برِكهموم، وأنا أدخل وراءها».

فقال ساكن المستنقعات وهو ينـزل على يديه وركبتيه: «هذا صحيح! تمسَّكي بعقِبَيَّ يا پول، وصغرون سيتمسَّك بعقِبَيكِ. وعندئذٍ نكون كلُّنا مُرتاحين».

وقالت جِلّ: «مُرتاحين!» إلّا أنَّها انحنت، وزحفوا إلى الداخل على مَرافقهم. وقد كان المكان مُزعِجاً جدّاً. إذ كان عليكَ أن تنبطح على وجهك زاحفاً مُدَّةً بَدَت نحو نصف ساعة، رغم كونها بالحقيقة خمس دقائق فقط على الأرجح. وكان الجوُّ حارّاً. حتّى إنَّ جِلّ شعرت بأنَّها تُشوى. ولكنْ في الأخير ظهر قُدّامهم نورٌ باهت، وصار النفق أوسع وأعلى، فخرجوا — وهم محرورون ومُتَّسِخون ومُرتجفون — إلى كهفٍ كبير جدّاً بحيثُ لم يكَد يبدو كهفاً على الإطلاق.

كان ذلك الكهف مملوءاً بوهجٍ خافتٍ مُنعِس، حتّى لم تعُد من حاجةٍ هناك إلى مصباحِ أهل الأرض الغريب. وكانت الأرض ليِّنةً، يكسوها نوعٌ من الطُحلُب، ومنه تطلع أشكالٌ غريبة: طويلةٌ وذاتُ أغصان كالشجر، لكنْ مُترهِّلة كالفُطر. وكان أحدُها بعيداً عن الآخر بحيث لا تُكوِّن غابة، بل ما يُشبه مُتنزَّهاً. وقد بدا أنَّ الضوء (وهو رماديٌّ ضاربٌ إلى الخُضرة) ينبعث من تلك الأشكال ومن الطُحلب على السواء، إلّا أنّه لم يكُن قويّاً جدّاً بحيث يصل إلى سقف الكهف الذي لا بُدَّ أنّه كان عالياً كثيراً جدّاً. عبرَ ذلك المكان الليِّنَ الأملس المُنعِّس أمِروا أن يتقدَّموا إلى الأمام. وقد كان الجوُّ حزيناً جدّاً، ولكنْ حُزناً هادئاً مثل الموسيقى الرقيقة.

وهناك تجاوزوا عشرات الحيوانات الممدَّدة على التُربة، إمّا ميْتةً وإمّا نائمة، إذْ لم تقدر جِلّ أن تُحدِّد أيّاً من الحالَين.



وكانت في مُعظمِها أشبه بالتنانين أو الخَفافيش، ولم يعرف برِكهموم ماذا كان أيٌ واحدٍ منها.

وسأل صغرونُ القيِّم: «هل تتربّى هذه هُنا؟» فبدا القيِّمُ مدهوشاً جداً بأن يُخاطَب، ولكنّه أجاب: «كلا! فهذه كلُّها

حيوانات هبطت إلى هنا من طريق الشقوق والكهوف، خارجةً من العالَم العُلْويّ إلى أعماق الأرض. كثيرٌ ينزل إلى هنا، وقليلٌ يرجع إلى الأراضي التي تُنيرها الشمس. ويُقال إنّ هذه كلّها سوف تستيقظ عند نهاية العالم».

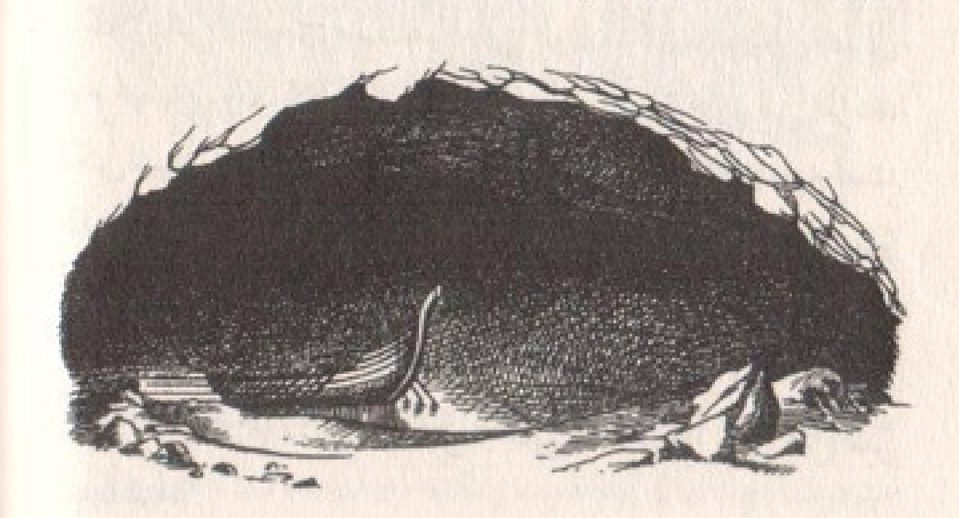
ثمَّ انطبق فمُه كالصندوق بعدما قال ذلك. وفي السكون الشامل الذي خيَّم على أرجاء ذلك الكهف، شعر الولَدان بأنّهما لن يجرؤا أن يتكلّما ثانيةً. فأقدامُ القوم الحافية، وهي تدوس الطُحلُبَ الكثيف، لم تُصدِر أيَّ حسّ. ولم تكن رياح، ولا طيور، ولا كان خريرُ ماء؛ ولا صدر من البهائم الغريبة أيُّ صوتٍ تنفُّس.

وبعدما ساروا بضعة كيلومترات، وصلوا إلى حائطٍ صخريّ، فيه دهليز منخفض يؤدّي إلى كهفٍ آخر. غير أنّه لم يكن سيّئاً مثل المدخل الأخير، واستطاعت جلّ أن تدخل منه بغير أن تُخفِض رأسها. وقد أفضى بهم إلى كهفٍ أصغر، طويلٍ وضيِّق، يُشبِه كاتدرائيَّة شكلاً وحجماً. وهناك رأوا رجُلاً هائل الحجم، مستلقياً على طول المكان تقريباً، يغطُّ في نوم عميق. وقد كان أكبر بكثير جدّاً من أيّ ماردٍ من المَرَدة، لكنْ نبيلاً وجميلاً. وكان صدره يعلو وينخفض بهدوء تحت اللحية الثلجيَّة التي غطّته حتّى الخصر، وقد استقرّ عليه نورٌ فضّيٌّ صافٍ (لم يرَ أحدٌ مصدره).

وسأل برِكهموم: «مَن ذلك؟» وكان قد مرّ وقت طويل على آخِر كلامٍ سبق أن قيل، حتّى تساءلت جِلّ عن سرّ شجاعته.

فأجاب القيِّم: «هذا هو الأبُ الشيخُ زمان، وقد كان في ما مضى ملكاً في العالَم العُلويّ. وهو الآن هابطٌ في أعماق الأرض، حيث ينام حالِماً بكلّ الأمور التي تُعمل في العالَم الأعلى. كثيرون يَهوُون إلى هنا، وقليلون يرجعون إلى الأراضي التي تُنيرها الشمس. ويُقال إنّه سوف يستيقظ عند نهاية العالم».

ومن ذلك الكهف عبروا إلى كهفٍ آخر، ثُمَّ إلى آخر فآخر، وهكذا دَوالَيك حتّى لم تعُد جِلّ تقدر أن تعدّ. غير أنّهم كانوا دائماً يهبطون نزولاً، وكان كلُّ كهفٍ أوطأ من سابقه، حتّى إنّ مجرَّد التفكير بثقل الأرض وسُمكها فوق رأسك كان يكفي لإصابتك بالاختناق. وفي الأخير وصلوا إلى مكانٍ فيه أمر القيِّم بإنارة مصباحة الرتيب غير المُبهج من جديد. ثمّ انتقلوا إلى كهفٍ واسعٍ ومُظلِم جدّاً بحيث لم يقدروا أن يرَوا منه شيئاً سوى أنّ شريحةً من الرمل الباهت قُدّامهم تماماً كانت تنحدِر إلى



مياهٍ رائقة. وهناك، إلى جانب رصيفٍ صغير، استقرّت سفينة بلا صَارٍ ولا أشرعة، لكنْ بمجاذيفَ كثيرة. فطُلِب إليهم أن يصعدوا إلى متنها ويتقدّموا إلى أعلى المُقدَّم، حيث كان قُدّامَ مقاعد المجذِّفين فُسحةٌ خالية ومقعدٌ دائريٌّ تحت حافَة المقدَّم العُليا.

وقال بِركَهموم: «أمرٌ واحد أودُّ أن أعرفه: هل سبق أن قام بهذه الرحلة أيُّ واحدٍ من عالَمِنا، أعني من الساكنين على سطح الأرض في الأعلى؟»

فأجاب القيِّم: «كثيرون ركبوا السفينة عند الشواطئ الباهتة. ثُم..».

عندئذٍ قاطعه بِركَهموم قائلاً: «نعم، أنا أعرف: 'وقليلون يرجعون إلى الأراضي التي تُنيرها الشمس.' فلا داعيَ لأن تُعيد هذه العبارة. إنّك فعلاً صاحبُ فكرة واحدة وجواب واحد، أليس كذلك؟»

وقد تكوَّم الولَدان معاً مُلتصِقَين بكِلا جانبَي بِركَهموم. وكانا قد حسباه مُنغِّصاً للعيشة لمّا كانوا ما يزالون فوق الأرض؛ غير أنّه هُناك في الأسفل بدا لهما أنّه المُعزّي الوحيد لديهما. ثمّ عُلِّق المصباح الباهت في وسط السفينة، وقعد أهلُ جوف الأرض إلى المجاذيف، وبدأت السفينة تتحرّك، والمصباح يُلقي ضوءَه إلى مسافةٍ قصيرة جدّاً فقط. وهكذا، فعند النظر إلى الأمام، لم يَرَوا سوى المياه الرائقة المُعتِمة مُتلاشيةً في قلب سوادٍ شامل.

عندئذٍ قالت جِلّ يائسةً: «آه، ماذا سيجري لنا يا تُرى؟»

فقال ساكن المستنقعات: «والآن، لا تبتئسي، يا بول! فهنالك أمرٌ واحد يجب أن تتذكّريه: أنّنا عُدنا إلى السكّة الصحيحة. فقد كان علينا أن نمضي إلى ما تحت المدينة الخَرِبة، وها نحن تحتها! فنحن نعمل بالتعليمات من جديد».

أنذاك قُدّم لهم طعام: كعكٌ مُسطَّح طريّ من نوع ما، لم يكُن له أيُّ طَعم تقريباً. وبعد ذلك، غطغط عليهم النوم واحداً بعد الآخر. إلّا أنّهم لمّا استيقظوا، وجدوا كلّ شيء على حاله تماماً: القَوم ما زالوا يُجذّفون، والسفينة ما زالت تنساب، والظلام الحالك ما زال قدّامهم. ولم يتذكّر أيٌّ منهم كم مرّةً استيقظوا وناموا، وأكلوا وناموا من جديد. وأسوأ ما في الأمر أنّك تبدأ تتصوّر كما لو كنتَ تعيش على متن تلك السفينة دائماً، في قلب ذلك الظلام، وتتساءل عنِ الشمس والسماء الزرقاء والرياح والطيور: ألم تكُن مجرّد حلم من الأحلام؟

وكادوا يتخلّون عن أيّ أمل، أو عن الخوف على أيّ شيء، لمّا رأوا أمامهم في الأخير أنواراً: أنواراً ضئيلة كنور مصباحهم. ثمّ اقترب منهم فجأةً واحدٌ من تلك الأنوار، فتبيّنَ لهم أنّهم يتجاوزون سفينة أُخرى. وبعد تلك التقَوا بضعَ سُفنٍ أيضاً. وعندما حدّقوا حتّى آلمتهم عيونُهم، رأوا أنّ بعضاً من الأنوار التي أمامهم كانت

ترتمي على ما بدا كأنّه أرصفةُ تحميل وأسوار وأبراج وجموعٌ سائرة. ولكنْ مع ذلك لم يكُن يُسمَع أيُّ صوتٍ تقريباً.

فقال صغرون: «يا للسّماء! تلك مدينة!» وسرعان ما تبيّنَ للجميع أنّه كان على حقّ.

غير أنّها كانت مدينة غريبة عجيبة. فقد كانت الأضواء قليلة ومتفرّقة جداً بحيث لم تكُن لتكفي تماماً أكواخاً مُتباعِدة في عالَمِنا. ولكنّ أجزاء المكان الصغيرة التي كان يمكنك أن تراها بفضل تلك الأضواء بدت شبيهة بملامح ميناءٍ بحريّةٍ كبيرة. إذ كان يمكنك أن تتخيّل في مكانٍ ما مجموعة كاملة من السفن تُفرّغ أو تُحمّل؛ وفي مكانٍ آخر بالاتِ بضائعَ ومستودعات؛ وفي مكانٍ ثالث أسواراً وأعمدة توحي بوجود قصور عظيمة أو معابد ضخمة؛ ودائماً في كلّ مكانٍ يسقط عليه النور جماهير لا تُحصى: مئاتٍ من أهلِ جَوف الأرض يزحمون بعضُهم بعضاً وهم يسيرون بخفّة منصرفين إلى شؤونهم في الشوارعِ الضيّقة، أو الساحات الواسعة، أو على أدراج طويلة. وكلّما صارت السفينة أقربَ فأقرب، كانت حركتُهم الدائبةُ تُصدِر نوعاً من حسّ الهمهمة. ولكنْ لم يُسمَع في أيّ مكان غناءٌ أو صياحٌ أو جَرَس أو صليلُ دواليب. فقد كانت المدينة تُشبِه جوفَ تلّةِ نَمْلٍ في سكونها، وفي ظلامها تقريباً.

أخيراً أُوقِفت السفينة بمحاذاة رصيف، ورُبِطت جيّداً. وأُنزِلَ المسافرون الثلاثة إلى الشاطئ، ومن ثمّ

تقدَّموا إلى داخل المدينة، حيث احتكَّ بهم في الشوارع المزدحمة جموعٌ من أهل جوف الأرض ليس بينهم اثنان مُتشابِهان، وسقط الضوء الحزين على كثير من الوجوه الكئيبة والغريبة البشعة. ولكنْ لم يَبدِ أيُّ واحد أدنى اهتمامٍ بالغرباء الثلاثة. إذ بدا أنَّ كلَّ واحد منهم مشغولٌ كما هو حزين، مع أنَّ جِلَّ لم تعرف قطُّ بأيِّ شيءٍ كانوا مشغولين. غير أنَّ الحركة الدائبة والتدافُع والسرعة الدائمين ووقْع الأقدام الهيِّن اللَّيِّن استمرَّت كلُّها.

وفي الأخير وصلوا إلى ما بدا أنّه قصر كبير، وإن كان عددٌ قليل من نوافذه مُضاءً. فإلى هناك أُدخِلوا وطُلب إليهم أن يجتازوا ساحةً بعدما صعِدوا عدَّة مجموعات من الأدراج، حتّى وصلوا في نهاية المطاف إلى غرفة كبيرة مُضاءةٍ ضوءاً مُعتِماً، ولكنْ كان في إحدى زواياها — ويا للبهجة! — مدخلٌ تحت قنطرة يغمرها نورٌ من نوع مختلف تماماً: نورٌ دافئٌ ضاربٌ إلى الصُّفرة كالذي يصدر عن المصابيح التي يستعملها البشر. وقد كشف ذلك النورُ في آخر المجاز المُقنطَرِ أسفلَ دَرَجٍ يصعد متعرِّجاً بين حائطين حجريَّين. وبدا أنَّ النور منبعثٌ من الأعلى. وقد وقف اثنانِ من أهل جوف الأرض إلى كِلا جانبَي القنطرة، واحدٌ من هنا وواحدٌ من هناك، كأنَّهما حارسان أو خفيران.

فتقدَّم القيِّم إلى هذين الاثنين، وقال كمن يتلو كلمة سِرّ: «كثيرون يهبطون إلى العالمَ السُّفليّ».

فردًا وكأنَّهما يذكران كلمة السِّرّ المُقابلة: «وقليلون يرجعون إلى الأراضي التي تُنيرها الشمس».

ثمَّ قرَّب الثلاثة رؤوسَهم بعضَها من بعض وأخذوا يتحدَّثون. وأخيراً تكلَّم أحد ذَينِك الحارسَين قائلاً: «أقول لكم إنَّ جلالة الملكة ذهبت من هُنا للقيام بعملها العظيم. فمن الأفضل أن نُبقي ساكني سطح الأرض هؤلاء محبوسين محروسين حتّى وقت عودتها. قليلون يرجعون إلى الأراضي التي تنيرها الشمس».

في تلك اللحظة قاطعَ الحديثَ ما بدا لِجِلَّ أجملُ صوتٍ في الدنيا؛ وقد صدر من فوق، من أعلى الدَّرَج، وكان صوتاً واضحاً مُدوِّياً، صوتاً بشرياً كاملاً، صوتَ شابٍّ صاحَ قائلاً:

«ماذا تحتجز هناك في الأسفل، يا مُلْغَثرِم؟ بعضاً من أهل العالمَ الأعلى، هَه! أصعِدْهم إليَّ هنا، حالاً!»

فبدأ مُلْغَثرِم يقول: «هلّا يُرضي سُموّك أن تتذكَّر..».

ولكنَّ الصوت قطع عليه الطريق، صائحاً: «يُرضي سُموِّي بشكلٍ أساسيٍّ أن أُطاع، أيُّها الثرثار المُسِنّ. أصعِدهم إلى هنا».

فهزَّ مُلْغَثرِم رأسه، وأومأ للمسافرين بأن يتبعوه، وبدأ يصعد الدَّرَج. وعند كلِّ درجة، كان الضوء يزداد؛ وقد عُلِّقت على الحيطان مُطرَّزاتٌ فاخرة. وشعَّ نور المصباح ذهبيّاً من خلال ستائر رقيقة عند أعلى الدَّرَج.

ثُمَّ أزاح ابنا جوف الأرض الستائر ووقفا جانباً، فدخل

الثلاثة. وإذا بهم في غرفة جميلة مفروشة بالسجّاد الفاخر، تتأجّج فيها نارٌ على موقد نظيف، ويتلألأ نبيذ أحمر وزجاجٌ مصقول مُزَخرف على الطاولة. ونهض شابٌ أشقر الشعر مرحّباً بهم. وقد كان وسيماً، وتبدو عليه الجرأة واللطف معاً، مع أنّ شيئاً في ملامح وجهه بدا غير طبيعيٍّ تماماً. وكان لابساً ثياباً سوداء، وقد بدا على العموم شبيهاً بهاملِت (البطل الشكسبيريّ).

وما إن رآهم حتّى صاح: «أهلاً بكم، يا أهل العالم الأعلى. ولكنْ مهلاً! ألتمس صَفحكم! لقد رأيتكم قبلاً، أنتما أيُّها الولَدان الوسيمان، وأنت أيُّها الوالي الغريب. ألَم تكونوا أنتم الثلاثة مَن قابلوني عند الجسر على حدود سَبْخة أتّنـز لَمّا كنتُ راكباً على حصاني بصحبة سيِّدتي؟»

فهتفت جِلّ: «أوه... كُنتَ أنت الفارسَ الأسوَد الذي لم يتكلَّم قطّ؟»

وسأله برِكَهموم بصوتٍ غير ودود جدّاً: «وهل كانت تلك السيِّدة هي ملكة العالم السُّفليّ؟»

أمّا صغرون، وقد خطرت في باله الفكرةُ عينُها، فاندفع قائلاً بحدَّة.

«لأنَّها إن كانت هي إيّاها، فأظنُّ أنَّها تصرَّفت حقّاً بكلِّ دناءة إذ بعثَتنا إلى قصر مَرَدة نَوَوا أن يأكلونا. فأودُّ أن أعرف أيَّ ضرر أو إساءة سبَّبنا لها حتّى تعملَ هذا؟»

فقال الفارس الأسود عابساً: «ماذا؟ لو لم تكن محارباً صغيراً جدّاً، يا صبيّ، لكان ينبغي أن نتقاتل أنا وأنت

حتّى الموت في هذا الشجار. فلستُ أطيق أن أسمع أيَّ كلام بحقّ شرف سيِّدتي. ولكنْ كونوا على يقين أنَّها مهما قالت لكم فقد كانت حسنة النيَّة. أنتم لا تعرفونها. فهي باقة زَهرٍ من جميع الفضائل، كالصِّدق والرحمة والوفاء واللطف والشجاعة، وما تبقّى. وأنا أقول ما أعرفه تماماً. فإنّ إحسانها إليّ وحدي — وأنا أعجز عن مكافأتها بأيّة طريقة كانت — من شأنه أن يكون تاريخاً يدعو إلى الإعجاب. ولكنَّكم سوف تعرفونها وتحبُّونها في ما بعد. إنَّما في هذه الأثناء، ما الغرَض من رحلتكم إلى أعماق الأرض؟»

وقبل أن يتمكَّن برِكَهموم من إيقاف جِلّ اندفعت قائلةً: «رجاءً، نحن نحاول أن نعثر على ريليان، أمير نارنيا». ثمّ أدركَت أيّة مغامرة مَهولة غامَرت، إذ ربّما كان أولئك القوم أعداءً. ولكنّ الفارس لم يُبدِ أيَّ اهتمام، وقال بلامبالاة:

«ريليان؟ نارنيا؟ نارنيا؟ أيُّ بَلَدٍ ذاك؟ ما سمعتُ بهذا الاسم قطّ. لا بدَّ أنَّه يبعد ألفَ فرسخ عن تلك الأقسام التي أعرفها من العالم الأعلى. ولكنَّه كان وهماً غريباً ذاك الذي أتى بكم للبحث عن هذا الذي... ماذا تُسَمُّونه؟... بِلْيان؟ ترِلْيان؟ في عالمَ سيِّدتي! فبالحقيقة، حسب عِلمي اليقينيّ، ليس هنا رجلٌ كهذا». وعندئذٍ ضحك ضحكاً عالياً جدّاً، ففكّرت جِلّ برأسها: «تُرى، أليس ذلك بدا غريباً في ملامح وجهه؟ أهو أبلهُ قليلاً؟»

وقال صغرون: «لقد قيل لنا أن نبحث عن رسالة على حجارة مدينة الخراب. وقد رأينا الكلمتين **'تحتي أنا'**».

فضحك الفارس بعدُ ضحكاً أكثر حماسةً من ذي قبل، وقال: «لقد خُدِعتُم خدعةً كُبرى. فهاتان الكلمتان لم تعنيا شيئاً يخدم مقصدكما. ولو سألتم سيِّدتي، لقدَّمت لكم مشورةً أفضل. إذ إنَّ هاتين الكلمتين هما كلُّ ما بقي من كتابةٍ أطول عبرَّت في قديم الزمان — كما تتذكَّر سيِّدتي جيِّداً — عمّا يلي:

«رُغم أنيّ الآن أُقيم تحت الأرضِ وبلا عرشٍ هنا،
فلمّا كنتُ حيّاً كانتِ الأرضُ كلُّها تحتي أنا».

ومن هذا يتَّضح أنَّ ملكاً عظيماً من ملوك المَرَدة الأقدمين، مدفوناً هناك، كان قد أمر بنحت هذا التفاخُر بواسطة الحجارة فوق قبره. إلّا أنَّ تكسير بعض الحجارة، وحمْل بعضها إلى أمكنة بعيدة لإنشاء مبانٍ جديدة، وسقوطَ الرُكام على مُعظم الأحرف المحفورة، لم تُبقِ كلُّها إلّا كلمتين فقط تُمكِن قراءتهما. أفليست أطرف نُكتة في الدنيا إذاً أن تحسبوا أنَّ هاتين الكلمتين كُتِبتا لكم خصوصاً؟»

وكان ذلك كماءٍ بارد صُبَّ على ظهرَي صغرون وجِلّ. إذ بدا مُرجَّحاً جدّاً عندهما أنَّ الكلمتين لا علاقة لهما قطعاً بمسعاهم، وأنَّ محض صدفة قد خدعتهما.

ولكنَّ بركَهموم قال: «لا تُباليا بما قاله. فليس من صِدَفٍ أبداً. إنَّ مُرشِدنا هو أصلان، وقد كان موجوداً لمّا طلب الملك المارد حفر تلك الحروف، كما كان يعرف كلَّ الأُمور التي ستنتج منها، بما فيها هذا».

فقال الفارس بضحكة أُخرى من ضحكاته: «لا بُدَّ أن يكون مرشدك هذا طويل العمر، يا صاحِ!»

وكانت جِلّ قد بدأت ترى في تلك الضحكاتِ بعضَ الإزعاج والإحراج.

ثمَّ أضاف بِركَهموم: «ويبدو لي، يا سيِّدي، أنَّ سيِّدتك تلك لا بدَّ أن تكون طويلة العمر أيضاً، إن كانت تتذكَّر كامل الكتابة كما كانت عند حفرها».

فربَّت الفارس كتف بِركَهموم. وعاد يضحك من جديد: «كم أنتَ داهية يا وجه الضفدع! لقد أصبتَ كبد الحقيقة. فهي من جنسٍ خالد، ولا تعرف التقدُّم في السنِّ ولا الموت. وأنا شاكرٌ لها جدّاً على إحسانها غير المحدود إلى بائسٍ فانٍ مسكينٍ مثلي. إذ ينبغي أن تعرفوا، يا سادة، أنّني رجلٌ يُعاني أغرب الآلام، ولم يكُنْ ممكناً أن يُبديَ لِي الصبرَ أحدٌ غير جلالة الملكة. هل قلتُ 'الصبر'؟ إلّا أن الأمر يتخطّى هذا إلى أبعد حدّ. فهي قد وعدَتني بمملكة عظيمة في العالَم العُلويّ وبأن تُعطيَني يدها الفائقةَ الجُود بالزواج عندما أصير ملكاً. ولكنَّ القصّةَ أطول من أن تسمعوها وأنتم جائعون وواقفون. هاي، أنتم هُناك، ليُحضِر بعضٌ منكم إلى

ضيوفي هؤلاء نبيذاً وطعاماً مما يأكله أهلُ سطح الأرض! تفضَّلا، أنتما أيُّها السيِّدان، واقعُدا. وأنتِ أيَّتها الآنسةُ الشابَّة، اقعدي على هذا الكرسيّ. ولَسوف تسمعون القصَّة كلَّها!»

الفصل الحادي عشر

في القصر المُظلم

عندما حضر الطعام (وقد كان فطائر حَمام ولحماً مُقدَّداً وسَلَطة وكعكاً) وقرَّب الجميع كراسيَّهم إلى الطاولة وبدأوا يأكلون، مضى الفارس يقول:

«ينبغي أن تعلموا، يا أصدقائي، أنَّني لا أعرف شيئاً عمَّن أنا ومن أين جئت إلى هذا العالم المُظلِم. فلا أذكر وقتاً لم أكن فيه مُقيماً، كما أنا الآن، في بلاط هذه الملكة التي أقلُّ ما تُوصَف به أنَّها فائقةُ رائعة. ولكن يُخيَّل إليَّ أنَّها أنقذتني من سحرٍ شرِّير كان عليَّ وجاءت بي إلى هنا بفضل إحسانها الفائق جداً. (يا ذا القدمين الضفدعيَّين الشريف، إن كأسك فارغة. فهلاَّ تسمح لي بملئها!) ويبدو أنَّ هذا هو الأرجح، لأنَّني الآن بالذات مُقيَّد بسِحر لا يقدر أن يحرِّرني منه سوى سيِّدتي وحدها. ففي كلِّ ليلة، تأتي ساعةٌ يتغيرُ فيها عقلي تغيُّراً رهيباً، ومن بعد عقلي يتغيَّر جسمي. إذ إنَّني أوَّلاً أستشيط غضباً وأتوحَّش بحيث قد أهجم على أعزِّ أصدقائي لأقتلهم، إن لم أكُن مربوطاً. وبعد ذلك بقليل أتحوَّل إلى ما يُشبه أفعواناً ضخماً

جائعاً فتّاكاً ضارياً. (سيّدي، تفضّل خُذ صدر حمامٍ آخر، رجاءً!) هكذا يقولون لي، وهم يقولون الحقّ حتماً، لأنّ سيّدتي تقول قولهم. وأنا نفسي لا أعرف شيئاً عن الأمر، لأنّني بعد انقضاء ساعتي أستيقظ ناسياً أمر تلك النوبة الرهيبة، بشكلي الطبيعيّ وعقلي الواعي، ما عدا كوني منهوكاً بعض الشيء. (سيّدتي الصغيرة، كُلي واحدةً من كعكات العسل هذه التي يؤتى بها إليّ من بلادٍ غير متمدّنة في أقصى جنوب العالَم.) والآن، فإنّ جلالة الملكة تعرف بحنكتها أنّني سأحرَّر من هذا السحر حالما تجعلني ملكاً على بَلَد في العالَم العُلويّ وتضع تاجه على رأسي. وهي فعلاً قدِ اختارتِ البَلَد ومكان هجومنا عليه. وأهل جوف الأرض التابعون لها قدِ اشتغلوا نهاراً وليلاً في حفر طريقٍ تحته، والآن وصلوا عالياً وبعيداً بحيث بلغ النَّفَقُ ما يقلّ عن سبعة أمتار تحت العُشب الذي يمشي عليه أهل سطح الأرض من سكّان ذلك البلد. فبعد قليلٍ جدّاً يأتي على ساكني الأرض أولئك مصيرُهم الرهيب. وهي نفسها عند مواقع الحفر الليلة، وأنا أنتظر رسالةً منها للذهاب إليها. وبعدئذٍ نخترق السطح الترابيَّ الرقيق الذي ما زال يُبعِدني عن مملكتي، ثمّ بقيادتها لي وبمساندة ألفٍ من أهل جوف الأرض أزحف بالسلاح على أعدائنا وأُطبِق عليهم فجأةً، فأقتل رؤساءهم، وأدركُ معاقلَهم، وأصير بلا شكٍّ مَلِكهم المتوَّج، في ظرف أربعٍ وعشرين ساعة!»

فقال صغرون: «ستكون هذه ضربةً قاسية عليهم من سوء حظّهم، أليس كذلك؟»

وهتف الملك: «أنت فتىً ذو عقلٍ عجيب سريع التفكير! فأُقسِمُ أني لم أُفكّر في هذا قطّ من قبل. ولقد فهمتُ قصدك».

ثمّ بدا مضطرِباً قليلاً، قليلاً جدّاً، لحظةً أو لحظتَين. ولكنْ ما لبث وجهُه أنِ انشرح، واندفع قائلاً بضحكةٍ أخرى من ضحكاته العالية: «ولكنْ أفٍّ من الرزانة! أفليس أكثر الأمور في الدنيا إضحاكاً وسخريةً أن نفكّرَ فيهم جميعاً إذ ينصرفون إلى شؤونهم وهم لا يحلمون أبداً أنّ تحت حقولهم وزهورهم الوادعة، على عُمقِ قامةٍ واحدةٍ فقط، جيشاً عظيماً على أُهبة الهجوم المُفاجئ عليهم كنبعٍ يتفجّر، بعدما لم يكُن لهم أيُّ ارتيابٍ في ذلك! حتّى إنّهم، هم أنفُسَهم، حالما تنتهي أوّلُ نوبةٍ حادة من آلام هزيمتهم، بالكادِ يختارون شيئاً سوى الضّحك من هذه الفكرة العجيبة!»

وقالت جِلّ: «لا أظنُّ الأمر مُضحِكاً أبداً، بل أظنّ أنكَ ستكون طاغيةً شرّيراً!»

فقال الفارس وهو ما يزال يضحك ويُربّت رأسها بطريقة مُغيظةٍ تماماً: «ماذا؟ هل صبيّتُنا الصغيرة سياسيّةٌ مُحنّكة؟ إنما لا تخافي أبداً، يا حبيبة قلبي! ففي حُكمي لذلك البَلَد، سأعمل كلَّ شيء وفقاً لمشورة سيّدتي، وهي عندئذٍ ستكون مَلِكتي أيضاً. فإنّ كلمتها

ستكون قانوني، تماماً كما ستكون كلمتي قانون الشعب الذي سنهزمه».

فقالت جِلّ، وكانت قد أخذت تستثقِلُه كلَّ دقيقة: «في المكان الذي جئتُ منه، لا يحترم الناس كثيراً الرجال الذين تتسلَّط عليهم زوجاتهم».

وقال الفارس، مُعتبِراً الأمر مُضحِكاً جداً على ما يبدو: «سيتغيَّر فكرُكِ عندما يصير لكِ رجُلكِ الخاصّ، صدِّقيني. ولكنْ مع سيِّدتي، تختلف الحال. فأنا راضٍ تماماً بأن أتصرَّف بموجب كلمتها، وهي التي أنقذتني حتَّى الآن من ألف خطر. وما مِن أمٍّ تكلَّفت المشقَّات لأجل ولدها كما فعلت جلالةُ الملكة لأجلي. ألا تعرفين أنَّها رغم مشاغلها وشؤونها الكثيرة تصطحبني راكباً على حصاني في العالَم العُلويّ، مراراً وتكراراً، لتتعوَّد عيناي ضوء الشمس. ثُمَّ إنَّ عليَّ أن أخرج بكامل سلاحي وغطاء وجهي مُسدَلٌ من الخوذة، حتَّى لا يرى وجهي أيُّ إنسان، كما أنَّه لا يحقُّ لي أن أُكلِّم أحداً: لأنَّها اكتشفت بفنِّ سحرها أنَّ ذلك قد يؤخِّر إنقاذي من السحر الرهيب الذي أنا في قبضته. أفليست هذه سيِّدةً تستحقُّ أن يتعبَّد لها الرجُل كلِّيّاً؟»

فقال بِركَهموم بصوتٍ يعني العكس تماماً: «إنَّها تبدو سيِّدةً لطيفةً جدّاً».

وكانوا قد سئموا حديث الفارس تماماً قبل انتهائهم من العشاء. وجال في فِكر بركَهموم هذا الخاطر: «تُرى، أيَّة

لعبةٍ تلعب تلك الساحرة بالحقيقة مع هذا الفتى الغبيّ؟» فيما دار في بال صغرون هذا الفِكر: «إنَّه طفلٌ كبير حقّاً، مربوطٌ برباط مئزر تلك المرأة: يا له من مُغفَّل!» أمَّا جِلّ فكان فكرها: «إنَّه أسخفُ عنيدٍ أنانيٌّ مغرورٍ قابلتُه منذ زمنٍ بعيد!» ولكنْ لمَّا انتهت وجبة الطعام، تغيَّر مزاج الفارس، فلم يعُد شيءٌ من الضَّحك يبدو عليه، بل قال:



«يا أصحاب، لقد دَنَت ساعتي جدّاً. أخجل أن تَروني على تلك الحال، ومع ذلك أخشى أن أبقى وحيداً. فالآن سيأتون ويُقيِّدونني على ذلك الكُرسيّ مُربَّطين يديَّ ورجليَّ. والمؤسف أنَّ هذا أمرٌ لا بدَّ منه: لأنَّني في غضبي الشديد — كما يقولون لي — أُحطِّم كلَّ ما تناله يدي».

وقال صغرون: «إنّني آسف لوقوعك تحت السحر طبعاً. ولكنْ ماذا سيفعل أولئك القوم بنا عندما يأتون ليرْبطوك؟ لقد ذكروا حبْسنا. ونحن لا نحبُّ كثيراً كُلَّ تلك الأمكنة المُظلِمة. إنّنا نُفضّل بالحريّ أن نبقى هنا إلى أن... تتحسّن حالك... إن كان ممكناً».

فردَّ الفارس: «كلُّ شيءٍ مُرتَّبٌ جيِّداً. فعادةً، لا يبقى معي في ساعتي الرديئة أحدٌ غير الملكة. فهي تحرص بكل رقّة على شرفي بحيث لا تسمح طوعاً لأيّةِ آذانٍ ما عدا أذنَيها بأن تسمع الكلمات التي أتفوّه بها في نوبة جنوني. ولكنّني لا أقدر أن أُقنع بسهولةٍ مُرافِقيَّ من أهل جوف الأرض بإبقائكم معي. وأظنُّ أنّني أسمع وقْع أقدامهم الخفيفَ الآن بالذات على الدَرَج. فادخلوا من ذلك الباب: إنّه يؤدّي إلى غُرَفي الأُخرى. وبعدئذٍ، إمّا انتظروا ذهابي إليكم بعد فكّهم رُبُطي؛ وإمّا ارجعوا — إذا أردتم — واقعدوا معي في أثناء محنتي السيّئة».

فعملوا بتوجيهاته وخرجوا من الغرفة بباب لم يكونوا قد رأوه مفتوحاً، أدّى بهم لا إلى الظلام، بل إلى ممرٍّ مُضاء، فأبهجهم ذلك. وجرّبوا أبواباً شتّى فوجدوا (ما كانوا يحتاجون إليه حاجةً ماسّة): ماءً للاغتسال، بل مرآةً أيضاً. ثم قالت جلّ وهي تُنشّف وجهها: «إنّه لم يعرض علينا قطُّ أن نغتسل قبل العشاء. يا له من قذرٍ أنانيٍّ بغيض!»

وقال صَغرون: «هل نرجع لمشاهدة تأثير السحر، أم هل نبقى هنا؟»

فقالت جِلّ: «أنا مع البقاء هنا. أفضّل كثيراً ألّا أرى ذلك». ولكنّها مع ذلك شعرت بشيء من حبّ الاستطلاع والفضول.

وقال بِركَهموم: «لا بَل نرجع! فقد نلتقط بعض المعلومات، ونحن بحاجة إلى كلّ ما يمكننا أن نحصل عليه. أنا متأكّد أنّ تلك الملكة ساحرة وعدوّة. وأهلُ جَوف الأرض أولئك يمكن أن يضربونا على رؤوسنا حال رؤيتهم لنا. ففي أنحاء هذا البَلَد رائحة خطرٍ وكذب وسحر وخيانةٍ أقوى من أيّة رائحة سبق لي أن شمَمتُها يوماً. فينبغي أن نُبقيَ أعيُننا وآذاننا مفتوحة!»

فرجعوا عبر الممرّ، ودفعوا الباب على مهلٍ فانفتح. وقال صغرون: «كلُّ شيء على ما يُرام»، قاصداً عدم وجود أحدٍ من أهل جوف الأرض هناك. ومن ثَمّ رجعوا كلُّهم إلى الغرفة التي كانوا قد تعشّوا فيها.

كان الباب الرئيسيُّ آنذاك مُقفلاً، مُخفياً الستائر التي دخلوا من بينها أوّلاً. وكان الفارس قاعداً على كرسيٍّ فضّيٍّ غريب رُبِط به من كاحِلَيه ورُكبتَيه ومِرفَقَيه ومِعصَمَيه وخصره، وقد ظهر عَرَقٌ على جبينه، وغمر وجهَهُ الألمُ الشديد.

وفي الحال رفع نظره وقال: «ادخلوا، يا أصحاب. لم تأتِ عليَّ النَّوبة بعد. لا تُصدِروا أيَّ صوتٍ، لأنّي قلتُ لذلك الحاجب المُتطفّل إنّكم نائمون. والآن... إنّي أُحِسُّها آتية. هيّا! اسمعوني وأنا ما أزال سيّد

نفسي. بينما تكون النَّوبة عليَّ، يمكن كثيراً أن أتوسَّل إليكم وأُناشِدكم، بالترجّي أو بالتهديد، أن تحلُّوا قيودي. إذ يقولون إنّي أفعل ذلك. فإنيّ سأستعطفكم بأعزّ ما عندكم، وأُخوِّفكم بأرهب ما تخشونه. ولكنْ إيّاكم أن تُصغوا إليّ، بل قسُّوا قلوبكم وسُدُّوا آذانكم. فبينما أكون مُقيّداً، تكونون في أمان. ولكنْ إن نهضتُ من على هذا الكُرسيّ مرّةً، فأوّلاً أستشيط غضباً، وبعد ذلك (وهنا ارتعد وارتعش) أتحوّل إلى أُفعوان بغيض».

فقال بِركهموم: «لا خوفَ من أن نحلّ قيودك. فنحن لا نرغب في مقابلة رجُلٍ هائج، ولا أُفعوانٍ خَطِر!»

وقال صَغرُون وجِلّ معاً: «لا، حتماً!»

ثمّ أضاف بِركهُموم هامساً: «ومع ذلك، فلا نكُن جازِمين كثيراً. لنكُن متيقّظين. لقد ضيّعنا كلّ فرصة سبقت، كما تعلمان. سيكون ماكراً حالما يبدأ، ولَن أتعجّب. أيُمكِننا أن نثقَ بعضُنا ببعض؟ هل نعد جميعُنا بأنّنا لن نمسَّ تلك الحِبال، مهما قال؟ مهما قال، تذكّرا!»

فقال صَغرون: «طبعاً، من غير رَيب!»

وقالت جِلّ: «ليس من شيءٍ قد يقوله أو يعمله سيجعلني أُغيّر رأيي».

عندئذٍ قال بِركهموم: «اشْش! ثمّة شيءٌ يحدث!»

فقد كان الفارس يئن، ووجهُه شاحبٌ كالرَّماد، متلوّياً في قيودِه. وسواءٌ لأنّ جِلّ أشفقت عليه أو لأيّ سببٍ

آخر، تصوّرتْ أنّه بدا رجُلاً ألطف مّما كان قبلاً. ثمّ مضى يقول آنَاً:

«آه! سُحور، سُحور... شبكة السحر الشرّير الثقيلة المُعقّدة الباردة اللّزِجة، تجرُّني إلى أسافل الأرض، إلى أعماق الظلمة القاتمة، حيث أُدفَن حيّاً... كم كان عدد تلك السنين؟... هل عشتُ عشر سنين، أو ألفَ سنة، في الهُوّة؟ الدّوديّون حواليَّ من كل جهة. آه، رحمةً بي! أخرِجوني، أرجِعوني. دعوني أحِسُّ الريح وأرى السماء... كانت هنا بِركةٌ صغيرة، عندما تنظر فيها ترى جميع الأشجار طالعةً في الماء بالمقلوب، وكلُّها خضراء وتحتها عميقاً، عميقاً جدّاً، السماءَ الزرقاء».

كان يتكلّم بصوتٍ منخفض، ثُمّ رفع نظره، وحدّق إليهم، وقال بصوتٍ عالٍ وواضح:

«هيّا! أنا سليم العقل الآن. كلّ ليلةٍ أنا سليم العقل. فلو تسنّى لي فقط أن أخرج من هذا الكرسيّ المسحور، لبقيتُ على هذه الحال. ينبغي أن أعود إنساناً من جديد. ولكنّهم كلّ ليلة يُربّطونني، وهكذا تتلاشى فرصتي كلّ ليلة. ولكنّكم أنتم لستم أعداءً. فأنا لست سجينكم. هيّا! اقطعوا هذه الحبال بسرعة».

وقال بِركهموم لكِلا الولَدَين: «ظلّا ثابتَين! إيّاكما!»

ثمّ قال الفارس، مُرغِماً نفسه على التكلُّم بهدوء: «أتوسّل إليكم أن تسمعوا لي. هل قالوا لكم إنّني إذا

حُرِّرتُ من هذا الكُرسيِّ أقتلكم وأصير أُفعواناً؟ أرى من وجوهكم أنَّهم قالوا لكم ذلك. هذه كِذبة. ففي هذه الساعة أنا في كامل عقلي السليم؛ أمَّا في باقي اليوم كلّه فأكون مسحوراً. وأنتم لستم من أهل جَوف الأرض ولا الساحرات. فلماذا تقفون في صفّهم؟ من فضلكم، اقطعوا قيودي!»

فقال المُسافِرون الثلاثة بعضُهم لبعض: «مهلاً! مهلاً! مهلاً!»

وقال الفارس: «آه، إنَّ قلوبكم من حجر! صدّقوني، أمامكم بائسٌ عانى تقريباً أكثر ممّا يستطيع أيُّ قلبٍ فانٍ أن يحتمله. أيّة إساءة أسأتُ إليكم حتّى تقفوا في صفّ أعدائي لِتُبقوني أعاني هذه الآلام؟ وها هي الدقائق تمرُّ بسرعة. الآن يُمكِنكم أن تُخلّصوني. فعندما تمضي هذه الساعة، أفقد سلامة عقلي من جديد، وأعود لُعبةً وكلبَ حِضن، لا بل حجرَ شطرنجٍ وآلةً، بيد أشرِّ ساحرةٍ خطّطَت لهلاك البشر على الإطلاق، وهذه الليلة، دون سائر الليالي، فيما هي غائبة! إنكم تحرمونني فرصةً ربّما لن تعود».

فقالت جِلّ: «أمرٌ رهيب! يا ليتَنا بقينا بعيداً حتّى تنتهي النوبة!»

وقال بِركهموم: «مهلاً!»

عندئذٍ كان صوت السجين يرتفع في ما يُشبِه الزعيق والصراخ الحادّ: «حرِّروني، رجاءً! أعطوني سيفي...

سيفي! فعندما أكون حُرّاً، أنتقِم من أهل جَوف الأرض انتقاماً سوف يظلُّ العالَم السفليُّ يتحدّثُ عنه ألفَ سنة!»

وقال صغرون: «الآن تبدأ نوبة الجنون. فأرجو أن تكون هذه العقد متينة».

فقال بِركهموم: «نعم! وستكون قوّته ضِعفَي قُوَّته العاديّة إذا حُرِّر الآن. وأنا لستُ بارعاً في استخدام سيفي. فإنّه سيغلِبُنا كِلينا، ولن أتعجّب؛ ثمَّ تبقى جِلّ وحدها لتُنازِل الأفعوان».



وقد كان السجين عندئذٍ يشدُّ قيوده بقوَّة حتَّى حزَّت مِعصَميه وكاحِلَيه. ثمَّ قال: «حذارِ، حذار! ذات ليلة فككتُ قيودي فعلاً. ولكنَّ الساحرة كانت هنا في تلك الليلة. أمَّا هذه الليلة، فلن تكون هنا لتُساعِدَكم. حرِّروني الآن، أصِر صديقاً لكم. وإلاَّ، فأنا عدوُّكم حتَّى الموت».

فقال بِركهموم: «ماكِر، أليس كذلك؟»

وقال السجين: «مرَّةً واحدة بعد، أستحلِفكم أن تحرِّروني. بكلِّ المخاوف وكلِّ المحبّات، بالسماوات النيِّرة في العالَمِ العُلويِّ، بالأسد العظيم، بأصلان نفسِه، أطلُب إليكم..».

فصاح المُسافِرون الثلاثة وكأنَّ ألماً قدِ انتابهم: «آه!»

وقال بِركَهموم: «إنَّها العلامة».

ولكنَّ صَغرون قال بمزيدٍ من الحَذر: «بل كانت كلمات العلامة».

وقالت جِلّ: «أوه، ماذا ينبغي لنا أن نفعل؟»

وقد كان سؤالاً رهيباً. فما نفْع الوعود التي قطعوها بعضهم لبعض بألاَّ يُحرِّروا الفارس مهما جرى، إن كان ينبغي لهم الآن أن يُحرِّروه أوَّل ما صدف أنَّه دعا باسم يعنيهم حقّاً؟ وبالمقابل، ماذا يكون نفْع العلامات إذا تعلَّموها ولم يريدوا أن يعملوا بها؟ ومع ذلك، فهل يمكن أن يكون أصلان حقّاً قد أراد لهم أن يفكُّوا قيود أيِّ شخصٍ يطلب ذلك باسْمه، ولو كان ذلك الشخص مجنوناً؟ أيُعقَل أنَّ ذلك كان محضَ صِدفة؟ ثُمَّ ماذا

لو كانت مَلِكة العالَمِ السُّفليِّ تعرف أمر العلامات وقد علَّمتِ الفارس هذا الاسم فقط للإيقاع بهم؟ وبعدُ، ماذا لو كانت هذه هي العلامة الحقيقيَّة؟ لقد أخفقوا في ثلاثٍ حتَّى الآن. ولذلك لا يجرؤون على الإخفاق في الرابعة!

ثمَّ قالت جِلّ: «يا ليتنا نعرف!»

فقال بِركَهموم: «أظنُّ أنَّنا نعرف فعلاً».

وسأل صغرون: «هل تعني أنَّ كلَّ شيءٍ سيكون على ما يُرام إن نحنُ فككْنا قيوده؟»

فأجاب بِركَهموم: «لستُ أدري شيئاً من ذلك! فكما نعلم، لم يقُلْ أصلان لبول ماذا سيجري، بل قال لها فقط ماذا عليها أنْ تفعل. سيكون صاحبُنا هذا موتاً لنا حالما ينهض، ولن أتعجَّب. ولكنَّ ذلك لا يسمح لنا بألاَّ نعمل بالعلامة».

ثمَّ وقف الثلاثة ينظرون بعضُهم إلى بعض بأعيُنٍ بارقة. وكانت لحظةً تجلب الهمَّ والغمَّ. وفجأةً قالت جِلّ: «حسنٌ جدّاً! لِنُنهِ عملنا. وداعاً لكُما!» ثمَّ صافحوا بعضُهم بعضاً؛ وكان الفارس يزعق آنذاك، وقد غطَّى الزَّبد خدَّيه.

عندئذٍ قال بِركَهموم: «هيّا، يا صغرون!» وسحب كِلاهما سيفه، وتقدَّما إلى الأسير.

ثمَّ قالا: «باسْمِ أصلان!» وبدأا يقطعان الحِبال بانتظام. وحالما تحرَّر السجين، عبر الغرفة بقفزةٍ واحدة، وأمسك بسيفه (الذي كان قد أُخذ منه وأُلقِي على الطاولة)،

وشهرَهُ مسحوباً، ثمَّ قال: «أنتَ أوّلاً!» وأهوى بالسيف على الكرسيِّ الفضّيّ.

ولا بدَّ أنَّ ذلك السيف كان جيّداً. فإنَّ الفضّةَ سقطت أمامه كالجبال. وفي لحظةٍ واحدة، صار كلُّ ما تبقّى من الكرسيِّ بضع شظايا مُفتَّلة تتلألأ على الأرض. ولكنْ إذ تحطَّم الكرسيّ، انبعث منه وميضٌ متألّق، وصوتٌ يشبه الرعد الخفيف، ورائحة كريهة (دامت لحظةً واحدة).

وقال الفارس: «ابقَ مكوّماً هناك، يا آلة السحر البغيضة، حتّى لا تستخدمكَ سيّدتُكَ لضحيّةٍ أخرى!» ثمَّ التفت وتفحّص مُنقِذيه، وإذا بذلك الشيء الغريب الذي بدا على وجهه في ما مضى، كائناً ما كان، قد تلاشى.

والتفت إلى بركهموم قائلاً: «ماذا؟ أأرى أمامي ساكن مستنقعات: سبَاخاً نارنيانيّاً حيّاً حقيقيّاً شريفاً؟»

فقالت جِل: «أوه! إذاً قد سمعتَ فعلاً بنارنيا رُغم كلِّ شيء؟»

وقال الفارس: «هل نسيتُها لمّا كنتُ في قبضة السحر؟ نَعم! والآن زال ذلك وجميعُ عذابات السحر الأُخرى. ولكم أن تُصدّقوا حقاً أنّني أعرف نارنيا، لأنّني أنا ريليان، أمير نارنيا، وكاسبيان الملك العظيم هو والدي».

فقال بِركهموم، راكعاً على إحدى ركبتيه (وحذا الوَلَدان حذوه): «يا سموَّ الأمير الملوكيّ، لم نأتِ إلى هُنا لغايةٍ أُخرى غير البحث عنك!»

وسأل الأمير صغرون وجِلَ: «ومَن أنتُما، يا مُنقِذَيَّ الآخرَين؟»

فردَّ صغرون: «لقد أرسلَنا أصلانُ نفسُه ممّا وراء آخِر العالم للبحث عن سموِّك. أنا يُسطاس الذي أبحر معه إلى جزيرة رَمَندو».

وقال الأمير ريليان: «إنَّ لكم عليّ، أنتم الثلاثة، ديناً أعظم من أن أستطيع إيفاءه. ولكنْ ما حال أبي؟ أما زال حيّاً؟»

فأجابه بِركهموم: «لقد أبحر ثانيةً إلى الشرق، يا سيّدي، قبل مُغادرتنا نارنيا. ولكنْ ينبغي لسموّك أن تذكر أنَّ الملك مُسِنٌّ جدّاً. فمن شبه المؤكّد أنَّ جلالته قد يُتوفّى في تلك الرحلة».

«تقول إنّه مُسِنّ. فكم مضى عليَّ من الزمن وأنا تحت سُلطة الساحرة؟»

«منذ أكثر من عشر سنين فُقِدتَ سموُّك في الغابات عند الطرف الشماليّ من نارنيا».

فقال الأمير وهو يمسح وجهه بيده وكأنّه يودُّ محوَ الماضي: «عشر سنين! نعم، أنا أُصدّقك. فالآن، وقد عُدتُ إلى صوابي، يمكنني أن أتذكّر تلك الحياة المسحورة، مع أنّني لمّا كنتُ في قبضة السحر لم أكن أقدر أن أتذكّر ذاتي الحقيقيّة. والآن، يا أصدقائي الطيّبين... مهلاً! إنّني أسمع وقع أقدامهم على الدرج (ألا يمرض الإنسان إذ يسمع تلك الخطوات البليدة المشوّشة؟ أُفٍّ منها!). أقفِلِ

الباب، يا فتى. أو دعْهُ. فإنّ لديّ فكرةً أفضل: سأسخر من أهلِ جَوف الأرضِ هؤلاء، إذا أعطاني أصلان الفطنة. فانتظر إشارتي».

ثمّ مشى بعزم إلى الباب وفتحه على وسعه.

الفصل الثاني عشر

مَلِكة العالَم السُفليّ

دخل اثنان من أهلِ جَوف الأرض، ولكنْ بدل التقدُّم إلى داخل الغرفة وقفا عند الباب، كلٌّ إلى جهة، وانحنيا انحناءةً كبيرة. ثمّ تبعهما في الحال آخرُ شخص توقَّعَ أيٌّ منهم رؤيته أو رغب فيها: السيِّدة ذات الفُستان الأخضر، مَلِكة العالم السُّفليّ. ووقفت في مدخل الباب بلا حراك، حيث استطاعوا أن يَرَوا عينيها تتحرَّكان وهي تتفحَّص الوضع كلَّه: الغُرَباءَ الثلاثة، الكرسيُّ الفضيُّ مُحطَّماً، الأمير حُرّاً وسيفُه في يده.

واعترى وجْهها شحوبٌ شديد. إلّا أنّ جِلّ فكَّرت أنّه ذلك النوع من الشحوب الذي يظهر على وجوه بعض الناس لا حين يخافون بل حين يغضبون. وثبّتتِ الساحرة عينيها لحظةً على الأمير ونيّة القتل تلوح فيهما. ثمّ بدا أنّها غيَّرت رأيها، فقالت لابْنَي جوف الأرض:

«اتركانا وحدنا، ولا يُزعِجْنا أحد قبل أن أُنادي، تحت طائلة عقوبة الإعدام».

فانصرف ابنا الأرض طائعَين، وتلاشى وقع أقدامهما

الضئيل، ثمَّ أغلقت الملكةُ الساحرةُ البابَ وأقفلته، وقالت:

«والآن، سيِّدي الأمير، كيف لم تأتِ عليك نوبتُك الليليَّة بعد، أم هي انتهت بسرعة؟ لماذا تقف هنا غير مُقيَّد؟ ومَن هؤلاء الغُرَباء؟ وهل هم مَن دمَّر هذا الكُرسيَّ الذي كان مصدر أمانك الوحيد؟»

ارتعش الأمير ريليان وهي تتكلَّم إليه. ولا عجب، فليس من السهل أن يطرح المرء في نصف ساعة سحراً استعبده عشرَ سنين. ثمَّ تكلَّم وهو يبذل جهداً كبيراً، فقال:

«سيِّدتي، لن أحتاج إلى ذلك الكرسيِّ بعد. وأنتِ، يا مَن قلتِ لي مئة مرَّة كم تُشفقين عليَّ كثيراً من أجل السُّحور التي كنتُ مُقيَّداً بها، لا شكَّ بأنَّكِ ستسمعين بسرورٍ أنَّها قد انتهت الآن إلى الأبد. يبدو أنَّه كان في طريقة سيادتك لمعالجتها خطأٌ صغيرٌ ما. فأصدقائي الحقيقيُّون هؤلاء قد حرَّروني، وأنا الآن في عقلي السليم. وأودُّ أن أقول لكِ أمرَين. أوَّلاً، من جهة نيَّة سيادتكِ بوضعي على رأس جيشٍ من أهلِ جَوف الأرض حتَّى أشنَّ هجوماً مُفاجئاً على العالَم العُلويّ، وهناك أجعل نفسي بالقوَّة وحدَها ملكاً على أمَّةٍ من الأمَم لم تُسِئ إليَّ قطّ — قاتلاً سادتها الطبيعيِّين والشرعيين ومُغتصِباً عرشهم كطاغيةٍ أجنبيٍّ متوحِّش — بعدما عدتُ إلى رُشدي الآن، فأنّي أمقت هذه النيَّة وأتخلَّى عنها كليّاً باعتبارها جريمةً سافرة.

وثانياً، أنا ابنُ ملك نارنيا، ريليانُ ابنُ كاسپيانَ الوحيدُ، كاسپيانَ العاشرِ الذي يُلقِّبه بعضُهم كاسپيان الملّاح. ولذلك، يا سيِّدتي، فإنَّ قصدي — وواجبي أيضاً بالمِثل — أن أُغادِر حالاً بلاط سيادتك إلى بَلَدي. فليتكِ تَرضَين بأن تمنحيني، أنا وأصدقائي، خُروجاً آمِناً ومُرشِداً لعبور مملكة الظلام التابعة لكِ».

ولم تقُل الملكة شيئاً في الحال، بل تقدَّمت عبرَ الغرفة ببطء، وعيناها ووجهُها نحو الأمير باستمرار. ولمَّا وصلَت إلى صندوقٍ صغير مُثبَّت في الحائط على مقربة من الموقد، فتحته وأخرجت أوّلاً حفنةً من مسحوقٍ أخضر. ثمَّ طرحَت ذلك في النار، فلم يتأجَّج كثيراً بلِ انبعثت منه رائحةٌ طيِّبة جدّاً ومُنعِّسة. وفي أثناء المحادثة التي تلت، اشتدَّت حِدَّة تلك الرائحة وعبقت في أرجاء الغرفة كلِّها وجعلتِ التفكير أمراً صعباً. وبعد ذلك، أخرجَت آلةً موسيقيَّة تُشبه المَندولين تقريباً، ثمَّ بدأت تعزف عليها بأصابعها رنيناً ثابتاً رتيباً، لا تلبث أن تسهوَ عنه بعد بضع دقائق من سماعِك له. ولكن كلَّما خفَّت ملاحظتك له، ازداد تَغلغُلاً في عقلك ودَمِك. وهذا أيضاً جعل التفكير أمراً صعباً. فبعدَما رَنرَنَت حيناً (وقد باتتِ الرائحة قويَّة حينذاك) بدأت تتكلَّم بصوتٍ هادئ عذب، فقالت:

«نارْنيا؟ نارنيا؟ كثيراً ما سمعت سيادتك تُتمتِم بهذا الاسم في أثناء نوباتك. أيُّها الأمير العزيز، أنت مريضٌ جدّاً. ليس من بَلَدٍ يُدعى نارنيا».



فقال بِركَهموم: «بلى، يُوجَد يا سيِّدة! فاعلمي أنّني أنا عشتُ هناك طول عمري».

وقالت الساحرة: «حقّاً؟ فقُل لي، من فضلك، أين يقع ذلك البَلَد؟»

فردَّ بِركهموم بشجاعة، مشيراً إلى الأعلى: «هناكَ فوقُ... ولستُ أدري أين تماماً».

وقالت الملكة بصوتٍ عذبٍ ناعمٍ لطيف: «كيف؟ هل من بَلَد فوقَ بين حجارة السقف وملاطِه؟»

فقال بِركهموم وهو يُجاهِد قليلاً لاسترداد نَفَسِه: «لا، بل هو في العالَم العُلويّ».

«رجاءً، ماذا وأين ذلك... ماذا تُسَمِّيه... العالَمَ العُلويّ؟»

وقال صغرون، فيما كان يُقاوِم بشدّةٍ سحر الرائحة الطيِّبة والرَّنين:

«أُوه، لا تتحامقي هكذا! وكأنّك لا تعرفين! إنّه في

الأعلى، حيث يُمكنكِ أن ترَي السماء والشمس والنجوم. عجباً، لقد كُنتِ أنتِ هُناك. فنحنُ رأيناكِ!»

فضحكت الساحرة (ضحكةً لم يكن ممكناً أن تسمع أعذب منها) وقالت: «رأفةً بي، أيُّها الأخُ الصغير. فأنا لا أتذكَّر ذلك اللقاء. ولكنّنا غالباً ما نُلاقي أصدقاءنا في أماكن غريبة ونحن نحلم. وإنْ لم يحلم الجميع الحُلمَ نفسه، فلا ينبغي لك أن تطلب منهم أن يتذكَّروه».

وقال الأمير بحزم: «سيِّدتي، سبق أن قلتُ لحضرتكِ إنّني ابنُ مَلِك نارْنيا».

فأجابته الساحرة بصوتٍ استرضائيّ، وكأنّها تُضاحِك وَلَداً: «وستكونُ، يا صديقي العزيز، ملكاً على كثيرٍ من الأراضي الخياليّة في أوهامك!»

وقالت جِلّ بحِدَّة: «ونحنُ أيضاً كُنّا هناك». وقد كانت شديدة الغضب لأنّها شعرت بالسحر يستولي عليها أكثر فأكثر كلَّ لحظة. ولكنَّ حقيقة تمكُّنها من الشعور بذلك بيَّنت بالطبع أنَّ تأثيرَه لم يفعل كاملَ فعله فيها.

فقالت الساحرة باللهجة الاستلطافيَّة شبه الساخرة عينها: «وأنتِ أيضاً مَلِكة نارنيا، كما لا أشكُّ في ذلك يا حُلوة».

وردَّت جِلّ ضاربةً الأرض بقدمها: «أنا لستُ شيئاً من ذلك. فنحن جئنا من عالَمٍ آخر».

فقالت الساحرة: «عجباً! هذه اللعبة أجمل من الأخرى. فقولي لنا، أيّتها الصبيَّة الصغيرة، أينَ ذلك

العالَمَ الآخر؟ وأيّة سُفن ومركبات تتنقّل بينه وبين عالِمنا؟»

وبطبيعة الحال، خطرت في بال جلّ أمورٌ كثيرة دُفعةً واحدة: مدرسة دار التجريب، أديلا پَنيفَذَر، بيتُها هي، أجهزة الراديو، دُور السينما، السيّارات، الطيّارات، قسائم الشراء، صفوف الانتظار. ولكنّ هذه كلّها بَدَت باهتة وبعيدة جداً. (وقد كانت أوتار آلة الساحرة ما تزال تُرَنرِن: اترَم — اترَم — اترَم.) فلم تتذكّر جِلّ أسماء الأشياء في عالمنا. وهذه المرّة لم يخطر على بالها أنّها تَنسحِر، إذ كان السّحُر الآن على أقوى ما يكون. وبالطبع، كُلّما كنتَ أكثر انسِحاراً زاد تأكُّدك بأنّك لستَ مسحوراً أبداً!

وإذا بجِلّ تسمع نفسها قائلةً: «كلّا! أظنّ أنّ ذلك العالَمَ الآخر لا بُدّ أن يكون كلّه مجرّد حُلم». (وقد أراحها آنيّاً أن تقول هذا.)

فقالت الساحرة وهي تُرَنرِن دائماً: «نعم، إنّه كلّه حُلم!»

وردّت جلّ: «نعم، كلّه حُلم».

فقالت الساحرة: «لم يوجَد قطُّ عالَمٌ كهذا».

وقال صغرون وجلّ: «لا، لم يوجد قطُّ عالَمٌ كهذا».

وقالت الساحرة: «لم يوجَد قطُّ أيُّ عالَمٍ سوى عالَمي».

فقالا: «لم يوجَد قطُّ أيُّ عالَمٍ سوى عالَمكِ».

وكان بِركَهموم ما يزال يُقاوِم بشدّة. فقال كمن يُعوزه كثيرٌ من الهواء: «لستُ أعرف تماماً ما تقصدونه جميعاً بكلمةِ عالَم. ولكنْ يُمكِنكِ أنتِ أن تظلّي تعزفين تلك الكمنجة حتّى تسقط أصابعُكِ من يديك، ومع ذلك لا يمكنك أن تجعليني أنسى نارْنيا، ولا العالم العلويّ كلّه أيضاً. لَن نراه ثانيةً البتّة، ولن أتعجّب. وربّما تكونين قد محَوتِه من الوجود وجعلتِه مُظلِماً مثل هذا، لستُ أدري! فهذا الأمر مُرجّح جداً. ولكنّني أعرف أنّني كنتُ هناك في ما مضى. وقد شاهدتُ السماء مُرصّعة كلّها بالنجوم. وقد شاهدتُ الشمس تُشرق من البحر صباحاً وتغيب وراء الجبال مساءً. وقد شاهدتُها عند الظُّهر في كبد السماء حينَ لم أكُن أقدِر أن أنظر إليها من شدّة ضيائها».

وقد كان لكلمات بِركهموم تأثيرٌ مُدهِش جداً. فالثلاثة الآخرون كلّهم تنفّسوا من جديد، ونظروا بعضُهم إلى بعضٍ كأشخاص استيقظوا من النوم حالاً. وصاح الأمير: «عجباً! إنّها موجودة هناك فعلاً بالطبع! لتكُن بَركة أصلان على هذا السبّاخ الشريف! لقد كنّا جميعُنا نحلم، في هذه الدقائق القلية الأخيرة. كيف يُعقَل أن نكون قد نسينا ذلك الواقع؟ فكلّنا قد رأينا الشمس طبعاً».

فقال صَغرون: «بحقّ السّماء، قد رأيناها! أحسنتَ يا بِركهموم! أعتقدُ أنّك بيننا الوحيدُ ذو العقلِ السليم».

ثمّ انطلق صوت الساحرة، يهدل برقّةٍ كصوت حمامة بريّة تسجع في أعلى شجرةِ دردار وسط بستانٍ قديمٍ في

عصر نهارٍ صيفيٍّ يثير النعاس، قائلاً: «ما هي تلك الشمس التي تتحدّثون عنها كلُّكم؟ هل تَعنون أيَّ شيء بهذه الكلمة؟»

فقال صغرون: «نعم، بكلّ تأكيدٍ نعني!»

وسألت الساحرة (على وقْع أوتارها: اترَم، اترَم، اترَم): «هل يُمكِنكم أن تقولوا لي كيف هي؟»

فقال الأمير بكلّ برودة وأدب: «تفضّلي عطوفتكِ وانظري إلى ذلك المصباح. إنّه مُدوَّر وأصفر ويُنير الغرفة كلّها. ثمّ إنّه يتدلّى من السقف. والآن، فذلك الشيء الذي ندعوه الشمس يُشبه هذا المصباح، غير أنّه أكبر وأكثر إشراقاً بكثيرٍ جدّاً جدّاً. فهو يُنير العالَم العُلويّ كلّه وهو مُعلّق في السماء».

فسألت الساحرة: «بأيّ شيء هو مُعلّق، يا سيّدي؟» ثمّ أضافت – فيما هم يُفكّرون بعدُ بماذا يُجيبونها – بضحكةٍ أُخرى من ضحكاتها الناعمة المؤثّرة: «أنت ترى أنّك عندما تُحاولِ أن تُفكّر جيّداً بما يمكن أن تكون تلك الشمس فعلاً لا تقدر أن تقول لي شيئاً. بل يمكنك فقط أن تقول لي إنّها مثل المصباح. إنّ شمسكم حُلم؛ وليس في هذا الحلم شيءٌ غير مَنسوخ عن المصباح. فالمصباح هو الشيء الحقيقيّ. أمّا الشمس فهي خُرافة، حكاية من حكايات الأطفال».

فقالت جلّ بلهجةٍ ثقيلة فاقدةِ الأمل: «نعم، فهمتُ الآن. لا بدّ أن يكون هذا هو الواقع». وبينما هي تقول ذلك، بدا لها أنّه منطقيٌّ جدّاً.

ثمّ كرّرت الساحرة بتمهُّل وجِدّيّة: «ليس من شمس». فلم يقُل أيٌّ منهم شيئاً. فكرّرت بصوتٍ أنعم وأعمق: «ليس من شمس».

وبعد وقفةٍ قصيرة، وصراعٍ في العقول، قال الأربعة كلُّهم معاً: «أنتِ على حقّ. ليس من شمس». وقد أفرجهم كثيراً أن يُذعِنوا ويقولوا ذلك.

ثمّ قالت الساحرة: «لم توجَد شمسٌ قطّ».

فقال الأمير والسبّاخ والوَلَدان: «لم توجَد شمسٌ قطّ».

على مدى الدقائق القليلة الأخيرة، كانت جلّ شاعرةً بأنّ هنالك شيئاً يجب أن تتذكّره مهما كان الثمن. والآن تذكّرته. ولكنّ قوله كان صعباً عليها جدّاً جدّاً. فقد أحسّت كما لو أنّ أثقالاً هائلة كانت موضوعةً على شفتيها. وأخيراً، بجهدٍ بدا أنّه استنفد كلّ طاقتها، قالت: «أصلان موجود!»

فقالت الساحرة، مُسرّعة إيقاع رَنرَنتها قليلاً: «أصلان؟ يا لَه من اسمٍ جميل! ماذا يعني؟»

وقال صغرون: «إنّه الأسد العظيم الذي استدعانا من عالِمنا الخاصّ، وأرسلَنا إلى هذا العالم للعثور على الأمير ريليان».

فسألتِ الساحرة: «وما هو الأسد؟»

فقالت جِلّ: «أوه، كفى! ألا تعرفين؟ كيف يمكن أن نصِفه لها؟ هل رأيتِ هرّاً مرّةً؟»

أجابت الملكة: «طبعاً، وأنا أحِبُّ الهِرَرة!»

«حسناً، إنَّ الأسد يُشبِه قليلاً – تذكَّري: قليلاً فقط – هِرّاً ضخماً له لُبدة. ولُبدتُه، على الأقل، ليست مثل عُرفِ الحصان، بل هي أشبه بالشَّعر المستعار الذي يعتمره قُضاة الإنكليز. وهي ذهبيّة اللّون، وهوَ قويٌّ قوّةً هائلة».

فهزّت الساحرة رأسها وقالت: «أرى أنّنا لن نُحرز تقدُّماً مع أسدكم، كما تسمّيه، أكثر من ذاك الذي أحرزناه مع شمسكم. فقد رأيتم مصابيح، فتخيّلتم مصباحاً أكبر وأفضل وسمّيتموه شمساً. ورأيتم هِرَرة، والآن تريدون هِرّاً أكبر وأفضل، ودعوتموه 'أسداً'. حسناً، إنّ هذا تظاهُرٌ لا بأس به، مع أنّ هذا التظاهُر – والحقُّ يُقال – يكون أنسبَ لكم لو كنتم أصغر سنّاً. ثمّ انظروا كيف لا يمكنكم أن تُضيفوا شيئاً على تظاهُركم بغير نسخِه من عالمي الخاصّ الحقيقيّ، وهو العالَم الوحيد. ولكنْ حتّى أنتما، أيّها الولدان، أكبرُ من أن تلعبا مثل هذه اللعبة. أمّا أنت، سيّدي الأمير، وأنتَ رجلٌ كامل النُّضج، فبؤساً لك وتَعساً! ألا تستحي بمثل هذه الألاعيب؟ اسمعوا كلُّكم! تخلّوا عن هذه الحِيَل الصبيانيّة. فعندي عملٌ لكم جميعاً في العالم الحقيقيّ. ليس هناك نارنيا ولا عالم عُلويّ ولا فضاء ولا شمس ولا أصلان. والآن، اذهبوا إلى النوم جميعاً. ولنبدأ حياةً أحكم غداً. ولكنْ أوّلاً إلى السرير،

إلى النوم، إلى النوم العميق، والوسائد الليّنة، والنوم الخالي من الأحلام السخيفة!»

كان الأمير والوَلَدان واقفِين ورؤوسهم مُنكّسة، وخدودُهم مُتورّدة، وأعيُنهم نصف مُغمضة، وقد فارقتهم قوّتهم كلُّها وكاد السحر يكون كامل التأثير فيهم. ولكنّ بِركَهموم مشى نحو النار، مستجمعاً كلّ قوّته على نحوٍ يائس. ثم عمل عملاً شُجاعاً جدّاً. وقد علم أنّ ذلك سيؤذيه تماماً كما يؤذي آدميّاً، لأنّ قدميه (وقد كانتا حافيتين) كانتا موصولَتَي الأصابع وقاسيتَين وحسّاستَين مثل أقدام البطّ. ولكنّه علم أنّ ذلك سيؤذيه كثيراً، وقد آذاه فعلاً. فإنّه داس النار بقدمه الحافية، ساحقاً قسماً كبيراً من الجمر في الموقد المسطّح حتّى صار رماداً. وفي الحال حدثت ثلاثة أمور.

فأوّلاً، خفّت كثيراً جدّاً الرائحةُ الثقيلة الطيّبة. إذ رغم أنّ النار لم تخمد كلُّها، فقد خمد جزءٌ كبير منها؛ وما تبقّى انبعثت منه إلى حدٍّ بعيد رائحةُ سبّاخٍ محروق، وهي ليست رائحةً سحريّةً أبداً. وقد أدّى ذلك في الحال إلى جعل عقل كلٍّ منهم أصفى كثيراً. فرفع الأمير والولدان رؤوسهم من جديد وفتحوا أعيُنَهم.

وثانياً، تكلّمت الساحرة بصوتٍ عالٍ رهيب، مختلفٍ كلّيّاً عن جميع النغمات العذبة التي كانت قد استخدمتها حتّى الآن. فصاحت: «ماذا تفعل؟ تجاسَرْ على مَسّ ناري ثانيةً، يا لطخةَ التُّراب، فأجعلَ دمك ناراً داخل عروقك!»

وثالثاً، عمل الألم نفسُه على جعْل عقل بِركَهموم إلى حينٍ كاملَ الصفاء، فعرف تماماً ما يدور في فكره. وليس من شيءٍ مثل صدمة ألمٍ جيِّدة تُبدِّد أنواعاً معيَّنة من السحر!

وقد قال بِركَهموم، وهو عائدٌ من النار عارِجاً من الألم: «كلمة واحدة، يا سَيِّدة، كلمة واحدة! كلُّ ما كنتِ تقولينه صحيحٌ تماماً، ولَن أتعجَّب. وأنا فتىً تعوَّد طائعاً أن يعرف الأسوأ ثمَّ يُلبِسه أجمل قناعٍ ممكن. وهكذا لن أنكر أيَّ شيءٍ ممّا قُلتِه. ومع ذلك، فلا بُدَّ من قولِ أمرٍ واحد بعد. افترضي أنّنا قد حلمنا، أوِ اختلقنا كلَّ تلك الأشياء: الشجر والعُشب والشمس والقمر والنجوم، وأصلان نفسه. افترضي ذلك. فعندئذٍ كلُّ ما يمكنني أن أقوله هو أنَّ الأشياء المُختلقة — في تلك الحال — تبدو أهمَّ إلى أبعد حدٍّ من الأشياء الواقعيَّة. فافترضي أنَّ مملكتك، هذه التي هي هُوَّةٌ سوداء، هي العالم الوحيد. حسناً، إنَّه يُخلِّف لديَّ انطباعاً بأنّه عالم مسكينٌ حقّاً. وهذا أمرٌ سخيفٌ، إذا فكّرتِ فيه. نحنُ مجرَّد أطفال تلعب لعبة، إن كنتِ على حقّ. ولكنَّ أربعة أطفال يلعبون لعبةً يُمكِنهم أن يُقيموا عالَماً لُعبةً يهزم عالَمَكِ الحقيقيَّ هزيمةً نكراء. لهذا السبب سأقف في صفِّ العالَمِ اللُّعبة. وأنا إلى جانب أصلان، حتّى لو لم يكُن أيُّ أصلانٍ كي يسود ذلك العالَمَ. وسأعيش نارنيانيّاً بقدْر استطاعتي، حتّى لو لم تكُن أيَّةُ نارنيا. فعليه، مع شكرنا الجزيل لك على عشائنا،

إنْ كان هذان السيِّدان وهذه الآنسة مستعدِّين، فنحن مُغادِرون بلاطَكِ حالاً ومُنطلِقون وسط الظلام لنقضي حياتنا باحثين عنِ العالَمِ العُلويّ. ليس أنَّ حياتنا ستكون طويلةً كثيراً، على ما أظنّ؛ ولكنَّ تلك خسارة ضئيلة إن كان العالم مكاناً بائساً كما تقولين».

عندئذٍ هتف صَغرون وجِلاً: «أوه! مرحى مرحى، يا بِركَهموم الهَرِم الطيِّب!»

ولكنَّ الأمير صاح فجأةً: «انتباهاً! انظروا الساحرة!»

فنظروا، وكاد شعر رؤوسهم يقِفُ رُعباً!

لقد سقطت الآلة الموسيقيَّة من يدها. وبدا أنَّ ذراعيها التصقتا بجنبيها. وانضفرت رِجلاها إحداهما مع الأُخرى، واختفت قدماها. وصارت أذيالُ فستانها الأخضرِ الطويلةُ صُلبةً وثخينة، وبَدَت كلُّها قطعةً واحدة مع العمود الأخضر الذي انجدلت فيه رِجلاها. وأخذ ذلك العمود الأخضر المتعرِّج يترنَّح ويترجَّح كأنّه بلا مفاصل، أو كأنّه كلّه مفاصل. وقدِ ارتمى رأسُها إلى الوراء كثيراً، وبينما أخذ أنفها يكبر ويصير أطول فأطول، بدا أنَّ كلَّ جزء آخر من وجهها قد تلاشى، ما عدا عَينَيها، وقد صارتا الآن عينين يتطاير منهما الشرَر، وليس لهما حاجبان ولا رموش. ومع أنَّ كتابة ذلك كلّه تستغرق وقتاً، فقد حدث بسرعةٍ خاطفة في وقتٍ يُتيح فقط رؤية حدوثه. وقبل أن يتسنّى أيُّ وقت للقيام بأيِّ شيء، كان

التغيرُ قد تمّ، وكانت الأفعى الكبيرة التي تحوّلت الساحرةُ إليها — وهي خضراءُ كالسمّ وثخينةٌ بثخن خصر جِلّ — قد جعلت لفتَين أو ثلاثاً من جسمها الكريه حول رِجلَي الأمير. وبسرعة البرقِ التفّت حوله عقدةٌ كبيرة أخرى، بقصد تثبيت ذراعه الحاملة السيف إلى جنبه. غير أنّ الأمير كان سريع التصرُّف، إذ رفع ذراعيه وأبقاهما حُرَّتين، فأطبقت العُقدة الجديدة على صدره فقط، على أُهبة سحق عظامه كحطب النار لدى التضييق عليه.

أمسك الأمير عنق الوحش بيده اليُسرى، محاولاً الضغط عليها حتّى يختنق، مّما جعل وجه المخلوق (إن صحّت تسميتُه وجهاً) على بُعد خمسة عشر سنتيمتراً تقريباً من وجهه هو. وراح اللسان المشقوق يتردّد خارجاً وداخلاً على نحوٍ مُروِّع، إلّا أنّه لم يستطع الوصول إلى الأمير. فردّ الأمير بيده اليُمنى سيفَه إلى الوراء ليضرب به أقوى ضربةٍ يقدر عليها. وفي تلك الأثناء كان صَغرون وبِركهموم قد سحبا سيفيهما وهبّا لمساعدته. ثمّ هَوَتِ الضرباتُ الثلاث معاً. فأصابت ضربة صغرون جسم الحيّة تحت يد الأمير، ولكنّها لم تخرق حتّى الحراشف فما نفعَت. أمّا ضربة الأمير وضربة بِركهموم كلتاهما فأصابتا عنق الحيّة. ولكنْ حتّى ذلك لم يقتلها تماماً، وإن كانت قد بدأت تُرخي طوقها عن رجلَي ريليان وصدره. ثمّ بضرباتٍ متوالية قطعوا رأسها. وظلّ ذلك الشيء الكريه يتلوّى ويتحرّك، كقطعة حبلٍ ثخينة، بعد وقتٍ طويلٍ من موته،

وقد صارت الأرضيّة — كما يمكنك أن تتصورّ — ذاتَ منظرٍ مُقرفٍ بغيض.

وحالما التقط الأمير أنفاسه، قال: «شُكراً لكما يا سيّديّ!» ثمّ وقف المنتصرون الثلاثة يُحدّقون بعضُهم إلى بعض ويلهثون، دون أن يقولوا كلمةً أُخرى، وقتاً طويلاً. وكانت جِلّ قد تصرّفت بكلّ حكمة إذ قعدت صامتةً وهي تقول لنفسها: «أرجو فعلاً ألّا يُغمى عليّ، وألّا أزعق أو أنتحب أو أتصرّف أيّ تصرُّف أحمق!»

بعدئذٍ قال ريليان: «لقد ثأرنا لوالدتي المَلِكة. هذه بلا شكّ هي الأفعى عينُها التي طاردتُها عبثاً قربَ النبع في غابة نارنيا، قبل سنين طويلة. وقد كنتُ كلّ تلك السنين عبداً لقاتلة أُمّي. إنّما أنا مسرورٌ، يا سيّديّ، بكون الساحرة الشرّيرة قد تحوّلت إلى شكلها الأُفعوانيّ في الأخير. فما كان مُناسباً تماماً لقلبي ولا لشرفي لو ذبحتُ امرأةً. ولكنِ انظُرا إلى الآنسة»، قاصداً جِلّ.

فقالت جِلّ: «أنا بخير، شكراً!»

وقال الأمير مُنحنياً لها: «آنستي، أنتِ فائقةُ الشجاعة. ولذلك لا أشكُّ بأنّكِ شريفة النسب في عالَمِك الخاصّ. ولكن هيّا، يا أصحاب. لقد بقي هنا شيءٌ من الشراب المُنعِش. فلنُنعِش أنفسنا ونشربْ بعضُنا نَخْبَ بعض. ومن ثَمّ نعكف على خُططِنا».

فقال صغرون: «فكرةٌ جيّدةٌ تماماً، يا سيّدي!»

الفصل الثالث عشر

العالَمُ السُفليُّ بغيرِ المَلِكة

شعر الجميع بأنَّهم كسبوا ما دعاه صغرون «مُتنفَّساً». فإنَّ الملكة كانت قد أقفلت الباب وطلبت من أهل جَوف الأرض ألَّا يُزعِجوها. وهكذا لم يكُن حاليّاً أيُّ خطر من المُقاطعة. وقد كان شغلهم الأوَّل بالطبع معالجة قدم برِكَهموم المحروقة. فصنعوا لها ضمادةً لا بأسَ بها من قميصَين نظيفين أخذوهما من غرفة نوم الأمير وقدُّوا منهما شُققاً دهنوها جيِّداً من الداخل بالزبدة وزيت السَلَطة من على مائدة العشاء. ولمَّا أتمُّوا ذلك، قعدوا كلُّهم وتناولوا شيئاً من المُرطِّبات المُنعِشة، وتباحثوا في خُطَطِ الفِرار من العالَم السُفليّ.

وشرح لهم ريليان وجود عددٍ لا بأس به من المنافذ التي بها يستطيع المرء أن يخرج إلى سطح الأرض، وهو قد أُخرِجَ من مُعظمِها مرَّةً أو غير مرَّة. ولكنَّه لم يخرج قطُّ وحدَه، بل مع الساحرة فقط، وكان دائماً يصل إلى تلك المنافذ بعد ركوب سفينةٍ في البحر الذي لا شمسَ فيه. فماذا يقول أهلُ جَوف الأرض إذا نزل إلى الميناء

من غير الساحرة، ومعه ثلاثةُ غُرباء، وطلب سفينةً في الحال؟ لا أحدَ يدري! ولكنَّ الأرجح أنَّهم سيسألون أسئلة مُحرِجة. وفي المقابل، فإنَّ المنفذ الجديد، ذاك المُعدَّ لغزو العالم العُلويّ، كان عند جهة البحر القريبة، ويبعد بضعة كيلومترات فقط. وقد علم الأمير أنَّ العمل في ذلك المنفذ كاد يُنجَز تقريباً، إذ إنَّ أمتاراً ضئيلة فقط من التراب تفصل الحفريّات عن الهواء الخارجيّ، بل ربَّما كان آنذاك قد أُنجِز تماماً. وربَّما كانت الساحرة قد رجعت لإخباره بذلك وطلبِ مباشرةِ الهجوم. حتَّى لو لم يكُن قد أُنجِز، ففي وسعهم على الأرجح أن يحفروا لهم طريقاً للخروج من هناك في ظرف ساعات قليلة، إن تسنَّى لهم فقط أن يصلوا إلى موقع الحفر بغير أن يُوقِفهم أحد، وأن يجدوا ذلك الموقع أيضاً بِلا حراسة. غير أنَّ ذلك كلَّه من المصاعب المُحتَملةِ الحصول.

وإذ بادر برِكَهموم قائلاً: «إن طرحتم عليَّ السؤال..».

قاطعه صَغرون سائلاً: «اسمعوا! ما هذه الضجَّة؟»

وقالت جِلّ: «كنتُ أتساءل عنها منذ حين!»

وفي الواقع أنَّهم كلَّهم كانوا سامعين تلك الضجَّة، ولكنَّها قد بدأت تتزايد تدريجيّاً بحيث لم يعرفوا متى تنبَّهوا إليها أوَّلاً. وكانت فترةً إزعاجاً غامضاً مثل الرياح الخفيفة أو ضجيج حركة سيرٍ بعيدة جدّاً. ثمَّ تحوَّلت إلى هديرٍ يُشبه عجيج أمواج البحر. ثُمَّ سُمِع ما يُشبِه قصف الرعد وجَلَبة التدافُع الشديد. وما لبثت أن سُمِعت أيضاً

أصواتٌ، فضلاً عن الدَّوِيِّ المستمرّ المُرافِق لها.

فقال الأمير ريليان: «قَسَماً بالأسد، يبدو أنَّ هذه الأراضي الخرساء قد طلع لها لسانٌ أخيراً!» ثمَّ نهض وتقدَّم إلى النافذة، وأزاح الستائر، فيما احتشد الباقون حوله لاستطلاع الأمر.

كان أوّلَ شيء لاحظوه وَهَجٌ أحمر عظيم. وقد أنشأتِ انعكاساتُه رقعة حمراء على سقف العالَم السُفليّ على بُعد آلاف الأقدام فوقهم، بحيث تمكّنوا من رؤية سقفٍ صخريٍّ ربّما كان الظلام يغمره منذُ إنشاء العالَم. أمّا الوَهجُ ذاته فقد صدر من طرف المدينة الأبعد بحيث ظهرت مُقابلَه مَبانٍ عاليةٌ كثيرة مُتّشِحة بالسَّواد الكئيب. ولكنّه أيضاً رمى نورَه على عدّة شوارع امتدّت تحته نحو القصر. وفي تلك الشوارع كان شيءٌ غريبٌ يجري. إذ قد تلاشتِ جماهير أبناء جوف الأرض الصامتين المتلاصقين. وبدلاً من ذلك ظهرت أشكال أشخاص يتواثبون إلى كلّ ناحية، واحداً واحداً أو اثنينِ اثنين أو ثلاثةً ثلاثة. وكانوا يتصرّفون كأشخاصٍ لا يريدون أن يراهم أحد، فيختبئون في الظلام وراء الأعمدة أو في المداخل، ثمّ يندفعون على الأرض المكشوفة إلى أماكن جديدة يختبئون فيها. ولكنّ أغرب شيء، في نظر أيّ مَن يعرف أبناء جوف الأرض، كان الضجيج. إذ تصاعدت الصَرَخات والزعقات من كلّ ناحية. ولكنْ من الميناء صدرَ هديرٌ خفيفٌ مُدوٍّ، أخذ يرتفع حِدّةً باستمرار، وقد

أخذ فعلاً يهزُّ المدينة كلَّها.

وسأل صغرون: «ماذا جرى لأهلِ جوف الأرض؟ أهمُ الذين يصرخون؟»

فأجاب الأمير: «ذلك شِبه مستحيل. فلم أسمع قطُّ واحداً من هؤلاء الأوغاد يتكلّم بصوتٍ عالٍ طوال سِني استعبادي المُرهِقة. فلا أشكُّ أنّ هذه شعوذةٌ جديدةٌ ما».

وسألت جِلّ: «وما ذلك النور الأحمر فوقُ هناك؟ هل من حريقٍ ما؟»

فقال بِركَهموم: «إنْ سألتَني أنا، فينبغي لي أن أقول إنّ تلك هي نيرانُ الأرضِ المركزيّةُ وقدِ اندلعت لتُحدِث بركاناً جديداً، سنكون في وسطه، ولن أتعجّب».

وقال صَغرون: «انظروا تلك السفينة! لماذا هي مُقبِلة بهذه السرعة الفائقة، ولا أحد يُجذّف فيها؟»

فقال الأمير: «انظُروا، انظُروا! لقد وصلت السفينة إلى هذه الجهة من الميناء... إنّها في الشارع. انظروا! ها هي جميع السفن تسير في الشارع! أقسِمُ، إنّ مَدّ البحر يعلو، والطوفان آتٍ علينا. الحمدُ لأصلان على كون هذا القصر قائماً على أرضٍ مرتفعة. إلّا أنّ المياه آتيةٌ بسرعة رهيبة».

وقالت جِلّ: «آه، ماذا يمكن أن يكون جارياً؟ نارٌ وماء وجموعٌ غفيرة تَروغ في الشوارع!»

فردّ بِركَهموم: «سأقولُ لك ما ذلك. لقد أنشأت تلك الساحرةُ سلسلةً من الرُقى السحريّة، حتّى إذا قُتِلت تتداعى في اللحظة عينها مملكتُها حُطاماً وركاماً. فهي من

النوع الذي لا يهمُّها كثيراً أن تموت هي نفسُها لو علمتْ أنَّ الفتى الذي يقتلها سيُحرَق أو يُغرَق أو يُدفَن حيّاً بعد خمس دقائق!»

وقال الأمير: «أحسنتَ أيُّها السبّاخ الصَّدِيق! فلمّا قطعت سيوفُنا رأس الساحرة، أنهت تلك الضربة جميع سُحورِها، وها هي الأراضي السحيقة كلُّها تتداعى وتنهار. فنحنُ نُشاهِد آخِرة العالم السُّفليّ».

فقال بِركهموم: «تلك هي الحقيقة، سيِّدي؛ إلَّا إذا صدف أنَّها آخِرة العالَم كُلِّه!»

وقالت جِلّ لاهثة:«ولكنْ هل نبقى هُنا فقط و... ننتظر؟»

فأجاب الأمير: «لا، حسب رأيي! فأنا أودُّ أن أُنقِذ حصاني فُحَيمان وحصانَ الساحرة ثُلَيجان (وهو حيوانٌ أصيل يستحقُّ سيِّدةً فُضلى)، وكلاهما داخل الإسطبل في ساحة الدار. وبعد ذلك، لنبذلْ أقصى الجهد للانتقال إلى أرضٍ عالية، ونُصَلِّ عسى أن نجد منفذاً. يستطيع الحصانان أن يحملا كلٌّ اثنينِ منّا عند الضرورة. وإن حَثثناهما فقد يسبقان الطوفان».

وسأل بِركهموم: «هل تريد، سُموّك، أن تلبس طقم دروع؟ لا يُعجِبني منظرُ أولئك..». ثمَّ أشار نحو الشارع، فنظر الجميع إلى تحت. وإذا بعشرات المخلوقات يصعدون من ناحية الميناء (وبما أنَّهم باتوا قريبين جدّاً، فقد بدا واضحاً أنَّهم من أبناءِ جَوف الأرض). غير أنَّهم لم يكونوا يتحرَّكون

كجمهورٍ بلا هَدَف. إذ تصرَّفوا تصرُّف الجنود المُعاصِرين وهم يشنُّون هجوماً، فكانوا يندفعون مُسرِعين ثمَّ يختبئون، حرصاً منهم على ألَّا يراهم أحد من نوافذ القصر.

وعندئذٍ قال الأمير: «لا أستجرئ أن أرى بعدُ جَوف طقم الدروع ذاك. فطالما ركبتُ على الحصان وأنا فيه كما لو كنتُ داخلَ زنزانة متحرِّكة؛ وتفوحُ منه رائحةُ السحرِ والاستعبادِ الكريهة. إلَّا أنَّني سآخذ التُّرس».

وغادر الغرفة، ثُمَّ رجع بعد لحظة وفي عينيه بريقٌ عجيب.

ثُمَّ قال، مادّاً التُّرسَ نحوهم: «انظُروا، يا أصحاب! فقبل ساعةٍ كان أسود ولا شعار عليه. أمّا الآن، فهذه حالُه!» ذلك أنَّ التُّرس كان قد صار لمّاعاً كالفضَّة، وظهرت عليه صورة أسدٍ حمراءَ احمراراً أشدَّ من لَونِ الدَم أو الكَرز.

وأضاف الأمير قائلاً: «لا شكَّ أنَّ هذا يُبيِّن لنا أنَّ أصلان سيكون سيِّدَنا الصالح، سواءٌ أراد لنا الحياة أم الموت. وهُما سِيّانِ بوجوده. والآنَ أرى أنَّه ينبغي لنا جميعاً أن نركَع ونُقبِّل صورته، ثُمَّ نصافح بعضُنا بعضاً بالأيدي، كما يفعل الأصدقاء الأوفياء حين يُوشِكون على الافتراق. وبعد ذلك، لِنهبطْ إلى قلب المدينة ونَخُضِ المُغامرةَ التي تُقبِل علينا».

ثمَّ فعلوا جميعاً ما قاله الأمير. ولكنْ لمّا صافح صَغرون جِلّ، قال لها: «إلى اللقاء، يا جِلّ. آسفٌ لكوني جباناً

وخسيساً جداً. أرجو أن تعودي إلى ديارك سالمةً!» وقالت جِلّ: «إلى اللقاء، يا يُسطاس. وأنا آسِفة لكوني رديئةً جدّاً!» وقد كانت هذه أوّلَ مرّة استخدما فيها الاسم الشخصيّ عمداً، لأنّ تلامذة المدارس كانوا معتادين أن ينادوا بعضهم بعضاً باسْم الأُسرة أو الكُنية.

بعدئذٍ فتح الأمير الباب، ثمّ نزلوا كلُّهم على الدَّرَج، وثلاثةٌ منهم شاهِرون سيوفَهم، فيما جِلّ ساحبةٌ سكيّناً. فإذا الخَدَم قدِ اختفَوا، والغرفة الكبيرة عند أسفل دَرَج الأمير فارغة. وكانت المصابيح الرماديّة الكئيبة ما تزال مشتعلة، فلم يستَصعِبوا في ضوئها أن يجتازوا من ممرٍّ إلى آخر ويهبطوا دَرَجاً بعد آخر. ولم تكُن الأصوات الخارجيّة هنُاك تُسمَع بسهولةٍ كما كانت تُسمَع لمّا كانوا في الغرفة العُليا. وكان كلُّ شيء داخِل البيت ساكناً سكونَ الموت والوحشة. وصدف أنّهم عند انعطافهم لدخول القاعة الكبرى في الطابق الأرضيّ لاقَوا أوّل واحدٍ من أهل جوف الأرض؛ وقد كان مخلوقاً سميناً شاحباً ذا وجهٍ يُشبه وجه الخنـزير كثيراً، منهمكاً في ازدراد كلّ ما فضل على الموائد من طعام. فصرخ صرخةً حادّة (شبيهة كثيراً بِقُباع* الخنزير أيضاً) واندفع ليتوارى تحت أحد المقاعد، مُبعِداً في اللحظة المناسبة ذيله الطويل عن مُتناول بِركَهموم. ثمّ فرّ كالسهم خارجاً من الباب البعيد بسرعةٍ

* القُباع: هو صوت الخنزير.

تفوق إمكانيّة اللحاق به.

ومن القاعة خرجوا إلى ساحة الدار. وإذْ كانت جِلّ قد تردّدت على مدرسة لركوب الخيل في أثناء العُطَل، فقد اشتمّت رائحة إسطبل (وهي رائحة مُريحة ومُبهجة وجميلة جدّاً إذا لاقاها المرء في مكانٍ مثل العالَم السُفليّ). وفي تلك اللحظة قال يُسطاس: «يا لَلعجبِ العُجاب! انظروا ذلك!» إذ كان صاروخٌ رائع قد انطلق من مكانٍ ما خلفَ أسوار القصر، وتشعشعَ نجوماً خضراء.

فقالت جِلّ بصوتٍ مرتبك: «مُفرقعات!»

وأجاب يُسطاس: «نعم، ولكنْ لا يمكن أن تتصوّري أنّ أهل الأرض هؤلاء يُطلِقونها ابتهاجاً ومَرَحاً! فلا بُدّ أن تكون هذه إشارة».

فعلّق بركهموم: «ولا تُبشّرنا بأيّ خير، كما يمكنني أن أُوكّد!»

وقال الأمير: «يا أصدقائي، حالما ينطلق المرء في مثل هذه المغامرة ينبغي له أن يودّع كلّ الآمال والمخاوف، وإلّا جاء الموت أو النجاة كلاهما متأخّرَين جدّاً عن إنقاذ شرفه وعقله. هُوْ، يا جميلَيّ (كان آنذاك يفتح باب الإسطبل) هاي، يا ابنَي العَمّ! مهلاً يا فُحيمان! هدوءاً يا ثُلَيجان! إنّكما غيرُ مَنسِيَّين».

وقد ذُعر الحصانان كلاهما من جرّاء الأضواء والأصوات الغريبة. وبعدما كانت جِلّ في ما مضى جبانةً جدّاً في العبور من كهفٍ إلى آخر بواسطة فتحةٍ سوداء،

دخلت بلا خوفٍ بين الحيوانَين الرافِسَين والشاخِرَين، وساعدتِ الأمير على إسراجهما وإلجامهما في دقائق قليلة. وما أجمل ما ظهرا لمّا خرجا إلى ساحة الدار وهُما يهزّان رأسيهما! ثمّ امتطت جِلّ ثُليجان، وركب بِركَهموم خلفَها، فيما جلس يُسطاس وراء الأمير على ظهر فُحَيمان. وبعدئذٍ، وسط أصداءٍ عالية صادرة عن الحوافر، خرجوا راكِبينَ من البوّابة الرئيسيّة إلى الشارع.

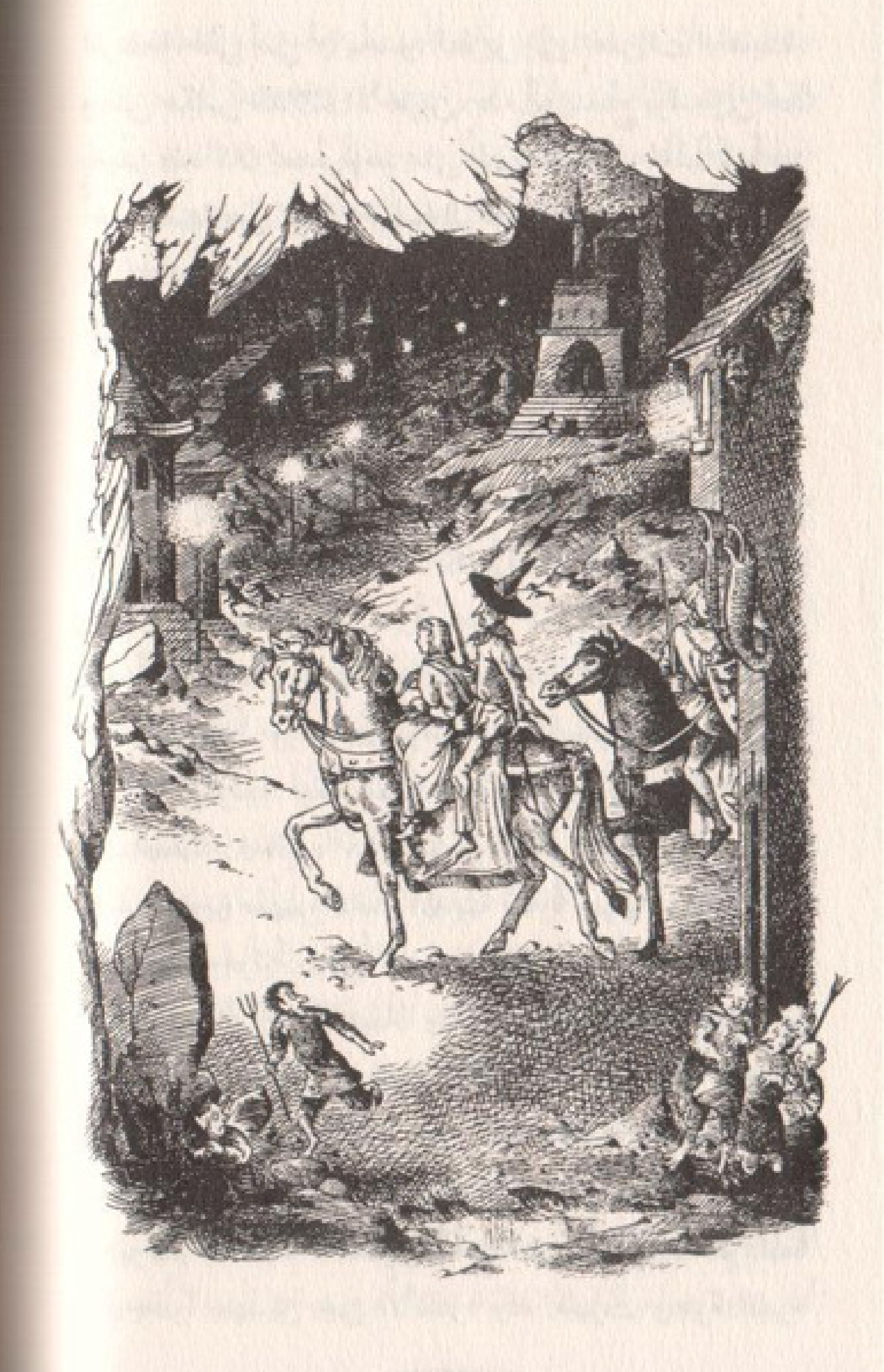
وعلّق بِركَهموم قائلاً: «لسنا في خطر كبير من أن نحترق. هذا هو الجانب المشرق في الأمر». ثمّ أشار إلى يمينهم. فإذا على بُعدٍ يقلّ عن مئة متر مياهٌ تُلاطِم حيطان البيوت.

وقال الأمير: «شجاعةً! إن الطريق هناك شديدة الانحدار. وتلك المياه لم تبلغ إلّا مُنتصف أعلى تلّةٍ في المدينة. فقد تصل إلى مسافةٍ قريبة جدّاً في أوّل نصف ساعة، ثمّ لا تقترب إلا قليلاً في أثناء الساعتين التاليتين. وهكذا، فإنّ خوفي الأشدّ هو من ذلك..». وأشار بسيفه إلى واحدٍ كبير طويل من أهلِ جَوف الأرض له أنيابُ خنـزيرٍ برّيّ، يتبعه ستّةٌ آخرون مختلِفو الأشكال والأحجام كانوا قد خرجوا بسرعة من شارع جانبيّ وتواروا في ظلال البيوت حيث لا يراهم أحد.

وظلّ الأمير يقودهم متوجّهاً دائماً نحو النور الأحمر المتوهّج، لكن قليلاً إلى الجهة اليُسرى منه. فقد كان ينوي أن يدور حول النار (إن كانت ناراً) ويتوجّه إلى الأراضي

المرتفعة، على أمل أن يجدوا الطريق إلى الحفريّات الجديدة. وعلى عكس الثلاثة الآخرين، بدا أنّه يتمتّع بوقته إلى حدٍّ بعيد. فقد كان يُصفّر وهو على ظهر الحصان، مُغَنّياً نُتَفاً من أُغنية قديمة عن كورين قبضة الرّعد الأرخيانيّ. ففي الواقع أنّه كان مسروراً جدّاً بكونه قد تحرّر من حالة انسِحاره التي طالت، بحيث بَدَتِ الأخطار كلُّها ألعاباً إذا قُورِنت بها. أمّا الآخرون فقد كان يرون الرحلة مخيفةً تنطوي على غموضٍ كثير.

كانَ وراءهم جَلَبةُ تصادُمٍ وتحطُّم سُفن، ودَويُّ انهيارِ مَبانٍ؛ وفوقَهم تلك الرُّقعةُ الكبيرة من النورِ المتوهِّج على سقف العالم السُّفليّ؛ وقُدّامهم الوَهَجُ اللُّغزُ الذي لم يبدُ أنّه كبر قطّ. ومن الجهة نفسها انبعث صَخَبٌ تمازجت فيه صرخات وزعقات، وصَيحاتُ استهجان، وضحكٌ وخوار ووَلولة؛ فيما انطلَقت مُفرقعات مختلفة الأنواع في الفضاء المُظلِم، لم يستطع أحدٌ أن يحزر معانيَها. وعلى مقربةٍ منهم، كانت المدينة مُنارةً جزئيّاً بفعل الوهج الأحمر، وجُزئيّاً بفعل النور المختلف جدّاً والمنبعث من مصابيح الأقزام الكئيبة. ولكنِ كانت مواقعُ كثيرة لم يصل إليها أيٌّ من هذين النُورَين فكانت سوداء فاحمة. وكانت كلٌّ حين تدخل وتخرج بسرعةٍ من تلك المواقع، مندفعةً ومُتوارية، أشكال بعضٍ من أهل جوف الأرض، وعيونُهم شاخصةٌ دائماً إلى الغُرباء فيما يحاولون هُم دائماً أن يظلّوا بعيدين عن الأنظار. وقد ظهرت وجوهٌ كبيرة



صغيرة كعيون الدبَبة. كما ظهر ريشٌ وشَعرٌ قاس، وقرونٌ وأنياب، وأنوفٌ مثل الخراطيم، وأذقان طويلة جدّاً بحيث بَدَت مثل اللّحى. وبين حينٍ وآخر كانت تظهر جماعةٌ منهم تبدو أكبر من المألوف أو تقترب أكثر من اللازم، وعندئذٍ يُلوّح الأمير بسيفه ويتظاهر بأنّه سيهجم عليهم، فلا يكون من تلك المخلوقات إلّا التغلغُل في قلب الظّلام ناعبةً وناعقةً وزاعقةً وصائحةً بكلّ صوتٍ مُنكَر.

ولكنْ لمّا صعدوا في عدّة شوارع شديدةِ الانحدار وصاروا بعيدين جدّاً عن الطوفان، وخارجَ المدينة تقريباً في داخليّة البَلَد بعيداً عن الماء، بدأت الحال تزداد خطورةً. فقد باتوا الآن قريبين جدّاً من الوهج الأحمر، وعلى مستواه تقريباً، مع أنّهم ما زالوا غير قادرين على معرفة حقيقتِه. ولكنّهم في ضوئه استطاعوا أن يروا أعداءهم بصورةٍ أفضل. فقد كان مئاتٌ من أهلِ جَوف الأرض — بل ربّما بضعة آلافٍ منهم — يتقدّمون جميعاً نحو الوهج. ولكنهم كانوا يفعلون ذلك في هَجَمات قصيرة المدى، وكلّما توقّفوا أداروا وجوههم وواجهوا المسافِرين الأربعة.

وقال بِركَهموم: «إذا سألتَني سُموّك، أقول إنّ هؤلاء القَوم يقصدون أن يقطعوا علينا الطريق من قُدّام».

فقال الأمير: «تلك كانت فكرتي أنا أيضاً، يا بِركَهموم. ولن نتمكّن أبداً من أن نشقّ طريقنا عنوةً وسط هذا العدد الكبير جدّاً. أصغوا إليّ! لنتقدّم بالحصانَين بمحاذاة حافةِ ذلك البيت. حتّى إذا وصلنا إليه، يجب عليكما أن

تنزلا وتلبدا في ظلّه. أمّا الآنسة وأنا فنتقدّم بضع خطوات أخرى. فإنّ بعضاً من هؤلاء العفاريت سيلحقون بنا، لا شكّ عندي؛ فهم كثيرون وراءنا. وأنتَ، يا ذا الذراعَين الطويلتين، أمسِكْ بواحدٍ منهم حيّاً، إن أمكنك، وهو مارٌّ بقربِ مكمَنِك. فربّما نحصل منه على خبرٍ يقين، أو نعرف ما سببُ شِجارهم معنا».

وسألت جِلْ بصوتٍ غير هادئٍ كما حاولت أن تجعله: «ولكنْ ألا يندفع الآخرون كُلُّهم لإنقاذ الذي نقبض عليه؟»

فقال الأمير: «عندئذٍ، سيّدتي، سترَيننا نموت ونحن نُقاتِل حوالَيكِ، وعليكِ أن تُسلّمي نفسَكِ للأسَد. الآن، يا بِركَهموم الطيِّب!»

فانسلّ ساكِنُ المستنقعات إلى الظلّ بسرعةِ هِرّ. أمّا الآخران، فتقدّما إلى الأمام على مهل، مُدّةَ دقيقةٍ مرِضة أو نحوها. ثمّ انطلقت من ورائهما سلسلة صَرَخاتٍ حادّةٍ مُروِّعة، مختلطةٍ بصوت بِركَهموم المألوف قائلاً: «والآن! لا تصرخْ قبل أن تؤذى، وإلّا فإنك ستؤذى فعلاً، أفهِمتَ؟ وسيَحسب أيُّ واحد أنّ خنزيراً كان يُقتل».

فعطفَ الأمير فُحَيمان حالاً، وهتف وهو راجعٌ إلى زاوية ذلك البيت: «هذه صيدةٌ جيّدة!» ثمّ أضاف: «يُسطاس، من فضلك، أمسِك برأسِ فُحَيمان». ثمّ ترجّل، وحدّق الثلاثة كلُّهم صامتين فيما جرّ بِركهموم طريدته إلى تحت الضوء، فإذا بها قزَمٌ من أبناء جَوف الأرض، تَعِسٌ بَئِس،

لا يتعدّى طولُه متراً واحداً. وكان له ما يُشبِه عُرفَ الديك (إنّما أقسى منه) على أعلى رأسه، وعينان صغيرتان قرنفليّتا اللون، وفمٌ وذقنٌ كبيران ومدوّران جدّاً بحيث بدا وجهُه أشبه بوجه فرس النهر القَزَم. ولو لم يكونوا في موقف حَرِج جدّاً، لانفجروا ضاحكين عند رؤيته.

وقف الأمير فوق الأسير، مادّاً رأس سيفه إلى نقطة قريبة جدّاً من عنقه، وقال: «والآن، يا ابنَ جوَفِ الأرض، تكلَّمْ بصراحةٍ تليق بواحدٍ شريف من بني جنسك، فنُطلِق سراحك. أمّا إذا حاولت خداعنا، فلن تكون إلّا وغْداً مقتولاً. ويا بِركَهموم الطيّب، كيف يمكنه أن يتكلّم وأنت تكمّ فمه؟»

فقال بِركَهموم: «لا يمكنه ذلك، كما لا يمكنه أيضاً أن يعضّ. فلو كانت لي اليدان الناعمتان السخيفتان اللتانِ لكم أنتم البشر (مع احترامي لسموّك)، لكنتُ الآن مُضرَّجاً بالدم. ومع ذلك فحتّى ساكنُ المستنقعات يسأم أن يُمضَغ!»

وقال الأمير لابنِ جَوف الأرض: «حذارِ! عضّةٌ واحدةٌ فتموت! دع فمه مفتوحاً، يا بِركَهموم».

فزعق ابنُ جَوفِ الأرض: «أو — إي — إي. أفلِتني، أفلِتني. ليس أنا! أنا لم أفعل ذلك».

وسأل بِركَهموم: «لم تفعل ماذا؟»

فأجاب المخلوق: «أيَّ شيءٍ تقولون، يا أصحاب الفضيلة، إنّني قد فعلتُه!»

وقال الأمير: «قُل لي ما اسمك، وماذا تفعلون جميعُكم اليوم يا أبناءَ جَوفِ الأرض».

فدمدم ابنُ جَوفِ الأرض: «رجاءً، يا أصحاب الفضيلة، رجاءً أيُّها السادة الأماجِد، عِدُوني بأنّكم لن تُخبروا جلالة الملكة بأيّ شيءٍ أقوله».

وقال الأمير بحزم: «إنّ جلاله الملكة، كما تدعوها، قد ماتت. فأنا نفسي قتلتُها».

فصاحَ ابنُ جوفِ الأرض، فاتحاً فمه المُضحِك أوسع فأوسع من فرط الدهشة: «ماذا! ماتت؟ الساحرة قد ماتت؟ وبيد فضيلتك؟»

ثمّ تنفّس الصُعَداء من أعماق صدره وأضاف: «حسناً، إنّ فضيلتك إذاً صديقٌ لنا!»

عندئذٍ أرجع الأمير سيفه بضعة سنتيمترات، وترك بِركهمومُ المخلوقَ يجلس. فأجال هذا نظرَه على المسافرين الأربعة بعينيه الحمراوين اللامعتين، وضحك ضحكةً خافتة أو ضحكتين، ثمّ باشر الكلام.

الفصل الرابع عشر

قَعر العالم

قال ابنُ جَوفِ الأرض: «اسمي غُلْغ. وسأُخبِركم، يا أصحابَ الفضيلة، بكلّ ما أعرف. فقبلَ نحو ساعةٍ واحدة، كنّا كلُّنا مُنصرِفين إلى عملنا — بل ينبغي أن أقول عملها هي — حزانى صامتين، مثلما كُنّا قد فعلنا تماماً يوماً بعد يوم وسنةً بعد سنة. عندئذٍ حدثَ انهيار وانفجار كبيران. وحالما سمع الجميع ذلك، قال كلٌّ منهم لنفسه: منذ زمن طويل لم أغنِّ أغنية ولا رقصتُ رقصة ولا أطلقتُ مُفرقَعة... فلماذا؟ وفكّر كلُّ واحد بينه وبين نفسه: عجباً، قد أكون مسحوراً! عندئذٍ قال كلٌّ لنفسه: تحلُّ عليَّ البركة إذا عرفت سبب حمْلي هذا الحِمل، ولن أحملَه بعد؛ ذلك كلُّ شيء. وهكذا طرحنا عنّا أكياسنا وصُرَرنا وآلاتنا. ثمّ التفت كلٌّ منّا فرأى الوهجَ الأحمر فوقُ هناك. فقال كلٌّ لنفسه: ما ذلك؟ وأجاب كلٌّ نفسه قائلاً: قد حدث شقٌّ أو ثقبٌ كبير، وها هو وهجٌ دافئٌ مُنعِش يطلع عبرَه من الأراضي العميقة حقّاً، مِن عُمق ألفِ قامةٍ تحتنا».

وهتف يُسطاس: «يا لَلعجَب العُجاب! هل مِن أراضٍ بعدُ أعمقُ تحتَنا؟»

فقال غُلْغ: «إي نعم، يا صاحب الفضيلة! أماكن بهيجة في ما ندعوه 'بلاد بِشم'. فهذا البَلَد الذي نحن فيه الآن، بلدُ الساحرة، هو ما ندعوه نحن 'الأراضي الضَّحلة'، وهو أقربُ بكثيرٍ جدّاً إلى سطح الأرض من أن يُناسِبنا. يُوه! كأنّك تعيش خارجاً، على السطح! فاعلموا أنّنا جميعاً مخلوقات بائسة من أهل جوف الأرض، من بلاد بِشم، استحضَرْتنا الساحرة بسحرها إلى هنا حتّى نخدمها. ولكنّنا كُنّا قد نسينا كلَّ ذلك، إلى أن حصل الانهيار وأُبطِلَ السحر. لم نكن نعرف مَن نحن ولا مِن أين نحن. ولم نكُن نقدر أن نعمل أيَّ عمل، ولا أن نُفكّر أيَّ فِكر، عدا ما تضعُه هي في رؤوسنا. وقد كانت تضع هناك، طوال تلك السنين، أموراً كئيبةً وكريهة. حتّى إنّني نسيتُ تقريباً كيف أقولُ نُكتةً، أو أرقص رقصةً سريعة. ولكنْ ما إن حصل الانفجار وانشقّت الثغرة، وبدأ البحر يطمو، حتّى تذكّرنا كلَّ شيء. وبالطبع، انطلقنا كلُّنا بأسرع ما يمكننا للهبوط عبر ذلك الشِقّ والعودة إلى وطننا الأصليّ. ويُمكِنكم أن ترَوهم جميعاً هناك يُطلِقون الصواريخ ويقفون على رؤوسهم مُبتهِجين. وسأكون شاكراً جدّاً لكم، يا أصحابَ الفضيلة، إن سمحتم لي سريعاً بأن أذهب وأنضمَّ إليهم».

وقالت جِلّ: «أظنُّ أنّ هذا مُمتاز جدّاً. فأنا مسرورة كثيراً لأنّنا حرّرنا أهلَ جَوفِ الأرض هؤلاء وأنفُسَنا أيضاً عندما

قطعنا رأس الساحرة! وأنا مسرورة جدّاً لأنّهم لم يعودوا مُروَّعين ومكتئبين مثلما كان الأمير أيضاً في الواقع... حسناً، أعني مثلما بدا».

فقال بِركَهموم بحذر: «هذا كلُّه حسنٌ جدّاً، يا پول. ولكنَّ هؤلاء القَوم لم يبدوا لي كفتيانٍ يهربون فحسب؛ فقد ظهروا أشبه بفِرَق عسكريّة، إن سألتني. فانظُر إلى وجهي مُباشرةً، يا سيِّد غُلْغ، وقُل لي إنّكم لم تكونوا تتأهّبون للقتال!»

فردَّ غُلْغ: «طبعاً كُنّا نتأهّب، يا صاحب الفضيلة. فأنتم ترَون أنّنا لم نكُن عارِفين أنَّ الساحرة قد ماتت. وحسِبْنا أنّها لا بدَّ أن تكون عاكفةً على مُراقبتِنا من القصر. فقد كنّا نحاول الفرار بغير أن ترانا. ثُمَّ حين برزتُمْ أنتم الأربعةَ على الخَيل حاملِين سيوفاً، قال كلٌّ واحد لنفسه طبعاً: ها قد خرجوا لقتالنا، غير عالمين أن فضيلته لم يكُن في صفِّ الساحرة. وقد كنّا عازمِين على القِتال بضراوة بدل التخلّي عن أمل الرجوع إلى بِشم».

وقال الأمير: «قسَماً إنّه قَزَم شريف من أهل جوف الأرض! أفلِته أيُّها الصَّدِيق بِركَهموم. أمّا أنا، يا غُلْغُ الطيِّب، فقد كنتُ مسحوراً مثلك ومثل رُفَقائك، وما تذكّرتُ نفسي إلّا منذ مدّةٍ قصيرة. والآن، سؤالاً واحداً بعد: هل تعرف الطريق إلى تلك الحفريّات الجديدة التي كانت الساحرة قد عزمت على الزحف منها بجيشٍ على العالمَ الأعلى؟»

فزعق غُلغ: «إيْيي! نعم، أنا أعرف الطريق الرهيب. وسأدلّكُم على أوّله. ولكن لا نفْع، يا صاحب الفضيلة، من الطلب إليّ أن أذهب معكم فيه. فالموتُ عندي أفضل».

وسأل يُسطاس بلهفة: «لماذا؟ ما المُروِّع في الأمر؟»

فأجاب غُلغ مُرتعِداً: «إنّه قريبٌ جداً من سطح الأرض، في الخارج. وذلك أسوأ شيءٍ عملَته الساحرة بنا. إذ كانت ستقودنا إلى الهواء الطَّلق، إلى خارج عالَمِنا. ويقولون إنّه لا سقفَ هناك أبداً، بل فراغٌ كبير هائل يُسمُّونه سماءً أو فضاءً. وقد وصلَت الحفريّات إلى حدٍّ بعيد، حتّى إنّ ضرباتٍ قليلةً فقط تُخرِجكم إلى السطح. فأنا لا أجرؤ على الاقتراب إلى هناك».

وصاح يُسطاس: «مَرحى، مَرحى! هذا كلام!» ثمّ قالت جِلّ: «ولكنْ ليس من شيءٍ مُروِّع أبداً فوق. فنحن نحبُّ ذلك المكان. إننا نعيش هناك».

فقال غُلغ: «أعرف أنكم، أنتم أهلَ سَطحِ الأرض، تعيشون هناك. ولكنّني حسبْتُ أنكم تفعلون ذلك لأنكم لم تستطيعوا أن تجدوا طريقكم إلى دُخولِ جوفِ الأرض. فلا يُعقَل أن تحبُّوا ذلك فعلاً: أن تزحفوا كالحشرات على أعلى العالم!»

وقال بِركَهموم: «ما قولك في أن تدلّنا على الطريق حالاً؟»

فصاح الأمير: «لقد حانتِ الساعة المَرجُوّة!» ثمّ انطلقت الجماعة كلُّها. وقد امتطى الأمير صهوة جواده

الحربيّ، وركب بِركهموم وراء جِلّ، وتقدَّمهم غُلغ. وبينما هو مُتقدِّم، أخذ ينادي ببشارة موت الساحرة وبأنّ سُكّانَ سطحِ الأرض الأربعةَ ليسوا خَطِرين. والذين سمعوه، نادوا بالخبرَ للآخرين. حتّى إنّ العالم السُفليّ كلّه، في ظرف دقائق معدودة، بات يُجلجِل بالهُتافات والتحيّات، وقد بدأ المئات والألوف من أهل جَوفِ الأرض يقفزون ويتشقلبون ويقفون على رؤوسهم ويتواثبون كالضفادع ويُطلِقون مُفرقَعاتٍ هائلة، مُحتشدين حول فُحيمان وثُلَيجان. وكان على الأمير أن يحكي قصّةَ انسحاره وتحريره عشر مرّات على الأقلّ.



على تلك الحال وصلوا إلى حافة الشِقّ. وقد كان بطولِ ثلاث مئة متر تقريباً، وعرضٍ يُناهز ستّين متراً. فترجّلوا عن حصانَيهما وتقدَّموا إلى الحافَة، ونظروا إلى عمقها، فانبعثت

منها حرارةٌ شديدة سفعت وجوههم، مُختلِطة برائحة لا تُشبِه أيَّة رائحة سبق أن شمُّوها على الإطلاق. فقد كانت كثيفة وحادَّة ومؤثِّرة، تجعلكَ تعطس. وكان عمقُ الشِقّ مُتوهِّجاً جدّاً بحيث بهر عيونهم في البداية، فلم يَرَوا شيئاً. ولمّا تعوَّدتْه عيونُهم، تصوَّروا أنَّهم لمحوا نهرَ نارٍ، وعلى ضفاف ذلك النهر ما بدا أنَّه حقولٌ وبساتينُ من ضياء حارٍّ لا يُطاق، وإن كانت باهتةً إذا قُورِنت بالنهر ذاته. وقدِ اختلطت ألوانٌ، زرقاء وحمراء وخضراء وبيضاء، بعضُها ببعض (ربَّما تصدر نتيجةٌ مشابهة لذلك عن زجاجِ نافذة كثيرِ الألوان إذ تخترقُه مباشرةً عند الظُّهر شمسُ المناطق الاستوائيَّة). وعلى جوانب الشقّ الوَعِرة، كان مئاتٌ من أهْلِ جَوفِ الأرض ينـزلون بكلّ حذر وهم يَبدون كالذباب الأسود مقابلَ ذلك النور المتوهِّج جدّاً.

عندئذٍ تكلَّم غُلْغ (لمَّا التفتوا لينظروه لم يروا شيئاً سوى السواد بضعَ دقائق، إذ كانت عيونهم مبهورة) قائلاً: «يا أصحاب الفضيلة، لماذا لا تنـزلون إلى بِشم؟ فهناك ستكونون أسعد حالاً منكم في تلك البلاد الباردة المكشوفة غير المَحميَّة في الأعلى... أو على الأقلّ، تفضَّلوا انزِلوا في زيارة قصيرة!»

واعتبرَت جِلّ أمراً بديهيّاً ألّا يُصغيَ أحدٌ من الآخرين لهذه الفكرة حيناً. ولكنْ روَّعها أن تسمع الأمير قائلاً:

«حقّاً، أيُّها الصَديق غُلْغ، كان لديَّ بعضُ الميل للنـزول معك. فإنَّ هذه مغامرة مُذهِلة. ولَربَّما لم يسبق

قطُّ لأيِّ إنسانٍ فانٍ أن شاهد داخل بِشم، ولَن تُتاح له فرصة أُخرى بعد. ولست أدري كيف أُطيق، في السنين القادمة، أن أتذكَّر أنَّه تسنَّى لي أن أسبر أغوار هُوَّة الأرض السُفلى ولم أغتنم تلك الفرصة. ولكنْ هل يستطيع إنسانٌ أن يعيش هناك؟ أنتمُ لا تسبحون في نهر النار بالذات؟»

«أوه، لا، يا صاحب الفضيلة، ليس نحن. فحيوانات السَمَندَر* وحدها تعيش في النار ذاتها».

وسأله الأمير: «أيُّ نوعٍ من البهائم سَمَندرُكم؟»

فقال: «يصعب تحديد نوعه، يا ذا الفضيلة. فإنَّه شديد الاتِّقاد بحيث يصعب النظر إليه، ولكنَّه يُشبه التِنِّين الصغير. وهو يتحدَّث إلينا من قلب النار. فحيوانات السَمَندر بارعة في استخدام ألسنتها براعةً مُدهِشة، إذْ إنَّها فصيحة وسريعة البديهة جدّاً».

والتفتَت جِلّ إلى يُسطاس على عَجَل. فقد تأكَّد لها أنَّه لا بدَّ أن تُعجِبه فكرةُ النـزول في الشقّ أقلَّ ممّا أعجبَتها هي أيضاً. ولكنْ غاص قلبُها داخل صدرها لمّا رأت وجهَه قد تغيَّر. إذ بدا أشبه بالأمير منه بصَغرون القديم في مدرسة دار التجريب. ذلك أنَّ جميع مغامراته، والأيّامَ التي فيها أبحر مع الملك كاسپيان، قد أخذت ذكرياتُها تعود إليه. وقد قال:

* السمندر: كائن أسطوري من الزواحف، كان يُعتقَد أنه يسكن النار.

«يا سموَّ الأمير! لو كان صديقي القديم ريبيتشيب الفأرُ هنا لقال إنَّه لا يُمكِننا أن نرفض مغامراتِ بِشم بغير أن يلحق شرفنا عارٌ عظيم».

وقال غُلغ: «هُناك في الأسفل يُمكِنني أن أُريَكم ذهباً حقيقيّاً، وفضّةً حقيقيّة، وماساً حقيقيّاً».

فقالت جِلّ: «كلام فارغ! وكأنّنا لم نعرف أنّنا هُنا بالذات تحتَ أعمقِ المناجم».

أجاب غُلغ: «بلى، لقد سمعتُ بتلك الخدوش في قشرة الأرض، تلك التي تُسمّونها، أنتم سُكّانَ سطح الأرض، مناجم. ولكنْ منها تحصلون على ذهبكم الميْت، وفضّتكم الميْتة، وجواهركم الميْتة. فتحتُ في بِسم هي حيّةٌ عندنا. وهنالك يُمكِنني أن أختار لكم عناقيد من الياقوت تستطيعون أن تأكلوها وأعصر لكم كأساً ملأى من عصير الماس. ولن تعودوا تهتمّون كثيراً بأن تمسّوا بأصابعكم الكنوزَ الميتة الباردة التي تجدونها في مناجمكم الضحلة، بعد تذوّقكم كنوز بِشم الحيّة».

وقال ريليان بتروّ: «لقد ذهب أبي إلى آخِر العالم. فكم يكون عجيباً أن يذهب ابنه إلى قعر العالم!»

فقال بِركَهموم: «إذا كنتَ تُريد، يا سموَّ الأمير، أن ترى أباك وهو ما يزال حيّاً، الأمرُ الذي أظنُّ أنّه يُفضّله، فقد حان وقتُ سيرنا على الطريق المؤدّية إلى تلك الحفريّات».

وقالت جِلّ: «وأنا لن أنزل في ذلك الثُّقب مهما قال أيُّ شخصٍ».

فقال غُلغ: «حسناً، إذا كُنتم، يا أصحاب الفضيلة، مُصمّمين فعلاً على الرجوع إلى العالَم العُلويّ، فهنالك جزءٌ من الطريق أكثر انخفاضاً من هذا بَعد. وربّما، إذا كان ذلك الطوفان ما يزال..».

وتوسّلت جِلّ قائلةً: «رجاءً، رجاءً، لِنُكملْ سيرنا!»

فقال الأمير: «أخشى أن يكون ذلك هو ما ينبغي لنا أن نفعله، ولكنّني تركتُ نصف قلبي في بلاد بِشم».

وتابعت جِلّ توسّلَها: «رجاءً!»

فسأل بِركَهموم: «أين هي الطريق؟»

فقال غُلغ: «هنالك مصابيح على طول الطريق. ويُمكنك، يا صاحب الفضيلة، أن ترى أوّل الطريق من ضفّة الشقّ البعيدة».

وسأل بِركَهموم: «كم سيدوم اشتعال المصابيح؟»

في تلك اللحظة تناهى إليهم صوتُ هَسْهسة وتأجّج صافراً بحدّةٍ من أعماق بِشم ذاتها، يُشبه صوت النار بذاته (وقد تساءلوا في ما بعد عن احتمال كونه صوت سَمَندر). وقال الصوت:

«أسرِعوا، أسرِعوا، أسرعوا! إلى الصخور، إلى الصخور، إلى الصخور! الشقّ ينغلق، إنّه ينغلق، إنّه ينغلق! أسرِعوا، أسرعوا!»

وفي الوقت نفسه تحرّكت الصخور بأصوات تصدُّع وانهيار تصمُّ الآذان. وكان الشقُّ فعلاً قد صار أضيق وهُم ينظرون، وأخذ أهل جَوفِ الأرض المتأخّرون يتدافعون

إليه من كلِّ ناحية. ولم يكونوا يتمهَّلون لينـزلوا على الصخور كالمعتاد، بل طرحوا أنفسهم كمن يغطس في الماء، وقد شُوهِدوا يتهادَون نزولاً كورق الشجر، إمّا لأنَّ ريحاً حارَّة كانت تهبُّ من القعر صعوداً وإمّا لسببٍ آخر. وأخذت أعدادهم تتكاثف باستمرار وهم يعومون نزولاً، حتّى كادت كثافتهم السوداء تحجب نهر النار وبساتين الجواهر الحيَّة.

عندئذٍ صاح غُلغ: «وداعاً يا أصحاب الفضيلة!» ثمَّ اندفع غاطساً. وكان الشقُّ قد صار أقلَّ عرضاً من نهرٍ صغير، ثمَّ بات ضيِّقاً كأنَّه فتحة صغيرة في صندوق بريد، وما لبث أن صار مجرَّد خيطٍ شديدِ التلألؤ. ثمَّ انطبقت ضفَّتا الشقّ الصخريَّتان بِدَويٍّ يُشبه اصطدام ألف قطارِ شحن بألفِ حاجزٍ مضاعف. فتلاشت رائحة السخونة المُثيرة، وإذا بالمسافرين الأربعة وحدهم في عالمٍ سُفليٍّ بدا آنذاك أشدَّ سواداً ممّا كان قبلاً. وقد دلَّتهم على معالم الطريق أضواءُ المصابيحِ الباهتةُ القاتمة الخافتة.

عندئذٍ قال برِكَهموم: «والآن، من المؤكَّد أنّنا قد أطلْنا المكوث هنا، ولكنْ يحسن بنا أن نُحاول. فهذه المصابيح ستنطفئ بعد خمس دقائق، ولن أتعجَّب».

ثمَّ حثُّوا الحصانين على الإسراع، ومضَوا يطرقون الدرب مُسرعين وسط النور الباهت. ولكنْ في الحال تقريباً بدأ الدرب يهوي نزولاً. فكان من شأنهم أن يحسبوا

أنَّ غُلغ دلَّهم على طريقٍ خاطئ، لو لم يَرَوا الأضواء، عند الجانب الآخر من الوادي، مستمرَّةً صعوداً على مدى نظرهم. ولكنْ في قعر الوادي شعَّت المصابيح على مياهٍ جارية.

وصاح الأمير: «بسرعة!» فانطلق الحصانان عَدْواً. ولو وصلوا إلى هناك بعد خمس دقائق، لواجهوا صعوبةً أعظم، لأنَّ مدَّ الماء كان يعلو في الوادي كتدفُّق مياه الطاحون. وإنِ اضطُرُّوا إلى السباحة، فالحصانان سيجدان صعوبةً في أن يعبرا الماء سباحةً. ولكنْ كانت المياه بعُمق قدمٍ أو قدمين فقط. ومع أنَّها دوَّمت على نحوٍ رهيب حول أرجُل الحصانَين، وصلوا إلى الجانب الأبعد بأمان.

ثمَّ ابتدأت مسيرة الصعود البطيئة المُتعِبة، وليس أمامهم ما يتطلَّعون إليه سوى المصابيح الباهتة التي امتدَّت أعلى فأعلى بمقدار ما يمكن أن ترى العين. ولمّا



نظروا إلى الوراء تمكّنوا من رؤية المياه تطمو. فإذا بجميع تلال العالم السُفليّ آنذاك قد صارت جُزراً، ولم تبقَ المصابيح إلّا على تلك الجُزر فقط. وكلّ لحظةٍ اختفى ضوءٌ من الأضواء البعيدة. وسرعان ما أخذ الظلام يعمّ كلّ مكانٍ ما عدا الطريق الذي يسيرون فيه. بل إنّ ضوء المصابيح، على الجزء الأدنى خلفهم، أخذَ يشعُّ على الماء، مع أنّ أيّةَ مصابيح لم تنطفئ هناك بعد.

ورُغم وجوب الإسراع لأسبابٍ وجيهة، لم يكن الحصانان قادرين على الاستمرار بغير استراحة. فتوقّفوا، وأمكَنهم وسط السكون أن يسمعوا تلاطُم المياه.

ثمّ قالت جِلّ: «تُرى، هل غرق الآن ما اسمُه — الأبُ زمان — وجميع تلك الحيوانات الغريبة النائمة؟»

فقال يُسطاس: «لا أظنُّ أنّنا الآن على مثل ذلك الارتفاع. ألا تتذكّرين أنّه كان علينا النزول في وادٍ للوصول إلى البحر الذي لا شمس فيه؟ لستُ أعتقد أنّ المياه وصلت إلى كهف الأبِ زمان حتّى الآن».

وقال بِركَهموم: «ربّما كان ذلك صحيحاً. ولكنّني أكثرُ اهتماماً بالمصابيح على هذا الطريق. فهي تبدو شاحبةً ضعيفةً قليلاً، أليس كذلك؟»

فقالت جِلّ: «طالما بَدَت هكذا!»

أجاب بِركَهموم: «نعم، ولكنّها الآن أكثر اخضراراً».

فصاح يُسطاس: «لستَ تعني أنّكَ تظن أنّها على وشك الانطفاء؟»

وأجاب السبّاخ: «أنت تعلم أنّك لا تستطيع أن تتوقّع استمرارها مُنيرةً إلى الأبد، مهما كانت كيفيّة اشتعالها. ولكنْ لا تفقدْ رباطة جأشك، يا صغرون! فأنا كنت أُراقب المياه أيضاً، ولا أعتقد أنّها تعلو بمثل سرعتها السابقة».

وقال الأمير: «هذه تعزيةٌ ضئيلة، يا صديقي، إنْ لم نعثر على الطريق التي تُخرِجنا من هنا. ألتمس صَفحَكم جميعاً. فعليّ يقع اللوم بسبب كبريائي وأوهامي التي أخّرتنا عند مدخل بلاد بِشم. والآن، لِنُتابع سيرنا!»

وعلى مدى الساعة التالية تقريباً، ظنّت جِلّ أحياناً أنّ بِركَهموم على حقّ بالنسبة إلى المصابيح، وظنّت أحياناً أنّ تصوُّراتها توحي لها بذلك. ولكنْ في أثناء ذلك كانت طبيعة الأرض تتغيّر. إذ بات سقف العالم السُفليّ قريباً جدّاً، حتّى قدروا أن يُميّزوه بكلّ وضوح ولو في الضوء الباهت. كما أنّ حيطانَ العالَم السُفليّ الشاهقة الوعرة باتت تُرى أكثر تقارُباً إلى كلّ ناحية. بل إنّ الطريق، في الواقع، كانت تصعد بهم في نفقٍ مُنحَدِر. وبدأوا يمرّون بمَعاوِل ورُفوش وعَرَبات يد، وأشياء أخرى تدلُّ أنّ الحفّارين كانوا يشتغلون هناك منذ عهدٍ قريب. ولو كان في وسع المرء أن يتأكّد من إمكانيّة الخروج، لكان ذلك كلُّه مُبهِجاً جدّاً. ولكنّ فكرة الاستمرار في المسير في نفقٍ يزداد ضيقاً باستمرار، حتّى يصير التراجُع فيه أصعب، كانت فكرةً غير سارّةٍ جدّاً.

أخيراً صار السقف منخفضاً كثيراً حتّى ارتطم به رأسا الأمير وبِركَهموم. فترجّل الجميع، واقتادوا الحصانَين. عندئذٍ صارتِ الطريق غيرَ مُستوية، وكان على الواحد منهم أن يتخيّر أين يضع قدمه بشيء من الحَذر. بهذه الطريقة لاحظت جِلّ تزايُد الظلام. إذ لم يعد من شكٍّ في ذلك الآن بعدما بَدَت وجوه الآخرين غريبة ومُروّعة تحت النور الأخضر الخافت. عندئذٍ صرخت جِلّ فجأةً صرخةً خفيفة، لم تستطع أن تتمالك نفسها عنها. فإنّ واحداً من الأنوار، هو التالي قُدّامهم، انطفأ تماماً؛ وتبعه حالاً الذي وراءهم. ثمّ باتوا في ظلامٍ دامس.

وسُمع صوت الأمير ريليان قائلاً: «شجاعةً، يا أصحاب! فسواءٌ عشنا أم مُتنا، يبقى أصلان هو سيّدَنا الصالح».

وقال صوتُ بِركَهموم: «صحيحٌ، سيّدي! وعليكم أن تتذكّروا دائماً أنّ لاحتجازنا في الأسفل هنا وجهاً مُشرِقاً، فإنّه يوفّر علينا مصاريف الدّفن».

أمّا جِلّ فلم تقُل كلمةً واحدة. (إذا كنتَ لا تُريد أن يعرف الآخرون مدى خوفك، فالحكمة تقضي دائماً بأن تتصرّف هكذا، إذ إنّ صوتك يفضحك.)

وأمّا يُسطاس فقال: «يُمكِننا أن نتقدّم إلى الأمام بدلاً من الوقوف حيث نحن». ولمّا سمعت جِلّ الارتجاف في صوته، عرفت كم كانت حكيمةً في عدم وثوقها بصوتها.

ثمّ تقدّم بِركَهموم ويُسطاس أوّلاً وأذرُعهما ممدودةً

أمامَهما، خوفاً من الارتطام بشيء، فيما تبعهما الأمير وجِلّ وهما يقتادان الحَصانين.

وبعد مدّةٍ غير قصيرة سُمع صوت يُسطاس قائلاً: «تُرى، أثمّةَ مكروهٌ حدث لعيني، أم فوقُ في الأعلى بصيصُ نور؟»

وقبل أن يتمكّن أحد من مُجاوبته، صرخ بِركَهموم: «قفوا! لقد وصلتُ إلى حائط مسدود، وهو تُرابيّ، لا صخريّ. ماذا كنت تقول، يا صغرون؟»

غير أنّ الأمير قال: «وحقّ الأسد! إنّ يُسطاس على حقّ. فهنالك نوعٌ من..».

عندئذٍ قالت جِلّ: «ولكنّه ليس ضوءَ نهار، بل هو نورٌ واهٍ أزرق من نوعٍ ما».

فردّ يُسطاس: «ومع ذلك، فهو أفضل من لا شيء! أيُمكِننا أن نصعد إليه؟»

وأجاب بِركَهموم: «ليس فوق رؤوسنا تماماً. إنّه فوقَنا، لكنّه في هذا الحائط الذي اصطدمتُ به. ما رأيُكِ، يا پول، لو وقفتِ على كتفيّ للتأكّد من إمكانيّة الوصول إليه؟»

الفصل الخامس عشر

اختفاء جِلّ

لم يكشف بصيصُ النور أيَّ شيءٍ في الظُّلمة حيث كانوا واقفين في الأسفل. وقد استطاع الآخران أن يسمعا فقط، دون رؤية شيء، مُجاهَدة جِلَّ للصعود إلى ظهر ساكِنِ المستنقعات. ذلك أنَّهما سمعاه يقول: «لا داعيَ لأنْ تضعي إصبعَكِ في عيني»، ثُمَّ: «ولا قدمَكِ في فمي أيضاً»، ثُمَّ: «هذا أفضل بقليل»، ثُمَّ: «والآن، سأمسِكُ برجلَيكِ حتّى تبقى ذراعاكِ حُرَّتين لتثبيت نفسك على تُراب الحائط».

وبعدئذٍ رفعا نظرهما فرأيا سريعاً شكلَ رأسِ جِلَّ الأسودَ مُقابِلَ بصيص النور.

وهتف الجميع بحماسة: «ماذا؟»

فردَّ صوت جِلَّ: «إنَّه ثغرة! ولو كنتُ أعلى قليلاً لتمكَّنتُ من المرور عبرَها».

وسألها يُسطاس: «ماذا تَرَين من خلالها؟»

أجابت: «لا شيئاً كثيراً بعد. ما رأيك، يا بركهموم، لو تُفلِت رِجليَّ حتّى أتمكَّن من الوقوف على كَتِفيكَ بدلاً

من الجلوس عليهما. فبإمكاني تثبيت نفسي جيِّداً على الحافة».

كان في وسعهم جميعاً أن يسمعوا تحرُّكها، ثُمَّ بدا للعِيان — مُقابِلَ الضوء الرماديِّ الداخل من الفتحة — جزءٌ كبيرٌ منها، بل كلُّ جسمها من رأسها حتّى خصرها.

وبدأت جِلُّ تقول: «برأيي..». إلَّا أنَّها انفجرت صارخةً صرخةً غير حادَّة، كما لو أنَّ أحداً كَمَّ فمها أو أقحم فيه شيئاً. بعد ذلك عاد إليها صوتُها وبدا أنَّها أخذت تصرخ بأعلى صوتها، ولكنَّهم لم يقدروا أن يسمعوا كلماتها. ثمَّ حدث شيئان في اللحظة عينها. فإنَّ بصيص النور حُجِب تماماً، ثانيةً واحدة أو نحوها؛ وسمعوا حسَّ عراكٍ وكفاح، وصوت ساكن المستنقعات لاهثاً: «بسُرعة! النجدة! تمسكوا برِجلَيها. إنَّ شخصاً ما يسحبها. هُناك! لا بل هُنا. لقد فات الأوان!»

ثمَّ ظهرتِ الثغرة مُجدَّداً بوضوح، مع الضوءِ الفاتر الذي عاد يملأُها. أمّا جِلَّ فقدِ اختفت!

وصرخوا مذعورين: «جِلّ! جِلّ!» إنَّما لم يكُن جواب!

وقال يُسطاس: «تَبّاً للشيطان! لماذا لم تتمكَّنا من الإمساكِ بقدميها؟»

فردَّ بركهموم مُتأوِّهاً: «لستُ أدري، يا صغرون. فإذ وُلِدتُ لأكون سيِّئ التكيُّف، لا ينبغي أن أتعجَّب. هذا أمرٌ محتوم. إنَّ موت پول أمرٌ محتوم، تماماً كما كان محتوماً

أن آكل لحم غزالٍ ناطق في صِلابُناب. ولا يعني هذا أنَّ الغلطة كانت غلطتي أيضاً بالطبع».

وقال الأمير: «هذا أعظمُ عارٍ وغمٍّ كان يمكن أن يحصل لنا! لقد سلّمْنا آنسةً باسلة إلى أيدي الأعداء، وتخلّفْنا نحنُ حيث الأمان».

فقال برِكهموم: «لا ترسُم الصورة قاتمةً جداً، يا سيّدي. فنحنُ لسنا في أمانٍ تامٍّ في هذا النفق إلّا للموت جوعاً».

وقال يُسطاس: «ترى، أأنا صغير كفايةً للمرور عبر المكان الذي مرّت فيه جِلّ؟».

أما ما جرى لجِلّ فعلاً، فهو هذا: حالما أخرجت رأسها من الثُّغرة، تبيّن لها أنّها كانت تنظر إلى تحتُ كما من نافذةٍ في الطابق الاعلى، وليس إلى فوقُ كما من طاقةٍ أُفقيّة في سقف. وكان قد طال بقاؤها في الظلام، حتّى لم تقدر عيناها أوّلاً أن تستوعبا ما تَرَيانه، ما عدا أنّها لم تكن تنظر إلى العالم المُشمِس في وضح النهار كما كانت تتمنّى كثيراً. وقد بدا الهواء بارداً جداً، كما كان الظلام شاحباً وأزرق. كذلك كان مقدارٌ كبير من الجَلَبة جارياً، وكثيرٌ من الأشياء البيضاء تتطاير في الهواء. في تلك اللحظة نادت برِكهموم طالبةً أن يَدَعها تقف على كَتِفَيه.

ولمّا فعلت ذلك، استطاعت أن تسمع وترى الكثير على نحوٍ أفضل. فإذا بالأصوات التي كانت تسمعها تظهر من نوعَين: وقْع بضع أقدامٍ بإيقاعٍ منتظم، وموسيقى

أربع كمنجات وثلاثة نايات وطبلٍ واحد. كذلك اتّضح لها موقعُها أيضاً. فقد كانت تنظر إلى الخارج من فتحةٍ في ضفّةٍ منحدرة مائلة لا تلبث أن تنبسط على بعد أربعة أمتارٍ تقريباً تحتها. وكان كلُّ شيءٍ شديد البياض، وعددٌ كبير من الأشخاص يتنقّلون. عندئذٍ شهقت لاهثةً! فقد كان أولئك الأشخاص فُوناتٍ صغاراً مُرتَّبين وحوريّات غابات على رؤوسهنّ أكاليل من ورق الشجر يَنسبْنَ وراءهم. وبدا لحظةً أنّهم يتحرّكون كيفما كان، ثمّ تبيّنَ لها أنّهم يرقصون فعلاً رقصةً ذاتَ كثيرٍ من الخطوات والحركات المعقّدة بحيث يستغرق فهمُك لها وقتاً لا بأس به. وبعدئذٍ نزل عليها نزولَ الصاعقة إدراكُها أنّ الضوءَ الأزرق الشاحب كان ضوءَ القمر فعلاً، وأنّ المادّة البيضاء على الأرض كانت في الحقيقة ثلجاً. وبطبيعة الحال، ظهرت النجوم مُتلألئةً في سماءٍ قاتمةٍ باردةٍ جداً تُخيِّم فوق الرؤوس: أمّا الأشياء السوداء الطويلة وراء الراقصين، فقد كانت أشجاراً. فها هم قد خرجوا أخيراً لا إلى العالمَ الأعلى فقط، بل إلى قلب نارنيا. وأحسّتْ جِلّ أنّه كان يُمكن أن يُغمى عليها من شدّة الابتهاج، وتعزّز إحساسُها ذلك على نحوٍ متزايد إذ سمعت الموسيقى: تلك الموسيقى الغريبة العجيبة، العذبة عذوبةً حادّة، والمُخيفة رغمَ ذلك أيضاً بمقدارٍ ضئيل لا يكاد يُلاحَظ، والمشحونة بالسِّحر الصالح بقدْر ما كانت زَنْزَنةُ الساحرة مشحونة بالسِّحر الرديء.

هذا كلُّه تستغرق روايتُه وقتاً طويلاً، ولكنَّ رؤيته بالطبع تمّت في وقتٍ قصيرٍ جدّاً. وفي الحال تقريباً أدارت جِلّ وجهها لتُنادي الآخرين قائلةً: «برأيي أنَّ كلَّ شيءٍ على ما يُرام! فقد صرنا في الخارج، وعُدنا إلى ديارنا». إلاَّ أنَّ سبب عدم إضافتها شيئاً إلى قولها «برأيي» كان هذا: لقد رأت حول الراقصين مجموعة من الأقزام يدورون في حلقة راقصة، وهم لابسون أفخرَ ثيابهم التي يغلب عليها اللونُ القرمزيُّ، والتي لها قلانسُ ذاتُ حواشٍ من الفرو وشُرّاباتٌ ذهبيّة، وأحذيةٌ طويلة الساق كبيرة مكسوّة بالفرو. وبينما هم يدورون، كانوا كُلُّهم يتراشقون بكُرات الثلج باجتهاد. (كانت تلك هي الأشياءَ البيضاء التي قد رأتها جِلّ مُتطايرةً في الهواء.) ولم يكونوا يَرمون كُراتِ الثلج على الراقصين، كما كان ممكناً أن يفعل الصبيان غيرُ المهذّبين في إنكلترة، بل كانوا يرمونها في أثناء الرقص بتوقيتٍ دقيق جدّاً مُتناغِم مع الموسيقى وبتصويبٍ بارع التسديد، حتّى إذا كان جميع الراقصين في أماكنهم الصحيحة تماماً، وفي اللحظات الصحيحة تماماً، لا يُصابُ أيُّ واحدٍ منهم. تُسمّى هذه رقصة الثلج العظيمة، وتُقام كلَّ سنة في نارنيا في أوّلِ ليلة مُقمِرة بعد سقوط الثلج وتغطيته لِلأرض. وهي بالطّبع لعبة كما هي رقصة، لأنّه بين الحين والحين يغلط راقصٌ ما غلطةً يسيرة جدّاً فتُصيبه كرة ثلج في وجهه، ويضحك الجميع. ولكنَّ فرقةً جيّدة من الراقصين والأقزام والعازفين تبقى قائمةً بأدوارها ساعاتٍ

طويلةً بغير إصابة واحدة. وفي الليالي الحلوة، عندما يتغلغل البرد وقرعات الطَّبل ونعيبُ طيور البوم وضوءُ القمر في دمائهم الغابيّة الغريبة فتصير أغربَ بَعد، يرقصون حتماً حتّى بزوغ الفجر. وكم أتمنّى لو كان يُمكِنك أن ترى ذلك بأُمّ عينك!

أما الذي أوقف جِلّ عن متابعة كلامها بعد قولها «برأيي» فكان بالطبع مجرّد كرة ثلجٍ كبيرة تماماً انطلقت مُبحِرةً بين الراقصين من يد قزمٍ في الجهة البعيدة وأصابت فمها إصابةً مُباشرة. ولم يهمَّها ذلك في شيء، إذ إنَّ عشرين كرة ثلج لم تكُن لتُفسِد بهجتها في تلك اللحظة. ولكنْ مهما كانت سعادتك غامرة، لا يمكنك أن تتكلَّم وفمُك مملوء ثلجاً. ولمّا استطاعت، بعد قدْر كبير من الغَمغمة، أن تتكلَّم من جديد، نَسِيت تماماً في غمرة انفعالها أنَّ الباقين، وراءَها في الظلام تحتُ، كانوا ما يزالون غير عارفين بتلك البُشرى. ولكنّها فقط مالت برأسها إلى الأسفل خارجَ الثُّغرة بقدْر ما يمكنها، ونادت الراقصين قائلةً:

«النجدة! النجدة! نحنُ مطمورون في التلّة. فتعالوا احفروا وأخرِجونا».

ولمّا كان النارنيانيُّون لم يُلاحِظوا قطُّ الثغرةَ الصغيرة في جانب التلّة، فقد فوجئوا فعلاً، وأخذوا يتطلّعون إلى بضع اتّجاهات خاطئة قبل أن تبيَّن لهم مصدرُ الصوت. ولكنّهم لمّا لمحوا جِلّ أقبلوا كلُّهم راكضين نحوها، وتسلّق الضفّةَ

أكبرُ عددٍ استطاع ذلك منهم، ثمّ امتدّت اثنتا عشرة يداً أو أكثر لمساعدتها. فتمسّكت جِلّ بتلك الأيدي، وهكذا خرجت من الثُّغرة وهَوَت مُنزلقةً على مُنحدَر التلّة ورأسُها إلى أسفل، ثمّ نهضت وقالت:

«أوه، هلاّ تذهبون وتحفرون لإخراج الآخرين! هناك ثلاثة غيري، ما عدا الحصانين. وواحدٌ منهم هو الأمير ريليان!»

وكانت قد صارت فعلاً في وسط حشدٍ كبيرٍ عندما قالت ذلك. ففضلاً عن الراقصين، جاء راكضاً كلُّ نوعٍ من المخلوقات التي كانت تُشاهِد الرقص والتي لم ترَها جِلّ أوّلَ وهلة. إذ خرجت السناجب من الأشجار بأعدادٍ كبيرة، وحَذَت حذوَها طيورُ البوم. وأقبلت القنافذ تتهادى بأسرع ما يمكن أن تحملها أرجلُها القصيرة. ثمّ لحقت بها الدبَبة والغُرَيرات بسرعةٍ أبطأ. وكان آخرَ مخلوقٍ انضمّ إلى الحشد نَمِرٌ ضخمٌ جاء وهو يهزُّ ذيله من فرط التأثّر.

ولكنّهم ما إن فهموا ما كانت جِلّ تقوله، حتّى دبَّ فيهم النشاط جميعاً. فقال الأقزام: «المَعاولَ والرفوش، يا فِتيان، المعاولَ والرفوش. هيّا لإحضار عُدّتنا!» ثمّ اندفعوا إلى الغابة بأقصى سرعتهم. وقال صوت: «أيقظوا بعض حيوانات الخُلد، فهم أربابُ الحَفر، ولا يقلّون عن الأقزام براعةً». كما قال آخر: «ماذا كان ما قالته عن الأمير ريليان؟» فقال النَّمِر: «اشْش! أصاب الخبل الفتاة المسكينة، وهذا غير مُستغرَب بعد ضياعها داخل التلّة.

إنّها لا تعرف ما تقوله!» وقال دبٌّ مُسِنّ: «صحيح! ألَم تقلْ إنّ الأمير ريليان حِصان؟» فردّ سنجابٌ بحدّة بالغة: «لا، لم تقُل ذلك!» وقال سنجابٌ آخر، بحدّةٍ أكثر بَعد: «بلى، قالت!»

فقالت جِلّ للأخير: «ما قالّلهوو صاحبُكَ صاحِيح! فَلّلا تكُن ساذجاً». وقد تكلّمت بهذه الصورة لأنّ أسنانها كانت تصطكُّ من البرد آنذاك.

وفي الحال طرحت عليها إحدى حوريّات الغابات عباءةً ذاتَ فَرو كان أحد الأقزام قد أوقعها عند اندفاعه لإحضار عُدّة الحفر الخاصّة به. ومضى فُونٌ كريم مُسرِعاً بين الأشجار إلى حيثُ رأت جِلّ ضوء نار في مدخل كهف، كي يُحضِر لها شراباً ساخناً. ولكنْ قبل رجوعه، ظهر الأقزام كلّهم من جديد حاملين رفوشاً ومَعاوِل وتوجّهوا إلى جانب التلّة مُسرِعين. ثمّ سمعت جِلّ صُراخاً تردّدت فيه أقوال: «هاي! ماذا تفعل؟ ألقِ ذلك السيف!» وأيضاً: «والآن، يا فتى، كُفَّ عن هذا». وأيضاً: «إنّه واحد فاسد حقّاً، أليس كذلك؟» فأسرعت جِلّ إلى الموقع ولم تدرِ أتضحك أم تبكي، لمّا رأت وجه يُسطاس شاحباً ووسخاً جدّاً، مُطِلاً من ظلمة الثغرة، ويَده اليُمنى تُلوّح بسيف يُهوّل به لطعن أيّ مَن حاول الاقتراب منه.

ذلك أنّ يُسطاس، بطبيعة الحال، كان يواجه وضعاً مختلفاً عن وضع جِلّ في أثناء الدقائق القليلة الأخيرة. فقد سمع صراخ جِلّ وشاهد اختفاءها إلى المجهول.

وشأنه شأنُ الأمير وبركهموم، تصورَ أنَّها وقعت في أيدي بعض الأعداء. ومن ذلك المكان في الأسفل، لم يعرف أنَّ الضوء الشاحب المائل إلى الزُّرقة كان ضوءَ القمر. وظنَّ أنَّ الثغرة إنَّما تؤدِّي إلى كهفٍ آخر يُنيره وميضٌ فوسفوريٌّ شَبَحيٌّ من نوع ما، حافلٌ بمخلوقات شرِّيرة من العالم السُّفلي تعرفُ السماءُ حقيقتها. وعليه، فعندما أقنع بِركَهموم بُمساندته، وجرَّد سيفه، وأطلَّ برأسه عبر الثغرة، كان يقوم فعلاً بعمل شجاعٍ جداً. وكان من شأن الآخَرَين أن يسبقاه إلى ذلك لِو استطاعا، لكنَّ الثُّغرة كانت أضيَق من أن يعبرا فيها. وقد كان يُسطاس أكبر من جِلَّ قليلاً، وأقلَّ براعةً منها بكثير، حتَّى إنَّه لَمَّا أطلَّ من الثُّغرة صدم رأسه بأعلاها فأسقط على وجهه انهياراً ثلجيّاً ضئيلاً. وهكذا، فحين استطاع أن يرى من جديد وشاهد عشرات الأشخاص مُقبِلين عليه بأسرع ما يقدرون أن يركضوا، لم يكُن مفاجئاً أن يحاول صَدَّهم.

وصاحت جِلّ: «كفى، يا يُسطاس، كفى! هؤلاء جميعاً أصدقاء لنا. الا يُمكِنك أن ترى أنَّنا خرجنا إلى نارْنيا؟ كلُّ شيءٍ بخير».

عندئذٍ رأى يُسطاس ذلك فعلاً، فاعتذر إلى الأقزام (وطلب الأقزام إليه ألّا يقلق من جهة ذلك)، ثمَّ ساعدته عشرات الأيدي القزميَّة الثخينة الشَّعراء على الخروج، كما سبق أن ساعدَت جلَّ قبل دقائق قليلة. ثمَّ تسلَّقت جِلّ مُنحدَر التلَّة، ودسَّت رأسها في الفتحة المظلمة وبشَّرت

السجينَين الآخرين بالخبرَ الطيِّب. وإذ دارت مُبتعِدةً، سمعت بِركَهموم يُتمتِم: «آه، يا لَپُول المسكينة! لقد كان هذ الجزء الأخير من الأحداث قاسياً عليها كثيراً. ولست أتعجَّب من كونها منفعلة جدّاً، إذ بدأت تُدرِكُ حقيقة الأمور».

اجتمع شَمل جِلّ ويُسطاس من جديد، وصافحا أحدهما الآخر بكِلتا اليَدين، وتنشَّقا أنفاساً كبيرة وعميقة من هواء نصف الليل الطَّلق. ثُمَّ أُحضِرت ليُسطاس عباءة مُدفئة، وقُدِّم شرابٌ ساخن لِكلَيهما. وبينما هما يرشفانه، كان الأقزام قد جرفوا كلَّ الثلج والتُّربة عن نطاق كبير من مُنحَدر التلَّة حول الثُّغرة الأصلية، وأخذت المعاول والرفوش تعمل عملها برشاقة لا تقلُّ عن رشاقة أقدام الفُونات وحوريّات الغابات لَمّا كانوا يرقصون قبل عشر دقائق. نعم، عشر دقائق فقط! ومع ذلك كان جلّ ويُسطاس قد بدأا يشعران كما لو أنَّ كلَّ ما واجهوه من أخطار وسط الظلام، ومن حرارةِ جوف الأرض وجوِّ الخانق عموماً،



لا بدَّ أنّه كان مجرَّد حلم من الأحلام. فهنالك في الهواء الطَّلق البارد، حيث يشعُّ القمر والنجوم الضخمة فوق الرؤوس (ونجومُ نارْنيا أقربُ من نجوم عالمنا)، وحيث الوجوهُ المَرِحة اللطيفة حوالَيهما، بات تصديقُ وجود العالم السُّفليّ أمراً شبه مُستحيل.

وقبل انتهائهما من تناول الشراب الساخن، كان نحو اثني عشر خُلداً قد وصلوا بعد إيقاظهم بوقتٍ قصير وعلاماتُ النعاس ما تزال ظاهرةً عليهم، مع شيء من الانزعاج. ولكنْ ما إن عرفوا حقيقة الأمر، حتّى أخذوا يُشارِكون في العمل بعزم قويّ. حتّى الفُونات قدَّموا خدمة كبيرة بنقل التُّراب بعيداً في عَرباتِ يدٍ صغيرة، فيما أخذ السناجب يرقصون ويقفزون ذهاباً وإياباً بابتهاج شديد، مع أنّ جِلَ لم تُدرِك قطُّ ماذا حسبوا أنفسهم فاعلِين تماماً. أمّا الدببَة والبُوم فقد اكتفَوا بإسداء النصائح، وظلُّوا يسألون الولَدَين إن كانا يودَّان الذهاب إلى الكهف (حيث سبق أن شاهدت جِلَ ضوء النار، ليتدفّأا ويتعشّيا. ولكنّ



الولَدَين لم يُطيقا الذهاب بغير رؤية صديقَيهما يُحرَّران، مع الحصانَين طبعاً.

لا أحد في عالمنا يقدر أن يعمل عملاً كالذي يعمله الأقزام وحيوانات الخُلد الناطقة في نارنيا. ولكنّ الأخلاد والأقزام؛ بطبيعة الحال، لا يعتبرون ذلك عملاً مجرَّداً. فهم يحبُّون الحفر حقّاً. ولذلك لم يمض وقتٌ طويل قبل إحداثهم شقّاً أسود كبيراً في مُنحَدر التلّة. ومن ذلك السواد خارجاً إلى ضوء القمر، خرج أوّلاً شكلُ السبّاخ الطويلُ القامة والساقين وذو القُبَّعة ذاتِ البرُج، ثُمّ تبعه الأمير ريليان نفسهُ يجرُّ حصانين كبيرين. وكان من شأن ذلك أن يكون مُروِّعاً لو أنّ الحاضرين لم يعرفوا من قبلُ أنّ أولئك سيخرجون.

وما إن ظهر بركَهموم حتّى تعالت الهُتافات من كلّ ناحية: «ياه! إنّه سبّاخ... عجباً، إنّه بِركَهموم الشّيخ... بِركَهموم الشيخ ساكنُ المستنقعات الشرقيّة... تُرى، ماذا كنت تفعل يا بِركَهموم؟... لقد أُرسِلت فِرَق للتفتيش عنك!... ما زال اللورد طرمبكِن يُصدر بياناتٍ تتعلّق باختفائك... لقد رصد جائزة للعثور عليك!» ولكنّ ما لبث ذلك كلّه أن تلاشى في لحظة واحدة وساد صمتٌ تامّ، مثلما تتلاشى الضجّة سريعاً في مهجع تلامذةٍ مُشاكِسين حالما يفتح المُدير الباب. فقد رأى النارنيانيُّون الأمير حالاً.

ولم يشكَّ أيٌّ منهم لحظةً في هُويّة الأمير. ذلك أنّ كثيراً من الحيوانات وحوريّات الغابات والأقزام

والفونات كانوا يتذكّرونه منذ الأيّام السابقة لوقوعه في قبضة السحر. واستطاع بعضُ الكبار في السنّ أن يتذكّروا كيف كان منظر أبيه الملك كاسپيان في شبابه، ورأوا الشبه الكبير بينهما. ولكنّني أعتقد أنّهم كانوا سيعرفونه على كلّ حال. فرغم شحوبه بسبب طول أسره في الأراضي العميقة، وثيابه السوداء، وكونهِ مغبراً وأشعث الشعر ومُتعَباً، كان في وجهه وتعابيره شيءٌ لا يمكن أن يُخطئَه أحد. إذ إنّ الملامح عينها تبدو في وجه كلّ ملكٍ حقيقيٍّ من ملوك نارنيا الذين يملكون بإرادة أصلان ويجلسون في كيرپارافيل على عرش بطرس الملك الأعلى. وفي الحال انكشف كلّ رأس وانحنت كلّ ركبة إجلالاً. وبعد لحظةٍ تعالى كثيرٌ من الهتاف والصُراخ وحصل فجأةً كثيرٌ من القفز والشقلبة تعبيراً عن الفرح، وكثير من المصافحة والتقبيل والعناق بين الجميع، حتّى إنّ عينَي جِلّ ترقرقتا بالدّمع، إذ تأكّد لها أنّ مسعاهم كان يستحقّ كلّ ما كلّفهم من مشقّات.

ثمّ قال أكبر الأقزام سنّاً: «إذا سرّ الأمر سُموّك، فإنّ العمل جارٍ على إعداد عشاء في ذلك الكهف ما دُمنا قد انتهينا من رقصة الثلج...».

فردّ الأمير: «بكلّ سُرورٍ، يا أبَتِ! فليس من أمير أو فارسٍ أو سيّدٍ أو دُبٍّ كانت له قطّ شهيّةٌ للطعام مثل التي لنا نحنُ الجوّالِين الأربعة هذه الليلة».

وبدأ الحشد كلّه يتحرّك بين الأشجار باتّجاه الكهف. وسمعَت جِلّ بِركَهموم يقول للذين تجمّعوا حوله: «لا، لا، فقصّتي يمكنها أن تنتظر. لم يحدث لي شيءٌ يستحقّ التكلّم عنه. أريد أن أسمع الأخبار. فلا تحاولوا سردها لي بالتقسيط، لأنّي أودُّ معرفة كلّ شيء في الحال. هل تحطّمت السفينة بالملك؟ هل شبّت أيّة حرائق في الغابات؟ أليس من حروب على حدود كالورمن؟ أمَا ظهر عددٌ قليل من التنانين، ولن أتعجّب؟» فضحكت المخلوقات كلّها عالياً وقالت: «أليس هذا تصرّف سبّاخ تماماً؟».

كان الوَلَدان يكادان يسقطان أرضاً من التعب والجوع. ولكنّ دفءَ الكهف ومجرّدَ رؤيته وضوءُ النار يتراقص على الحيطان والخزائن والكؤوس والصحون والصحاف، وعلى الأرضيّة الحجريّة الناعمة، كما في مطبخ بيتٍ ريفيّ، أنعشاهما قليلاً. ومع ذلك غطغط عليهما النوم فيما العشاءُ يُعَدّ. وفي أثناء نومهما، مضى الأمير ريليان يتحدّث عن المغامرة بكاملها مع الحيوانات والأقزام الأكبر سنّاً والأكثر حكمةً. وعندئذٍ أدرك الجميع حقيقة الأمر: كيف أنّ ساحرةً شرّيرة (حتماً من نوع تلك الساحرة البيضاء التي جلبت الشتاءَ الطويل على نارْنيا قديماً) قد حبكت الأمر كلّه، فقتلت أمّ ريليان أوّلاً ثمّ سحرت ريليان نفسَه. وتبيّن لهم كيف حفرت نَفقاً تحت نارْنيا وكانت تنوي أن تشنّ هجوماً مُفاجئاً وتَحكُمَ بواسطة ريليان، وكيف أنّه لم يحلم قطّ بأنّ البلد الذي ستجعله

مَلِكاً عليه (مَلِكاً بالاسْم لكنْ عبداً لها بالفعل) كان بلدَه. ومن جزء القصّة المتعلّق بالولَدَين، تبيّن لهم كيف كانت على علاقة تحالُف وصداقة بمَرَدة صِلابُناب الخَطِرين.

ثمّ قال القَزَم الأكبر سنّاً: «والعِبرة من هذا كُلّه، يا سموّ الأمير، أنّ أولئك الساحرات الشماليّات يقصدْن الأمر عينه دائماً، ولكنّهن يعتمدنَ في كلّ عصر خطّةً مختلفة للوصول إلى قصدهنّ الرديء».

الفصل السادس عشر

شفاء الجِراح

لمّا استيقظت جِلّ صباحَ اليوم التالي ووجدت نفسها في كهف، ظنّت للحظةٍ مُروَّعة أنّها قد رجعت إلى العالَم السُفليّ. ولكنْ حين لاحظت أنّها مُستلقية على فراشٍ محشوٍّ بالخَلَنج، ومُغطّاة بعباءةٍ ذاتِ فَرو، وشاهدت ناراً مُبهِجة تتأجّج (كما لو كانت قد أُشعلت منذ قليل) في موقد حجريّ، ورأت في البعيد ضوء شمس الصباح يدخل فُوّهة الكهف، حينئذٍ تذكّرت الحقيقة البهيجة كاملةً: أنّهم تناولوا عشاءً شهيّاً بعدما احتشدوا جميعاً داخل ذلك الكهف، رُغمَ كونِ النعاس قد استولى عليهم قبل الانتهاء من العشاء تماماً. وتذكّرت بغموضٍ أقزاماً تجمّعوا حول النار حاملين مقاليَ أكبر منهم فعلاً، وطشيشاً ونشيشاً ورائحة طيّبة صادرةً كلّها عن نقانق تُقلى، وكميّاتٍ متزايدةً من النقانق الشهيّة، لم تكن من تلك النقانق الخفيفة المحشوّ نصفُها بالخبز وفول الصويا، بل كانت مقانق حقيقيّةً ملأى لحماً ومَرَقاً ودسماً، يتصاعد منها البخار، وقد تشقّقت وتحمّرت بغير أن تحترق. كما

تذكَّرت أباريق كبيرة من شراب الشوكولا المُزبِد، وبطاطا مشويّة، وكستناءً مَشويّاً، وتُفّاحاً مطبوخاً محشوَّ القلب بالزبيب، ثُمَّ مُثلّجاتٍ من شأنها أن تُنعِشكَ بعد كلّ تلك المأكولات الساخنة.

بعدئذٍ جلستْ وتطلّعت حواليها. وكان بِركهموم ويُسطاس متمدّدَين على مقربةٍ منها وكلاهما يغطّان في نومٍ عميق. فنادت بصوتٍ عالٍ:

«هاي، أنتُما الاثنَين! ألن تنهضا أبداً؟»

وقال صوتٌ ناعِسٌ من مكانٍ ما فوقها: «شُو، شُو! إنّه وقتُ الهدوء يا هُو. خُذي إغفاءَةً قصيرة، ولا تُحدِثي أيّة ضجّةٍ قطعاً... تُوهُو، تُوهو!»

فرفعت جِلّ نظرها وشاهدت كتلةً من الريش الأبيض الوثير جاثمةً على أعلى ساعة حائط كبيرة موضوعة على الأرض في إحدى زوايا الكهف: «عجباً، أظنُّ فعلاً... أظنُّ فعلاً أنّ هذه هي ريشنُور البومة!»

فردّت البومة بصوتٍ يرنُّ رنيناً، رافعةً رأسها من تحت جناحها وفاتحةً عيناً واحدة: «صحيح، صحيح! لقد جئتُ حاملةً رسالةً من الأمير، تقريباً في الساعة الثانية ليلاً. إنّ السناجب بلّغونا الخبرَ الطيّب، فقد أتوا برسالة إلى الأمير. فهو قد ذهب وعليكما أنتما أن تلحقا به. نهاراً سعيداً...».

ثمّ اختفى رأسها تحت جناحها من جديد.

وإذْ بدا أنّه يتعذّر الحصولُ على أيّة معلومات من البومة، نهضت جِلّ وأخذت تنظر حواليها بحثاً عن أيّة إمكانيّة

لأن تستحمّ وتتناول فطوراً ما. ولكنْ في الحال تقريباً دخل إلى الكهف مُسرِعاً فونٌ صغير وظِلفاه العنزيّان يُطرطِقان على الأرضيّة الحجريّة، وقال:

«آهَه! لقدِ استيقظتِ أخيراً يا ابنة حوّاء. يُستَحسَن أن تُوقِظي ابن آدم. عليكما أن تنطلقا في ظرف دقائق قليلة، وقد عرض قنطوران بكلّ لطف أن تمتطيا ظهرَيهما للنزول إلى كَيرپراڤيل». ثمّ أضاف بصوتٍ أكثر انخفاضاً: «طبعاً، تعرفان أنّه شرَف خاصٌ جدّاً لم يُسمَع به قبلاً أن يُسمَح لأحدٍ بامتطاء ظهر قنطور. لا أذكر أنّي سمعتُ قطعاً بأنّ أحداً قام بذلك من قبل. فليس من اللائق أن تدعاهما ينتظران».

«أين الأمير؟» هذا كان أوّل سؤال طرحه يُسطاس وبِركهموم حالما تمّ إيقاظُهما.

فأجاب الفون، وكان اسمُه أرُنص: «لقد نزل لملاقاة الملك، أبيه، في كيرپراڤيل: فمن المُتوقَّع أن تصل سفينته إلى الميناء في أيّة لحظة. يبدو أنّ الملك قابل أصلان (لا أدري أفي رؤيا أم وجهاً لوجه) قبل أن يمضي بعيداً في إبحاره، وقد أرجعه أصلان قائلاً له إنّه سيجد ابنه المفقود منذ زمن طويل ينتظره عند وصوله إلى نارنيا».

كان يُسطاس عندئذٍ قد استيقظ، فأخذ هو وجِلّ يُساعِدان أرُنص في تحضير الفَطور. أمّا بِركهموم فطُلِب إليه أن يبقى في السرير. إذ إنّ قنطوراً يُدعى ولْدغَيم، وهو طبيب مشهور، أو «حكيم» (كما دعاه أرُنص)، كان

آتياً للاعتناء بقدمه المحروقة. فقال بِركهموم بلهجةٍ يغلب عليها الرِّضى: «آه! سيُضطرُّ إلى بتر الرِّجل عند الرُّكبة، ولن أتعجَّب. وسترى إن كان لا يفعل ذلك». ولكنَّه كان مسروراً إلى حدٍّ بعيد بملازمة الفِراش.

كان الفَطور بيضاً مخفوقاً مَقليّاً وخبزاً مُحمَّصاً، فأقبل عليه يُسطاس كأنَّه لم يتعشَّ عشاءً كبيراً في نصف الليل.

فقال الفون وهو ينظر بشيءٍ من الرُّعب إلى لُقَم يُسطاس:

«برأيي، يا ابنَ آدم، أنَّه لا داعيَ للعجَلَة على هذا النحو الرهيب حقّاً. فلا أظنُّ أنَّ القنطورَين قد فرغا من فَطورهما بعد».

فقال يُسطاس: «إذاً لا بدَّ أن يكونا قد نهضا متأخِّرَين كثيراً، بعد الساعة العاشرة، كما أعتقد!».

أجاب أرُنص: «كلاَّ! بل نهضا قبل طلوع الضوء».

فقال يُسطاس: «إذاً لا بدَّ أن يكونا قد انتظرا وقتاً طويلاً جداً قبل الفَطور».

وردَّ أرُنص: «لا، لم ينتظرا. فقد بدأا يأكلان حالما نهضا».

فقال يُسطاس: «عجباً! هل يتناوَلان فَطوراً كبيراً جدّاً؟».

«تُرى، ألا تفهم يا ابن آدم؟ فالقنطور له معدة إنسان ومعدة حصان. وكلتاهما طبعاً بحاجة إلى طعام. ولذلك

فهو يتناول أوّلاً عصيدةً وسمكَ قوسِ قُزَح ولوبياء ولحماً مُقدَّداً وعجةَ بيض ولحماً بارداً وخبزاً محمَّصاً ومُربّى وقهوة وبيرة. وبعد ذلك يهتمُّ بالقسم الحصانيِّ منه، فيرعى العشب ساعةً أو نحوها، ثُمَّ يُكمِل فطوره بحبوبٍ مهروسة ساخنة وشيء من الشوفان وكيس سُكَّرٍ صغير. لذلك قد يُفلِس مَن يَستقبل قنطوراً يومين في آخر الأُسبوع! فهذا أمرٌ بالغ الخطورة فعلاً».

في تلك اللَّحظة سُمع وقْعُ حوافرِ أحصنة تقرع الصخر من فُوَّهة الكهف، فرفع الولدان نظرهما، وإذا بالقنطورين، اللذين كان أحدهما ذا لحية سوداء والآخر ذا لحية ذهبيَّة تتدلَّيان على صدرَيهما العاريين الرائعين، واقفان ينتظرانهما وقد حَنَيا رأسيهما قليلاً لينظرا داخل الكهف. عندئذٍ تأدَّب الولدان جدّاً، وأكملا فطورهما بسرعةٍ كبيرة. فلا أحد يعتبر القنطور مُضحِكاً إذا شاهده. إذ إنَّ القنطورات قومٌ رائعون ذوو مهابة، مُفعَمون بالحكمة القديمة التي يتعلَّمونها من النجوم، وليس من السَّهل كثيراً إبهاجُهم أو إغضابهم، إلاَّ أنَّ غضبهم رهيب كمدِّ البحر حين يحصل.

عندئذٍ توجَّهت جِلّ إلى سرير ساكِن المستنقعات، وقالت: «وداعاً، يا بِركَهموم العزيز. آسِفة لاعتباري إيّاك مُنغِّصاً للعيشة أو مُفسِداً للبهجة».

فقال يُسطاس: «وأنا أيضاً آسِف. لقد كنتَ أروع صديقٍ في الدُّنيا».

وأضافت جِلَ: «أرجو فعلاً أن نلتقي من جديد».

فأجاب بِركَهموم: «الأمل بذلك ضعيف، حسب رأيي. ولستُ أظنُّ أيضاً أنّني سأرى وَغمي* القديم مرّة أُخرى. أمّا الأمير، وهو شابٌّ رائع، فهل تحسبانه قوياً جدّاً؟ لقد دمّرت العيشة تحت الأرض بنيته، ولن أتعجّب. إنّه يبدو من النوع الذي قد يرحل في أيِّ يوم!»

فقالت جِلَ: «بِركهموم! أنت محتالٌ هَرِمٌ فعلاً! إنّك تبدو كئيباً كمن يسير في جنازة، ولكنّي أعتقد أنّك سعيدٌ للغاية. ثمّ إنّك تتكلّم كمن يخاف من كل شيء، غير أنّك بالحقيقة شجاعٌ مثل... أسد!»

وبدأ بِركَهموم يقول: «والآن، على ذِكر الجنازة..».

ولكنّ جِلَ، إذ سمعت طرطقة القنطورَين بحوافرهما خلفها، فاجأته كثيراً لمّا طوّقت عنقه النحيل بذراعيها وقبّلت وجهه الذي يبدو بلون الوحل. أمّا يُسطاس فقد صافحه بيده بكلّ حرارة. ثمّ انطلقا كلاهما نحو القنطورَين، فيما قال السبّاخ لنفسه وهو يتهالك على فراشه من جديد: «حسناً، لم أكُن لأحلم بأن تُعانِقني هكذا، مع أنّني فعلاً فتىً حسن المنظر!»

إنّ امتطاء قنطور، بلا شكّ، هو شرف عظيم (وما عدا جِلَ ويُسطاس ربّما لا يوجد في العالم اليوم أيّ إنسانٍ

* الوغم: كوخ مخروطي الشكل، مكسوٌّ بلحاء الشجر أو جلود الحيوانات.

حيّ فعل ذلك)، ولكنّه أمرٌ غير مريح جدّاً. فما من أحدٍ تهمُّه حياته كثيراً يُمكِن أن يقترح وضْع سَرج على قنطور، وامتطاؤه بلا سَرج ليس مُبهجاً أبداً، خصوصاً لمن لم يتعلّم ركوب الخيل قطّ، مَثَله مثلُ يُسطاس — وقد كان القنطوران مهذّبين ومؤدّبين بطريقة لطيفة جدّيّة راشدة، وفيما كانا يسيران هرولةً وسط غابات نارنيا أخذا يتكلّمان، بغير أن يُديرا رأسيهما، مُخبِّرَين الوَلَدين عن خصائص الأعشاب والجذور، وتأثير الكواكب، وأسماء أصلان التسعة مع معانيها، وما شابه ذلك. ولكنْ رُغمَ انزعاج هذَين الآدميَّين وتعبهما، كانا الآن مُستعدَّين لبذل أيّ ثمن للقيام بتلك الرحلة مرّةً أُخرى، كي يريا تلك الفُرَج والسفوح متلألئة بالثلج الذي سقط البارحة، ويُلاقيَهما الأرانبُ والسناجب والطيُور الذين صبّحوهما بالخير، ويتنشّقا من جديد نسيم نارنيا، ويسمعا حفيف الأشجار النارنيانيّة!

ونزل القنطوران بهما إلى النهر الذي تتدفّق مياهُه متلألئةً زرقاء تحت وَهجِ شمس الشتاء، أدنى من الجسر الأخير بكثير (وقد كان عند مدينة بيرونا الصغيرة الوادعة ذات السقوف الحُمر). ثُمّ جرى نقلهما إلى ضفّة النهر الأُخرى بمركبٍ يقوده سبّاخ؛ لأنّ السبّاخين هم الذين يقومون بكلّ ما يتعلّق بشؤون الماء والسَمَك في نارنيا. وبعد عبور النهر، امتطيا القنطورَين على طول ضفّة النهر الجنوبيّة حتّى وصلا إلى كَيرپراڤيل بالذات.

ولحظةَ وصولهما شاهدا السفينة عينها التي سبق أن شاهداها عندما وطئت أقدامُهما أرض نارنيا أوّلَ مرّة، مُنسابةً على مياه النهر كطائر ضخم. وكان أفراد حاشية الملك قدِ احتشدوا من جديد على العشب الأخضر بين القصر ورصيفِ المرفإ للترحيب بالملك كاسپيان العائد إلى الوطن. أمّا ريليان، الذي غيّر ثيابه السوداء ولبس عباءةً قرمزيّة فوق قميص الزَّرَد الفضّيّ، فوقف على مقربة من حافة الماء مكشوفَ الرأس، لاستقبال أبيه، وقد كان إلى جانبه القَزَم طرَمبكِن قاعداً على كُرسيّه الصغير الذي يجرّه حمارٌ ضئيل. وتبيّن للوَلَدين أنّه يتعذّر الوصول إلى الأمير من خلال ذلك الحَشْد كلّه، كما شعرا بكثير من الخجل الآن، على كلّ حال. فاستأذنا القنطورَين أن يبقيا على ظهرَيهما بعضَ الوقت بَعد فيتمكّنا من رؤية كلّ شيء من فوقِ رؤوس أفراد الحاشية، فأذِن لهما القنطوران بذلك.

ثمّ لمعت مجموعةٌ من الأبواق الفضيّة على ظهر السفينة وتألّقت فوق الماء، وطرح البحّارة حبلاً ربطه على الشاطئ بعضُ الفئران (الناطقة طبعاً) والسبّاحين، وجُرّت السفينة إلى الرصيف. وبدأ بعض العازفين، المختبئين في مكانٍ ما بين الجمهور، يعزفون موسيقى جليلةً تعبّر عن الانتصار. وما لبثت سفينةُ الملك الكبيرة أن أُرسيَت بمحاذاة الرصيف، وثبّت الفئرانُ المعبر الخشبيّ على حافتها.

وتوقّعت جِلّ أن ترى الملك الشيخ نازلاً على المعبر. ولكنْ بدا أنّ تأخيراً ما قد حصل. إذ ترجّل على الشاطئ لُوردٌ شاحبُ الوجه، وركع تحيّةً للأمير وطرمبكِن. ثمّ مضى الثلاثة يتحادثون بضع دقائق ورؤوسُهم قريبة بعضها من بعض، إنّما لم يسمع أحد ما قالوه. وظلّت الموسيقى تصدح، لكنْ كان في وسع المرء أن يشعر بأنّ الجميع أخذوا يضطربون. ثُمّ ظهر على متن السفينة أربعة فرسان يحملون شيئاً ما ويسيرون ببطءٍ شديد. ولمّا بدأوا يهبطون على المعبر الخشبيّ تبيّن ما كانوا يحملون: الملك الشيخ على سرير وهو شاحبٌ وساكنٌ جدّاً. ثمّ أنزلوه، فركع الأمير بقربه وعانقه. واستطاع الولَدان أن يرَيا الملك كاسپيان وهو يرفع يده مُباركاً ابنَه. فهتف الجميع، لكنْ هتافاً فاتراً، لأنّ الجميع أحسّوا أنّ أمراً سيّئاً يجري. ثمّ هوى رأس الملك فجأةً على وسادته، فتوقّف العازفون، وساد صمتٌ رهيب. وبينما الأمير راكعٌ بقرب سرير الملك، أسند عليه رأسه وأخذ يبكي.

ثُمّ حصل تهامُس، وأخذ بعضهم يروحون ويجيئون. وعندئذٍ لاحظت جِلّ أنّ جميع الذين كانت على رؤوسهم قُبّعات أو قلانس أو خُوَذ أو أغطية أخذوا ينزعونها — بمَن فيهم يُسطاس. ثمّ سمعت جِلّ صوت خشخشة وخَفْق في الأعلى على سطح القصر. ولمّا التفتت، رأت العَلَم الكبير الذي تظهر عليه صورةُ أسدٍ ذهبيّ يُنزَل على السارية حتّى نصفها حِداداً. وبعد ذلك انطلقتِ الموسيقى

من جديدٍ بطيئةً حزينةً، بأوتارٍ مُنتحِبة ونفخِ أبواقٍ يبعث الغَمَّ في النفس، عازفةً هذه المرَّة لحناً جنائزيّاً يفطر القلب.

ثمَّ نزل كلاهما عن قنطورَيهما، دون أن ينتبه هذان إليهما.

وقالت جِلّ: «يا ليتني كنتُ في بلادي!»

فأومأ يُسطاس برأسه مُوافِقاً، ولم يقُل كلمة واحدة، بل عضَّ شفته.

وإذا بصوتٍ عميقٍ يقولُ من ورائهما: «ها قد جئتُ!» فالتفتا، فشاهدا الأسد بنفسه، متألّقاً وحقيقيّاً وقويّاً للغاية حتّى بدأ كلُّ شيءٍ آخر يبدو شاحباً وقاتماً مُقارنةً به. وفي لُحيظةٍ تقلُّ عن مُدَّة شهقةٍ وزفرة، نسِيَت جِلّ أمر وفاة ملك نارنيا، وتذكَّرت فقط كيف جعلَت يسطاس يسقط مِن على الجُرف، وكيف أخفقت في تمييز العلامات الأربع كلِّها تقريباً، وكم وقع من شِجار وخلاف. وأرادت أن تقول: «أنا آسفة»، ولكنَّها لم تقدر أن تتكلَّم. ثمَّ جذبهما الأسد نحوه بعينيه، وانحنى ومسَّ وجهَيهما الشاحبَين بلسانه، وقال: «لا تعودا تُفكّران في ذلك. لَن أكون مُوبِّخاً لكما بعد. لقد قُمتُما بالعمل الذي لأجله أرسلتكُما إلى نارْنيا».

فسألت جِلّ: «رجاءً يا أصلان، هل لنا أن نرجع إلى بلادنا؟»

أجاب أصلان: «نعم! لقد أتيتُ لآخُذكما إلى بَلَدِكما». ثمَّ فتح فمه واسعاً ونفخ. لكنَّهما هذه المرَّة لم

يحسَّا أنَّهما يطيران في الهواء، بل بدا أنَّهما ظلّا ساكنَين، فيما أبعدت نفخةُ نَفَسِ أصلان الهائل السفينةَ والملكَ المُتوفَّى والقصرَ والثلج وسماءَ الشتاء. فإنَّ هذه الأشياء كلَّها سبحت مبتعدةً في الهواء كضفائر الدخان، وفجأةً وجدا أنفُسَهما واقِفَين في ضياءٍ باهرٍ من نور الشمس في عزِّ الصيف، على تربةٍ ناعمة، بين أشجارٍ ضخمة، بقرب نبع عذبٍ مُنعِش. ثمَّ تبيَّنَ لهما أنَّهما على جَبَل أصلان مرَّةً أخرى، فوق أعلى القِمَم بعيداً عن آخِرِ العالم الذي فيه تقع نارنيا. ولكنَّ الأمر الغريب أنَّ الموسيقى الجنائزيَّة للملك كاسپيان كانت ما تزال تُسمَع، مع أنَّ أحداً لم يستطع أن يعرف مصدر الموسيقى. وكانا يمشيان إلى جانب النهر والأسدُ يتهادى أمامهما: وقد صار فائق الجمال، فيما ازدادت الموسيقى كآبةً، حتّى إنَّ جِلّ لم تعرف أيَّ الأمرين جعل عينيها تَغرورِقان بالدَّمع.

ثمَّ توقَّف أصلان، ونظر الوَلَدان إلى النهر. وهناكَ، على الحصى الذهبيَّة في مجرى النهر، رأيا الملك كاسپيان مُمدَّداً وهو ميّت، والمياه تتدفَّق فوقه كالزجاج السائل. وترجرجت لحيته البيضاء الطويلة، كالأعشاب وسط الماء. فوقف الثلاثة جميعاً وبكَوا. حتّى الأسد بكى بدموعٍ أسديَّة كبيرة، كلُّ دمعة منها أغلى من الأرض كلِّها لو كانت ماسةً صُلبةً واحدة. وقد لاحظَت جِلّ أنَّ يُسطاس لم يبدُ كطفلٍ يبكي، ولا كصبيٍّ يبكي ويحاول إخفاء ذلك، بل مثل راشدٍ يبكي. على

الأقلّ، ذلك أقرب شيء استطاعت التفكير فيه. ولكنْ بالحقيقة – كما قالت هي – لا يبدو أنّ للناس أيّة أعمار محدَّدة على ذلك الجبل.

ثمّ قال أصلان: «يا ابن آدم، ادخُل ذلك الدَّغَل واقتلع الشَّوكة التي تجدها هناك وأحضِرها إليّ».

فأطاع يُسطاس. وكانت الشوكة بطول قَدَمٍ واحدة، وحادَّةً مثل سيفٍ صغير ذي حدَّين. فقال أصلان: «اغرزْها في كفّي، يا ابن آدم»، رافعاً قائمته الأماميّة اليُمنى وماداً لِبْدَ قدمهِ* الكبيرَ نحو يُسطاس.

وسأل يُسطاس: «هل يجب عليّ ذلك؟»

فردّ أصلان: «نعم!»

عندئذٍ أطبق يُسطاس فكّيه بإحكام، وغرز الشوكة في لِبْد قَدَم الأسد. فخرجت قطرةُ دمٍ كبيرة، حمراءُ أكثر من كلّ حُمرةٍ رأيتَها أو تصوَّرتَها، وتقطَّرت في النهر فوق جُثمان الملك. وفي اللحظة عينها توقَّفت الموسيقى المُحزنة. ثمّ بدأ الملكُ الميْت يتغيَّر. فقد تحوَّلت لحيته البيضاء إلى اللون الرماديّ، ومن الرماديّ إلى الأصفر، وصارت أقصر ثمّ اختفت كلّيّاً، وامتلأ خدّاه الغائران وتورَّدا، وانبسطت التجاعيد، وانفتحت عيناه، وضحكت عيناه وشفتاه جميعاً. وفجأةً قفز وهبَّ واقفاً أمامهم شابّاً

* لِبْد القدم: اللحم الشبيه بالوسادة في الجزء الداخلي لأسفل قوائم العديد من الحيوانات وأصابعها.

في ريعان الشباب، أو صبيّاً. (لم تستطع جِلّ أن تحدِّد أيُّ هذَين الخِيارين هو الصحيح، بسبب كون الناس في بَلَد أصلان بلا أعمارٍ مُحدَّدة. وبطبيعة الحال، فحتّى في هذا العالم، نجد أغبى الأولاد أكثرَهم صبيانيّة، وأغبى الراشدين أكثرهم رُشداً.) ثمّ اندفع الملك إلى أصلان، ومطَّ ذراعيه إلى آخِر مداهما حول رقبة أصلان الضخمة، وقبَّل أصلانَ بقبلاتِ الملك القويّة، فيما قبَّله أصلانُ بقبلات الأسد العجيبة.

أخيراً التفت كاسپيان إلى الآخَرين، وأطلق ضحكةً عظيمة تُعبِّر عن دهشة الفرح. وقال:

«عجباً! يُسطاس! يُسطاس! إذاً وصلت إلى آخِر العالم رُغم كلّ شيء. ماذا عن ثاني أفضل سيفٍ عندي، ذاك الذي كسرته على أفعى البحر؟»

فمدَّ يُسطاس كِلتا يدَيه، وخطا خطوةً نحو الملك، لكنّه عاد فتراجع وعلى وجهه تعابير يغلب عليها الذهول، وقال متلعثماً:

«انظر إليّ! أنا أرى أنّ كلّ شيء على ما يُرام. ولكنْ ألستَ...؟ أعني: ألَم ...؟»

فردَّ كاسپيان: «أوه، لا تكُن غبيّاً هكذا!»

والتفت يُسطاس إلى أصلان سائلاً: «ولكنْ، ألَم... أحُم... يمُت؟»

فقال الأسد بصوتٍ هادئ جداً، وكأنّه يضحك (كما تصوَّرت جِلّ): «بلى، لقد مات. ومُعظم الناس ماتوا، كما

تعلم. حتّى أنا متُّ. وقليلون جداً لم يموتوا».

وقال كاسپيان: «أوه، قد عرفتُ ما يُقلِقك. أنت تظنُّ أنّني شَبَح، أو شيءٌ تافِه. ولكنْ ألا تفهم؟ إنّني سأكون هكذا لو ظهرتُ في نارنيا الآن، لأنّني لم أعُد أنتمي إلى هناك. ولكنْ لا يمكن أن يكون المرء شبحاً في بلده. ربّما أكون شبحاً لو دخلتُ عالَمكما... لستُ أدري. ولكنّني أعتقد أن هذا العالَمَ ليس عالَمكما أيضاً، ما دُمتما هُنا الآن».

فانبعث في قلبَي الوَلَدين رجاءٌ عظيم. ولكنَّ أصلان هزَّ رأسه الأشعث قائلاً: «لا، يا عزيزيَ! عندما تُقابلانني هُنا ثانيةً، تكونان قد جئتما لِتُقيما إلى الأبد. أمّا الآن، فلا. يجب أن ترجعا إلى عالَمكما حيناً».

وقال كاسپيان: «سيّدي، طالما أردتُ أن تكونَ لي لَمحةٌ على عالَمِهما. فهل من خطإٍ في هذا؟»

فقال أصلان: «بُنيّ، لا يمكنك أن تريد أُموراً خاطئةً من الآنَ فصاعِداً، ما دمتَ قد مُتَّ. ولَسوف ترى عالَمهما، مدّةَ خمس دقائق بتوقيتهما. فلن يستغرق وضعك للأُمور في نصابها هُناك وقتاً أطول من ذلك». ثمّ شرح أصلان لكاسپيان ما كان يُسطاس وجِلّ سيعودان إليه، وأوضح كلَّ ما يتعلّق بمدرسة دار التجريب، وقد بدا أنّه يعرف ذلك الواقع تماماً كما يعرفانه.

وقال أصلان لِجلّ: «يا بُنيّة، اقتلعي قضيباً من تلك الشُّجَيرة!» ففعلت ذلك، وما إن صار القضيبُ بيدها

حتّى تحوّل إلى سوطٍ جديدٍ جيّد كالذي يستخدمه راكِبو الخيل.

ثمّ قال: «والآن، يا ابنَي آدم، جرّدا سيفَيكما. ولكنِ استخدِما المُسطّح فقط، لأنّني مُرسِلكُم على جُبَناء وأولاد، لا على مُحاربين».

وسألت جِلّ: «أأنت ذاهبٌ معنا، يا أصلان؟»

فقال أصلان: «سوف يَرَون ظهري فقط».

ثمّ اقتادهم بسرعةٍ وسط الغابة، وقبل أن يخطوا خطواتٍ كثيرة، ظهر أمامهم سور دار التجريب. عندئذٍ زمجر أصلان حتّى اهتزّت الشمس في الفضاء، وانهار أمامهم من السور نحوُ عشرة أمتار. ونظر الوَلَدان من خلال الثُغرة نزولاً إلى قلب الشُجيرات المحيطة بالمدرسة، ثمّ صعوداً إلى سطح مبنى الرياضة، فإذا كلُّ شيء ما يزال تحت سماء الخريف الداكنة التي كانا قد رأياها قبل ابتداء مغامراتهما.

التفت أصلان إلى جِلّ ويُسطاس وأطلق نَفَساً عليهما، ومسَّ جبينيهما بلسانه. ثمّ استلقى في وسط الثُغرة التي أحدثها في السور، وأدار ظهره الذهبيّ نحو إنكِلترة، ووجهه الجليل نحو أراضيه. وفي اللحظة نفسها شاهدت جِلّ أشكال أشخاصٍ تعرفهم جيّداً يركضون صعوداً نحوهم بين أشجار الغار.

كانت أغلبيّة العصابة هناك: أديلا پنيفَذَر وكُلومُندِلي مايجور، إيدث وِنترَبلُط، سورنَر «المُرقَّط»، بانيشتَر الكبير،

وتوأما غاريت البغيضان. ولكنَّ هؤلاء توقَّفوا فجأةً، وقد تغيَّرَ منظر وجوههم، حتَّى كادت كلُّ دناءتهم وخداعهم وقسوتهم ونميمتهم تختفي في تعبير رُعبٍ واحد. إذ رأوا السور مُهدَّماً، وأسداً بحجم فيلٍ صغير مُستلقياً في الثُغرة، وثلاثةَ أشخاص في ثيابٍ برَّاقة وبأيديهم أسلحة هاجمين عليهم من فوق. وإذ حلَّت على الثلاثة قوَّةُ أصلان، أعملت جِلّ سوطها في البنات وأعمل كاسپيان ويُسطاس مُسطَّحَي سيفيهما في الصبيان، على أفضل نحو، حتَّى إنَّه في ظرف دقيقتين بات جميع المتنمِّرين يركضون مسعورين، صارخين: «قتل! فاشيُّون! أُسود! ليس هذا عدلاً».

ثُمَّ أقبلت مديرة المدرسة راكضةً لتعرف ما يجري. ولمَّا رأت الأسد والحائط المهدوم وكاسپيان، وجِلّ ويُسطاس (اللذين لم تعرفهما إطلاقاً)، أصابتها هِستيريا، فرجعت إلى مبنى المدرسة وأخذت تتَّصل بالشُرطة وتحكي أخباراً عن أسد هرب من سيرك، ومُجرِمين فرُّوا من سجن وهدموا أسواراً وشهروا سيوفاً مُجرَّدة.

وفي خضمِّ تلك الجَلَبة كلِّها، انسلَّ يُسطاس وجِلّ بهدوءٍ إلى الداخل، واستبدلوا بثيابهم البَرَّاقة ثياباً عاديَّة، ورجع كاسپيان إلى عالمه. كما أنَّ السور، بكلمةِ أصلان، عاد سليماً من جديد. ولمَّا جاء رجال الشرطة ولم يجدوا أسداً، ولا سوراً مهدوماً، ولا مُجرمين، ومديرة المدرسة تتصرَّف كأنَّها مجنونة، أجرَوا تحقيقاً في القضيَّة

كلِّها. وبنتيجة التحقيق، انكشفت أُمور شتَّى تتعلَّق بمدرسة دار التجريب، وجرى طرْد نحو عشرة أشخاص. وبعد ذلك، لمَّا تبيَّن لأصدقاء المديرة أنَّها غير صالحة للإدارة، سعَوا لجعلها مُفتِّشة كي تتدخَّل في شؤون مُدَراء آخرين. ولمَّا تبيَّن لهم أنَّها لم تُبلِ حسناً ولو في ذلك، أوصلوها إلى البرلمان، حيث عاشت عيشة سعيدة ورغيدة طوال عمرها.

ثمَّ طمر يُسطاس ثيابه الأنيقة سرّاً ذات ليلة في أراضي المدرسة. أمَّا جِلّ فقد هرَّبت ثيابها إلى بيتها، ولبستها كأزياء تنكُّرية في حفلة رقص في العُطلة التالية.

ومن ذلك اليوم المشهود فصاعداً، تغيَّرت الأمور للأفضل في مدرسة دار التجريب، وصارت مدرسة جيِّدة تماماً، وظلَّ يُسطاس وجِلّ صديقَين صادقَين كلَّ حين.

أمَّا في نارنيا بعيداً، فقد دفن الملك ريليان أباه، كاسپيان الملاَّح، أو كاسپيان العاشر، وناح عليه. وقد حكم ريليان نارنيا حكماً صالحاً، وعاشت البلاد في سعادة أثناء مُلكِه، مع أنَّ بِركهموم (وقد شُفِيَت قدمه تماماً في غضون ثلاثة أسابيع) كثيراً ما أشار إلى أنَّ كلَّ صباحٍ صاحٍ يجلب عصرَ نهارٍ ماطِراً، وأنَّ الأوقات السعيدة لا ينبغي أن يُتوقَّع استمرارُها.

وقد تُرِكت الثُغرة في مُنحَدر التلَّة مفتوحة. وكثيراً ما صار النارنيانيُّون في أيَّام الصيف الحارَّة يتوجَّهون إلى هنالك ومعهم قوارب ومصابيح، ثمَّ ينزلون إلى الماء

ويُبحِرون ذهاباً وإياباً وهُم يُغنُّون، في البحرِ البارد المُظلِم تحت الأرض، ويخبرون بعضهم بعضاً قصصاً عن المدن القابعة في الأسفل على عُمق قاماتٍ كثيرة.

وإذا ابتسم لك الحظ يوماً وقُدِّر لك أن تذهب إلى نارْنيا، فلا تنسَ أن تُلقيَ نظرة على تلك الكهوف العجيبة.

المعركة الأخيرة

«لم يسبق لي في أيِّ يومٍ من عمري أن شاهدتُ في السماوات كتابةً عن أمورٍ رهيبةٍ كالتي ما زلتُ أشاهدُها ليلاً منذُ أوّلِ هذا العام». هذا ما قاله نارذكاء القنطور.

في الحقيقة حين قُذِف بجِلّ ويُسطاس إلى نارنيا، اكتشفا أن كل شيء في حالةٍ من التشويش والاختلاط والشك. فقد أقنع شفطة، أذكى القرود وأبشعها وأكثرها تجاعيد في جسمه، لغزانَ الحمارَ الساذجَ بأن يرتدي جلدَ أسدٍ ويظهر كما لو كان أصلان. ولذا، حين بدأ «أصلان» يعطي أوامرَ رهيبةً غريبةً، غاص الحيوانات والأقزام في حيرةٍ بشأن ما عليهم عمله ومَن يصدِّقون. والآن، ينبغي لتِريان، ملكِ نارنيا، أن يتصرّف بسرعةٍ، قبل أن يفسد كل مجتمع الحيوانات وتتلاشى وحدة المملكة وتناغمها تماماً. ويا لها من مفاجأةٍ حين انضم بطرس وإدمون ولوسي إلى جِل ويُسطاس لمساعدة تِريان في المعركة العظيمة التي ستقرِّر إلى الأبد مستقبل مملكة نارنيا المجيدة!

هذه مغامرة سابعة في روايات «عالم نارنيا» المثير.